

علم اللغة العربية

(١)

أَسْئَلُ عِلْمَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

تأليف

الدكتور

محمد فوزي عجوزي

٢٠٠٣

دار الثقافة للطباعة والنشر

بالقاهرة

٢١ شارع كامل صحنى بالنفجالة

ت: ٩١٦٠٧٦ - القاهرة



الفهرست

الصفحة	مقدمة
•	
٢٩-٧	الفصل الاول : اللغة والحياة اللغوية
٨	طبيعة اللغة
٩	اللغة والكتابة
١٠	النظام اللغوي
	الرموز اللغوية والدلالة
١٥	وظيفة اللغة
• ١٦	الفصحى واللهجات
١٨	أشكال التنوع اللغوي
٢٠	لغات التعامل واللغات الدولية
٢٢	مستويات الاستخدام اللغوي
٢٤	مستويات الاستخدام اللغوي والقوانين الصوتية
٢٦	اللغة والكلام
٢٨	المؤثرات العامة في الحياة اللغوية
٥٨-٣٠	الفصل الثاني : علم اللغة الحديث
٣٠	علم اللغة وعلم النصوص القديمة
٢٤	علم اللغة المقارن

٣٧	علم اللغة الوصفي
٤٠	علم اللغة التقابلي
٤١	علم اللغة والبحث النحوي
٤٣	علم اللغة العام
٤٤	قضايا البحث في علم اللغة
٤٧	التسميات المختلفة لعلم اللغة
	(فقه اللغة — علم اللغة — علم اللسان —
	اللسانيات — الأسفنية — اللسانيات —
	النحو المقارن — اللغويات)
٤٨	علم اللغة وعلم النفس
٥١	علم اللغة والعلوم الاجتماعية
٥٢	علم اللغة وتعليم اللغات
٥٨	علم اللغة بين العلوم
٧٣ — ٥٩	الفصل الثالث : علوم اللغة في التراث العربي
٥٩	النحو وعلم العربية
٦٦	اللغة وعلم اللغة وفقه اللغة
٦٩	علم اللسان وعلوم الأدب والعلوم العربية
٨٤ — ٧٤	الفصل الرابع : كتب طبقات النحويين واللغويين
٧٤	كتب الطبقات
٧٦	كتاب الفهرست
٧٧	كتب التراجم
٨٢	المراجع العامة الحديثة في التراث

٩٦-٨٥

الفصل الخامس : المكتبة النحوية

٨٦

كتاب سيبويه والنحاة البصريون

٨٨

النحاة الكوفيون في القرنين الثاني والثالث

٩٠

نحاة القرن الرابع

٩٣

الكتب النحوية التعليمية والمنظومات

٩٤

الموسوعات النحوية والشروح

١١٩-٩٧

الفصل السادس : المكتبة اللغوية

٩٧

جمع اللغة وتأليف المعاجم

١٠١

معاجم الترتيب الصوتي

١٠٥

معاجم الترتيب الهجائي

١٠٨

مصادر المعاجم الموسوعية العامة

١١١

المعاجم الدلالية الخاصة ذات الترتيب الهجائي

١١٥

المعاجم الموضوعية

١١٦

كتب الألفية الصرفية

١١٧

كتب التثقيف اللغوي ولحن العامة

١١٩

كتب الموضوعات الصوتية

١٣٢-١٢٠

الفصل السابع : المنهج المقارن وتصنيف اللغات

١٢٠

تصنيف اللغات

١٢٣

العرب واللغات الأجنبية

١٢٦

الأوروبيون والمقارنات

١٢٨

نشوء علم اللغة المقارن

١٣٣ - ١٤٠

الفصل الثامن : اللغات السامية بين اللغات

الافروآسيوية

١٣٣

١ - اللغات الافروآسيوية

١٣٤

٢ - اللغات السامية

١٣٦

٣ - اللغات السامية واللغة المصرية القديمة

١٣٨

٤ - اللغات السامية واللغة الليبية القديمة

١٤١ - ١٥٣

الفصل التاسع : الخصائص المشتركة بين اللغات السامية

١٤١

١ - الاصوات

١٤٤

٢ - بناء الكلمة

١٤٩

٣ - بناء الجملة

١٥٠

٤ - الالفاظ الاساسية

١٥٤ - ١٩٧

الفصل العاشر : الخصائص المشتركة بين اللغات السامية

١٥٤

١ - الفرع الاكادي

١٦٠

٢ - الفرع الكنعاني

١٦١

الاجريزية

١٦٤

الفينيقية

١٦٨

اللهجات الكنعانية الجنوبية

١٦٨

العبرية

١٧٦

٣ - الفرع الآرامي

١٧٧

الآرامية القديمة

١٨٠

السريانية

١٨٤

اللهجات الآرامية اليهودية

الصفحة	
١٨٦	النبطية
١٨٨	٤ — العربية الجنوبية
١٩٢	٥ — اللغات السامية في الحيشة
١٩٨ — ٢١٩	الفصل الحادى عشر : العربية فى ضوء اللغات السامية
١٩٩	١ — الخطوط السامية والواقع الصوتى
٢٠٢	٢ — القوانين الصوتية
٢٠٢	الثاء العربية ومقابلاتها فى اللغات السامية
٢٠٣	الضاد العربية ومقابلاتها فى اللغات السامية
٢٠٤	٣ — أصوات عربية تختلف عن السامية الأولى
٢٠٥	السين والشين العربيتان وأصولهما السامية
٢٠٧	٤ — الضمائر
٢٠٩	٥ — الأسماء الثنائية
٢١٢	٦ — الأفعال
٢١٣	٧ — تحديد الجذور فى ضوء المقارنات
٢١٤	٨ — الالفاظ المشتركة
٢١٥	٩ — الدخيل فى ضوء القوانين الصوتية
٢١٧	١٠ — المقارنات اللغوية وتاريخ الالفاظ
٢٢٠ — ٢٤١	الفصل الثانى عشر : العربية فى جزيرة العرب
٢٢٠	النقوش العربية القديمة
٢٢١	النقوش النجدية
٢٢٢	النقوش الصفوية
٢٢٣	النقوش اللحيانية

الصفحة	الخط
٢٢٤	اللغة
٢٢٥	اللهجات العربية واللغة الفصحى
٢٢٧	الهمز بين التحقيق والتخفيف
٢٢٨	الامالة
٢٢٩	الاتباع = التوافق الحركي
٢٣٢	مطابقة الفعل والفاعل
٢٣٥	ما الحجازية
٢٣٦	قضية الاستخدام اللغوي للفصحى واللهجات
٢٣٧	الفصل الثالث عشر : العربية في المشرق الآسيوى
٢٧٤ — ٢٤٢	١ — موجات التعريب في المشرق
٢٤٢	٢ — العربية في العصر الاموى
٢٤٥	٣ — الجاحظ وملاحظاته اللغوية
٢٤٨	٤ — العربية بين البداوة والحضارة
٢٥٤	٥ — العربية في القرن الرابع
٢٦١	٦ — الهمداني والحياة اللغوية في القرن الرابع الهجرى
٢٦٤	٧ — المقدسى والحياة اللغوية في القرن الرابع الهجرى
٢٦٧	٨ — العلاقات اللغوية في القرن الخامس إلى
٢٧١	آخر العصر الحديث
٣٠٣ — ٢٧٥ ص	الفصل الرابع عشر : العربية في القارة الافريقية
٢٧٥	١ — تعريب مصر والنوبة والسودان
٢٨٤	٢ — المغرب وتعريف البربر
٢٩٢	٣ — العربية جنوب دول المغرب

الصفحة	
٢٩٩	٤ - العربية لغة الدين والثقافة الإسلامية
٣٠٤ - ٣٢١	الفصل الخامس عشر : اتجاهات التغير في
٣٠٤	البنية والمعجم
	١ - التغير في البنية
٣١١	تراكيب نحوية جديدة
٣١٤	٢ - نمو المفردات في العربية
٣٢٣	الفهرست

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

١٩٧٩/١٥٥٣ م

للتزقيم الحولى

٨ - ٨٤ - ٧٢٥٧ - ٩٧٧

مقدمة

هذا الكتاب محاولة لتقديم الأسس العامة للبحث التاريخي والمقارن في اللغة العربية . ويقوم هذا الكتاب على النظرية العامة لعلم اللغة الحديث من جانب ، وعلى الاهتمام بالتراث اللغوي العربي من الجانب الآخر .

فإذا كان علم اللغة الحديث قد حقق بمناهجه الدقيقة تقدماً ملحوظاً في مجالاته المختلفة ، فإن الاستفادة من وضوح الرؤية ودقة المناهج التي طورها علم اللغة في القرنين التاسع عشر والعشرين قد أصبحت ضرورة علمية . لقد شغل عدد من الباحثين بدراسة النحو المقارن للغات السامية ، وأتاح هذا المنهج رؤية جديدة للعربية في ضوء اللغات السامية . واهتم كثير من الباحثين في اللغات المختلفة بقضية التأريخ اللغوي ، وما يزال البحث في اللغة العربية بحاجة إلى جهود كثيرة تفيد من كل المصادر المتاحة لإيضاح الجوانب المختلفة من تاريخ اللغة العربية .

وهدف هذا الكتاب أن يقدم للدارسين والطلاب في صورة مركزة الملامح العامة والمعلومات الأساسية للبحث العلمي في اللغة العربية في ضوء النظرية الحديثة لعلم اللغة العام وعلم اللغات السامية المقارن والتراث العربي . وآمل أن يحقق هذا الكتاب ما يشده القاري . من وضوح موضوعي ورؤية علمية .

محمد فهمي حجازي

الفصل الأول

اللغة والحياة اللغوية

هناك تعريفات كثيرة للغة عرفتها الدوائر العلمية المختلفة في شتى الحضارات .
ويعد تعريف اللغة عند ابن جني (المتوفى ٣٩١ هـ) من التعريفات الدقيقة إلى حد
بعيد . قال ابن جني : « حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » (١) .
وهذا تعريف دقيق يذكر كثيراً من الجوانب المميزة للغة . أكد ابن جني أولاً
الطبيعة الصوتية للغة ، كما ذكر وظائفها الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر ، وذكر
أيضاً أنها تستخدم في مجتمع فكل قوم لغتهم . ويقول الباحثون المحدثون
بتعريفات مختلفة للغة (٢) ، وتؤكد كل هذه التعريفات الحديثة الطبيعة الصوتية

(١) الخصائص لابن جني ٣٣/١ ، وتعريف ابن خلدون : « اللغة في المتعارف
هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسان ناشئة عن القصد لإفادة
الكلام فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان ، وهو في
كل أمة بحسب اصطلاحاتهم (المقدمة ١٢٥٤) « اللغة ملكة في اللسان وكذا الخط
صناعة ملكتها في اليد » (المقدمة ١٢٥٢) .

(٢) انظر : L. Bloomfield, A set of postulates for the science of
Language, in : Psycholinguistics ed. by Sol Saporta, P. 26-28.
B. Bloch and G.L. Trager, Outline of Linguistic Analysis, pp.5-7.
Carroll, The Study of Language, p. 10.

لغة ، والوظيفة الاجتماعية للغة ، وتنوع البنية اللغوية من مجتمع انساني لآخر .

١ - طبيعة اللغة :

اللغة أولا وقبل كل شيء نظام من الرموز الصوتية ، وتكمن قيمة أي رمز في الاتفاق عليه بين الأطراف التي تتعامل به ، وقيمة الرمز اللغوي تقوم على علاقة بين متحدث أو كاتب هو المؤثر وبين مخاطب أو قارئ هو المتلقي . واللغة وسيلة التعامل ونقل الفكر بين المؤثر والمتلقي . وصدور هذه الرموز الصوتية اللغوية لأداء معان محددة متميزة يعنيها المتحدث ويفهمها المتلقي - معناه اتفاق الطرفين على استخدام هذه الرموز للتعبير عن الدلالات المقصودة . وبهذا يكون هناك ارتباط غير مباشر بين الجهاز العصبي للمتكلم والجهاز العصبي للمخاطب وما اللغة إلا وسيلة الربط بينهما وأداة التعبير . فكل موقف كلامي يشترط وجود متحدث ومتلقي . وتم عملية الكلام بأن يصدر الجهاز العصبي عند المتحدث أوامره إلى الجهاز اللغوي عنده ، فتصدر اللغة وتمضى على شكل موجات صوتية في الهواء فيتلقاها المتلقي بجهازه السمعى ، ثم تنتقل بعد ذلك إلى جهازه العصبي فتترجم هذه الرموز الصوتية اللغوية إلى معانيها المرتبطة بها . واللغة وسيلة التعامل الاجتماعية الأولى في المجتمع الانساني ، أما وسائل الاتصال الأخرى مثل الاشارات الصوتية أو أعلام الكشافة فليست إلا محاولة بديلة للنظام اللغوي ، وهي تقوم أساساً على النظام اللغوي ولذا ليس لها بدونه وجود .

وقد عرف كارول اللغة على النحو التالي : آية لغة من اللغات هي نظام نبوي
Structural System من الاصوات العرفية المنطوقة arbitrary vocal sounds
ومن الاصوات sequences of sounds التي تستخدم أو التي يمكن أن تستخدم
في التعامل بين الافراد interpersonal communication عند مجموعة من
البشر ، ويصنف الاشياء والاحداث والعمليات التي تتم في البيئة الإنسانية .

اللغة والكتابة :

الرموز اللغوية Linguistic symbols رموز صوتية، ومعنى هذا أن طبيعة اللغة تتخذ في المقام الأول صورة صوتية منطوقة مسموعة . فالكتابة في أحسن أحوالها محاولة للتعبير عن اللغة في واقعها الصوتي ، وهذه المحاولة دقيقة أحيانا وغير دقيقة في أكثر الأحيان . والكتابة محاولة لنقل الظاهرة الصوتية السمعية إلى ظاهرة كتابية مرئية ، فاللغة تسمع بالأذن والكتابة ترى بالعين . الكتابة محاولة لترجمة الظاهرة الصوتية السمعية إلى ظاهرة كتابية مرئية ؛ والكتابة محاولة لنقل اللغة من بعدها الزمني إلى البعد المكاني، فالظواهر الصوتية تتتابع في الزمن والحروف المكتوبة تتتابع في المكان . وإذا كانت اللغة في المقام الأول ظاهرة صوتية فن الطبيعي أن يقوم البحث اللغوي بدراسة اللغة في صورتها الصوتية .

وعليما أن نميز دائما بين الطبيعة الصوتية للغة وكتيفية تدوين هذه اللغة ، فالخط العربي شيء . واللغة العربية شيء آخر . الخط العربي ذو إمكانيات معينة يحاول بها التعبير عن الواقع الصوتي . ويدون الخط العربي الأصوات الصامتة مثل الباء والسين والصاد . . . إلخ والحركات الطويلة وهي : الضمة الطويلة والفتحة الطويلة والكسرة الطويلة بحروف الكتابة العربية . الخط يتعامل بالحروف ، وعلم اللغة يتعامل بالأصوات . يحاول الخط العربي بشكل ما تدوين أصوات اللغة العربية إلا أن الحركات القصيرة وهي الضمة والفتحة والكسرة ليست لها حروف في الخط العربي ، ولذا فكتابتها أمر اختياري . ولكن الحركات القصيرة — شأنها شأن الحركات الطويلة والصوامت — عناصر أساسية في تكوين النظام اللغوي للعربية وكل اللغات . يؤدي تغيير الحركات إلى تغيير المعنى فالفرق بين «ضرب» المبنى للمعلوم و«ضرب» المبنى للمجهول فرق في الحركات أدى إلى تحول في الصيغة وتغيير في المعنى .

وثمة فرق أساسي بين مجموع الحروف ومجموع الأصوات في أنماط كثيرة من الكلمات العربية فالقمل الماضي : كتبوا ، سافروا . . الخ ينتهي بألف ليست لها أية

دلالة صوتية . وعلى العكس من هذه الظاهرة نجد الحروف التي تكتب بها كلمات كثيرة أقل عدداً من الأصوات المسكونة لها ، وبعض الحركات الطويلة لا تكتب في بعض الكلمات ، مثل : هذا ، هذه . . . إلخ . وثمة فرق آخر بين الحروف والأصوات ، ويتضح هذا الفرق بأن نلاحظ أن حرف الواو في الخط العربي يرمز إلى ظاهرتين صوتيتين مختلفتين في اللغة العربية ، فالواو ترمز في تدوين الكلمات : ورد ، ولد ، إلى صوت صامت في العربية ، بينما ترمز الواو نفسها في تدوين الكلمات خلود ، سرور ، شهود إلى حركة طويلة في اللغة العربية . وكذلك حرف الياء في الخط العربي ، فهو يرمز تارة إلى صوت صامت في الكلمات : يكتب ، يلعب ، وتارة أخرى إلى حركة طويلة في الكلمات : في ، لي . ولهذا كله لا يجوز في بحث اللغة العربية — أو أية لغة أخرى — أن تتعامل بالحروف المكتوبة ، بل علينا أن ندرس الأصوات اللغوية المسكونة لهذه اللغة ، محاولين في كل حالة أن نتبين الواقع الصوتي للغة مراعين مدى الاختلاف بين اللغة باعتبارها ظاهرة صوتية وكيفية تدوينها بالحروف .

النظام اللغوي

الرموز الصوتية — التي يتعامل بها أبناء الجماعة اللغوية الواحدة محدودة ، فأكثر اللغات تتعامل كل منها بحوالي ثلاثين رمزاً صوتياً ، وتتعامل كل اللغات الإنسانية مجتمعة بما لا يزيد عن خمسين رمزاً صوتياً لسكل لغة منها نصيب . ولكن هذه الرموز المحدودة تعبر في كل لغة من هذه اللغات الكثيرة عن أكثر ما يريد الإنسان التعبير عنه في كل مجالات الحياة والفكر . إنها ثلاثون رمزاً تقريباً في كل لغة من اللغات تسكون آلاف الكلمات ثم ملايين الجمل لنقل ملايين الملايين من المعاني وظلال المعاني . وتسكون هذه الرموز الصوتية المحدودة بنية اللغة باتخاذها عدة أنساق محددة ، فالكلمات ، دكان ، ودكان ، تسكونان من نفس الصوامت ونفس

الحركات ، الصوامت هنا :الكاف والتاء والباء ، والحركات هي : الكسرة والفتحة وحركة الأعراب . غير أن هذه الحركات تتخذ في السكلتين السابقتين نسقين مختلفين . واستخدام الرموز الصوتية المحدودة في كل لغة من لغات الأرض في أنساق مختلفة أتاح لها أن تكون آلاف السكلمات . وتتخذ الأجزاء المختلفة في النظام اللغوي في كل حالة على حدة ترتيباً محدداً ، فلكل رمز صوتي وظيفته في السكلمة ، ولكل كلمة وظيفتها في العبارة أو الجملة . وينبغي الالتزام بالنسق المتفق عليه في البيئة اللغوية الواحدة ، وإلا فقد الرمز قدرته على النقل والإيجاء . وهذا النسق اللغوي يتضمن ترتيب الأصوات داخل السكلمة وترتيب الكلمات داخل الجملة . وهنا تكون مهمة الباحث في اللغة أن يتبين طبيعة هذه الرموز الصوتية والأنساق المختلفة التي يتخذها لتسكون الكلمات ثم عليه أن يتبين أيضاً الأنماط المختلفة لترتيب هذه الكلمات لتسكون الجمل المختلفة .

اللغة ظاهرة غير مادية ، شأنها في هذا شأن العرف والمادات . وهناك فرق أساسي بين بحث الظواهر المادية في مجتمع ما وبحث الظواهر غير المادية في نفس المجتمع . ويمكن استيعاب الظواهر المادية مثل أشكال السكن والملابس وأدوات العمل بوصف هذه الأشياء ، وصفا مباشراً . ولكن دارس الظواهر غير المادية يواجه مجموع العناصر غير المرئية وقد تداخلت جزئياتها تداخلاً كاملاً وهذا شأن عالم اللغة في بحثه للغة وعالم الاجتماع في بحثه للعرف مثلاً . كلاهما مطالب بملاحظة آلاف الجزئيات المكونة للنظام اللغوي أو للنظام العرفي وأن يتبين هذه الجزئيات ، وأن يصنفها تصنيفاً واضحاً ، وأن يلور العلاقات الكامنة بين هذه الجزئيات المتكاملة . فالباحث في اللغة يلاحظ ، ثم يسجل ، ثم يصنف ، ثم يلور ليكشف « بنية اللغة » التي يدرسها .

الرموز اللغوية والدلالة

تكتسب الرموز اللغوية قدرتها الإيحائية عن طريق الاستخدام ، والكلمة

أقل عناصر اللغة ذات الدلالة ، وليس هناك معنى محدد لصوت السين أو صوت الصاد لاي صوت آخر . وعندما يسمع الإنسان لغة أجنبية لا يعرفها فإنه لا يستطيع — أول الامر — أن يميز الكلمات المختلفة التي يسمعها ، فهو يسمع اللغة مجرد جرس صوتي غير متميز الملامح ، ثم يأخذ الطفل في تمييز الرموز الصوتية التي يسمعها شيئاً فشيئاً ، وما إن يكتمل تمييز الطفل بين هذه الاصوات وتكتمل قدرته على محاكاتها حتى يكون الطفل قد اكتسب الاساس الصوتي للغة الأم . وترتبط هذه المرحلة بملاحظات استخدام كل كلمة وكل عبارة سمعها الطفل ، فهو لا يسمع الاصوات المكونة للكلمات والعبارات مجردة عن سياقها ، بل يسمع عبارات معينة في مناسبات محددة ، وبذلك ترتبط كل كلمة وكل عبارة في عقل مكتسب اللغة أو مستخدمها بمواقف خاصة وظروف معينة . وما المعنى إلا حصيلة المواقف التي استخدم فيها الرمز اللغوي . ولذا فالوسيلة العلمية لمعرفة دلالة كلمة من الكلمات أو عبارة من العبارات تلتخص في بحث الظروف والملاحظات التي استخدمت فيها الكلمة فاكنتسب معناها وقدرتها الإيحائية . وليست هناك أية علاقة طبيعية بين الرمز اللغوي ومدلوله في الواقع الخارجي ، والعلاقة الوحيدة القائمة بين الرمز الصوتي اللغوي وما يدل عليه هي علاقة الرمز ، فالكلمة ترمز إلى شيء مادي أو معنوي وعلى هذا فلا علاقة طبيعية تربط الاصوات المكونة للكلمة المنضدة في العربية أو كلمة Tisch في الألمانية وبين المنضدة كواقع مادي . والمنضدة في اللغة العربية كلمة مؤنثة ، لا لأن هناك تأنيثاً في خشب المنضدة ولكن لأنها تنتهي بتاء ، والتاء في العربية علامة تأنيث ، فالتأنيث هنا ليس للمنضدة كواقع مادي ملموس بل للكلمة منضدة في اللغة العربية . ويقابل هذه الكلمة بالألمانية كلمة der Tisch وهذه الكلمة الألمانية تصنف من المذكور . ولذا فتصنيف الكلمات في اللغة الواحدة يكون نظاماً لغوياً مستقلاً عن مدلولات هذه الأشياء في الواقع الخارجي ، وكل ما يربط الكلمة بمدلولها هو

علاقة الرمز . ويصدق هذا على كل ظواهر وكلمات اللغة الإنسانية ، فاللغة لها نظامها الداخلي . وليس هذا النظام انعكاساً مباشراً للواقع الخارجى بل هو رؤية له بطريقة ما . وتصدق علاقة الرمز على كل الألفاظ فى كل اللغات ، فليست هناك علاقة طبيعية بين بعض الألفاظ ومدلولاتها فى الواقع الخارجى .

وقد توهم البعض فى عدد من الكلمات مثل : خرير ، صهيل ، هديل محاكاة للطبيعة . وأطلق ابن جنى^(١) على هذه الكلمات اسم الأصوات المسموعات ويطلق على هذه الكلمات فى الإنجليزية Onomatopoeic Words ولكن هذه الكلمات لا تختلف فى شىء عن باقى كلمات اللغة من الناحية الدلالية ، إذ أنها لم تسكنب قيمتها الرمزية إلا فى بيئة لغوية محددة ، فليست دلالات هذه الكلمات طبيعية مشتركة فى كل اللغات ، بل كل منها ذات إحياء محدد فى مجتمع لغوى بعينه دون غيره فكلمة « خرير » تؤدى معناها فى البيئة اللغوية العربية وتوحى فيها بصوت الماء المتدفق المتلاطم ، ولكن هذه الكلمة ليست لها أية دلالة أو معنى أوفدرة إحيائية خارج البيئة اللغوية العربية . وربما توهم البعض وجود علاقة طبيعية بين معنى الإيجاب والموافقة وكلمة « أيوه » فى اللهجة العربية القاهرية ، والواقع أن هذه الكلمة لا توحى

(١) عد ابن جنى على هذه الكلمات — أصل اللغة (الظر : الخصائص ١/ ٤٠) أما الاصطلاح الأوربى فيرجع إلى كلمة onoma (وتعنى فى اليونانية اسم) + كلمة poesis (وتعنى فى اليونانية : حدث) وليس هناك شك فى إحياء هذه الكلمات ، ولكن هذا الإحياء نشأ عن الكلمة ولم تنشأ الكلمة من الصوت الموجود فى الطبيعة فصوت الكلب يطلق عليه فى الإنجليزية (أمريكا) bowwow وفى فرنسا gnaf-gnaf وفى اليابان wam-wam ولا يمكن أن تكون كل هذه الكلمات معبرة عن الصوت الحقيقى لتباح الكلب ، ومن ثم لا علاقة بين أية كلمة منها وبين صوت الكلب وعلى الرغم من هذا فهى فى المثال السابق تشترك فى كونها من مقطع متكرر .

بهذا المعنى إلا في مجتمع يفهم اللهجة القاهرية ، ولو قبلت وحدها لمخاطب أمريكي لفهم منها اسم ولاية أمريكية ، ولو نطقت أمام ألماني لما فهم منها أى شئ. على الإطلاق . وكل هذا يدل على ارتباط دلالة هذه الكلمة وغيرها من الكلمات بالاستخدام اللغوي في بيئة لغوية محددة ، وليست هناك علاقة طبيعية بين الصوت اللغوي أو الكلمة ودلالاتها . فالمعنى هو حصيلة استخدام الكلمة في البيئة اللغوية الواحدة .

وهناك تصور سائد في بعض البيئات المتحضرة وفي كل البيئات الأقل تحضراً تجاه بعض الكلمات ، فنطق كلمة بمينها عندهم يعنى استحضر الشئ.، وكأن الكلمة والشئ الذى تدل عليه يكونان وحدة طبيعية واحدة . ويؤدى هذا التصور إلى تجنب ذكر أسماء الأمراض وأسماء الوحوش حتى لا تحل بالمسكان الذى نطقت فيه أسماؤها . ولذا تنوعت تسميات الخيوان المخيف في الجماعة اللغوية الواحدة وقد تجنببت جماعات لغوية في شمال أوروبا ذكر اسم الدب صراحة فكأنوا يرمزون له بتسميات أخرى مجازية حتى لا يحضر ^(١) ، كما حاول العرب تجنب حضور الاسد

(١) يطلق على هذه الظاهرة taboo Influence وأشهر أمثلتها في اللغات الأوروبية اختفاء للكلمة القديمة للدب من لغات شمال أوروبا بينما احتفظت بها السنسكريتية واليونانية ، وقد حلت محل هذه الكلمات صفات للدب تحولت بعد ذلك إلى أسماء له ، انظر :

- S. Ullmann, Principles of Semantics, p. 184.
W. Havers, Neueré Literature zum Sprachtabu (Akademie Der Wissenschaften in Wiena, Phil-Hist. Kl. Sitzungsberichte. 223, 5 1946) .
N.B. Emenau, Taboos on Animal Names, (Language XXIV 1948 56-63)

بأن أطلقوا عليه تسميات مجازية أخرى كثيرة حتى لا يحل بالمكان . ورغم وجود أمثلة كثيرة لذلك في نبات حضارية مختلفة فواقع اللغة يثبت أنه لا علاقة بين الرمز اللغوي وما يشير إليه في عالم الواقع إلا علاقة الرمز . وكل الرموز اللغوية سواء في ذلك .

١ - وظيفة اللغة

يرتبط الرمز اللغوي ببيئة محددة يطلق عليها الجماعة اللغوية Linguistic Community فعندما يسمع إنسان لغة أجنبية لا يعرفها يسممها أصواتاً غير متميزة ، وليس لها تصنيف واضح عنده وليست لها دلالة رمزية ، إنه يسمع سلسلة صوتية ليست لها وحدات متميزة . ولكن ابن اللغة أو العارف بها لا يسمع هذه السلسلة الصوتية فحسب ، بل يميز مكوناتها ويفهم محتواها الدلالي .

ومن الممكن بحث الأصوات المنطوقة من ناحية الخصائص الفيزيائية . فالمادة الصوتية موضوع من موضوعات التحليل في الفيزياء ، ويكشف التحليل الفيزيائي للصوت عن جوانب كثيرة من خصائصه الطبيعية ، مما يفيد أيضاً من الناحية التطبيقية في تصميم أجهزة التليفونات وأجهزة الإرسال والاستقبال اللاسلكي وتصميم المباني التي يتردد فيها الصوت . الخ . . ولكن البحث اللغوي لا يبحث الخصائص الفيزيائية باعتبارها هدفاً في ذاتها ، بل يبحث المادة الصوتية باعتبارها وسيلة لتوصيل المعلومات ولذا لا يراها مجرد حشد صوتي كما تبدو الأجني وكما يسجلها الجهاز الأصم بل يرى فيها نظاماً محدداً من الرموز المتميزة التي تحمل معنى .

تختلف الخصائص الفيزيائية للصوت باختلاف الأفراد والمواقف الكلامية داخل الجماعة اللغوية الواحدة ، فلكل فعل كلامي خصوصيته . وتختلف الخصائص النطقية والفيزيائية للعبارة الواحدة باختلاف الأفراد ، وقد يختلف نطق الإنسان الواحد لنفس العبارة باختلاف أحواله النفسية ويتغير نطقه بتقدم العمر . ومع هذا

فالجماعة اللغوية هي الجماعة التي تتشابه فيها مجموع العبارات التي يتعامل بها أبنائها ، على نحو يمكنهم من الفهم المتبادل mutual intelligibility ومجموع العبارات المستعملة في الجماعة اللغوية يصدر عن بنية لغوية واحدة تربط كل أفراد الجماعة . وتتحدد الجماعة اللغوية باعتبار تشابه مجموع العبارات التي يتعامل بها أفرادها ، فتعاملهم بها هو الذي جعل منهم جماعة لغوية واحدة (١) .

الفصحى والمهجات :

يوجد في أكثر الجماعات اللغوية في العالم أكثر من مستوى لغوي واحد يشارك الفرد في كل مستوى منها وفق المواقف الكلامية التي يعيشها ، فالمواقف الكلامية في مجال الحياة اليومية تختلف عنها في المجالات الثقافية أو مجالات السياسة . قد يكون هذا الاختلاف في إطار اللغة الواحدة كما هي حال المثقفين من أبناء اللغة الألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية في تعاملهم بلغاتهم . وقد يكون الاختلاف أكثر من ذلك

(١) إن الفهم المتبادل بين شخصين يتحدثان معاً ليس بالضرورة دليلاً على كونهما يتحدثان نفس اللغة ، ولا بد أن يكون لإثبات أنهما يتحدثان نفس اللغة قائماً على أساس تشابه مكونات أقوالهما بدرجة عالية ، أي أن يكون كلاهما يتعامل بنفس النظام اللغوي . انظر :

Carroll, The Study of Language, p. 8.

يعبر بلومفيلد عن رأيه في ذلك على النحو التالي :

كل فعل كلامي act of speech ينتج قولاً Utterance ، والجماعة التي تتشابه فيها مجموع الأقوال التي يتعامل أبنائها ، ومجموع الأقوال المستعملة في الجماعة اللغوية (= الكلامية) الواحدة هي لغة هذه الجماعة . والسمات النطقية المشتركة في اللغة الواحدة هي الصيغ Forms أما المعاني Meanings فهي المحتوى الدلالي للفعل الكلامي . (انظر : المرجع السابق) .

— فى إطار اللغة الواحدة — عندما تستخدم اللهجة العامية والفصحى جنباً إلى جنب . وتوجد أشكال مختلفة من الازدواج اللغوى^(١) ، ويحدد الاستخدام اللغوى الوظيفة التى يقوم بها كل مستوى لغوى . وليست هناك سمات فى البنية اللغوية من النواحي الصوتية أو الصرفية أو النحوية أو الدلالية تفرض كون أحد المستويات هو الفصحى والآخر هو العامية . فكلاهما ينطبق عليه تعريف اللغة باعتبارها نظاماً من الرموز الصوتية ، ولكن أبناء الجماعة اللغوية يقفون من الفصحى موقفاً يختلف عن موقفهم من العامية . فالفصحى تحترم اجتماعياً وتحترم قواعدها عند المثقفين كما تدعم النماذج الأدبية والكتب الثقافية والعلمية مكانة الفصحى . ويتودى هذا فى حالات كثيرة إلى جعل استخدامها موحداً — أو يكاد يكون موحداً — عند كل أبنائها ، حتى وإن كانوا منفصلين جغرافياً واجتماعياً عن بعضهم البعض ، فيظل الاختلاف الاقليمى فى استخدام الفصحى داخل العرف النحوى والمعجمى للغة . ولكن العامية تعد فى رأى مستخدميها غير مقبنة من الناحية النحوية ، على الرغم من أن لكل لهجة قوانينها الخاصة بها . ولا يقف أبناء الجماعة اللغوية من العامية موقف الاحترام ولذا لا تستخدم العامية فى الكتابة الرسمية ولا فى المجالات الثقافية والعلمية تاركة ذلك للغة الفصحى .

(١) يطلق الازدواج اللغوى Diglossia على وجود مستويين لغويين فى بيئة لغوية واحدة ، أما الثنائية اللغوية عند الفرد الواحد فتسمى Bilingualism ومن الدراسات اللغوية حول الازدواج اللغوى :

Ch. Ferguson, Diglossia

ونشر عدة مرات منها :

P.p. Giglioli, Language and Social context (Penguin Books 1972), P. 232.

اشكال التنوع اللغوى :

وهناك جماعات لغوية تستخدم أكثر من لغة تختص كل واحدة منها بمجالات محددة . وفي كل هذه الحالات هناك مصطلحات لوصف مستويات الاستخدام اللغوى المختلفة^(١) . اللغة الرسمية Official Language هى اللغة المستخدمة فى المجالات الرسمية فى الدولة ، وتنص الدساتير — غالباً — على تحديد اللغة الرسمية فى كل دولة . قد تكون اللغة الرسمية هى اللغة الوطنية National language كما هى الحال فى كثير من دول العالم ، وقد تكون امتداداً للغة الرسمية فى عهد الاستعمار وهذه حال كثير من الدول الجديدة فى أفريقيا وآسيا ، فاللغة الرسمية فى موريتانيا هى اللغة الفرنسية ، وليست الفرنسية لغة أبناء موريتانيا فهم عرب وبربر ، وماتزال اللغة الانجليزية هى اللغة الرسمية فى عدد من الدول الأفريقية . وهناك دول اعترفت لظروف تاريخية بتعدد اللغات الرسمية ، فالفرنسية والفللمنكية لغتان رسميتان فى بلجيكا ، والانجليزية والافريكانز Afrikaans لغتان رسميتان فى اتحاد جنوب أفريقيا ، والانجليزية والفرنسية لغتان رسميتان فى كندا ، والالمانية والفرنسية والاطالية هى اللغات الرسمية فى سويسرا .

وتوصف اللغة التى تستخدم فى المجالات التعليمية والثقافية والتقنية بأنها لغة التعليم Educational language ، أو لغة الثقافة Cultural language ، أو اللغة التقنية Technical language . وكثيراً ما تكون اللغة الرسمية لغة التعامل فى هذه المجالات ، ولكن عدداً كبيراً من الجماعات اللغوية فى العالم المعاصر تعامل فى المجالات التقنية بلغة تختلف عن اللغة الرسمية التى نص عليها الدستور .

(١) انظر : W A Stewart, An outline of linguistic Typology for :

Describing Multilingualism, p . 15-25. In : Rice, Study of the Role of second languages. Washington D.C. 1962.

فندريس العلوم والهندسة والطب يتم في أكثر جامعات الدول العربية باللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية مع أن دساتير هذه الدول تنص على كون اللغة الرسمية هي اللغة العربية .

وهناك لغات تستخدم في مجالات خاصة دون أن تكون اللغة الوطنية أو اللغة الرسمية أو لغة التعليم . فـ لغة الدين Religious Language أو لغة الشعائر الدينية Liturgical Language هي اللغة العربية في كل أنحاء العالم الإسلامي . واللغة اللاتينية هي لغة الطقوس الدينية عند الكاثوليك . واللغة العبرية هي لغة الدين عند اليهود . ويؤدي قصر استخدام لغة من اللغات على المجال الديني إلى اهتمام رجال الدين - في المقام الأول - بهذه اللغة ليقروا أو يكتبوا الموافقة بها ويؤلفوا بها ما يريدون من كتب دينية .

وإلى جانب هذا فهناك لغات توصف كل منها بأنها لغة جماعة group Language ويقتصر استخدامها على مجموعة حضارية أو إثنية داخل الدولة ، فالمصرية في منطقة من اليمن الجنوبية وعند المهاجرين منهم إلى الكويت هي لغة مجموعة إثنية Ethnic Language . وهذا كذلك شأن النوبة في مصر ، والكردية في العراق ، والبربرية في المغرب . وتعد معرفة لغة المجموعة الحضارية أو الإثنية في أكثر الأحوال معياراً لبيان انتماء الفرد لهذه المجموعة .

ويؤدي ارتباط اللغة بمجموعة بشرية بعينها إلى عدم استخدامها عند غير أبنائها للأغراض العامة ، خصوصاً إذا كانت جماعة أبناء هذه اللغة منفصلة عن باقي أبناء البلاد بمواجز جغرافية أو حضارية أو دينية أو طبقية . وفي أكثر هذه الحالات يتعامل أبناء هذه اللغة مع الآخرين بلغة أخرى تصبح بمثابة لغتهم الثانية (١) .

(١) حول هذه المصطلحات ، انظر : M. poi, Glossary of Linguistic Terminology, New York 1966.

لغات التعامل واللغات الدولية :

وإذا كان التعاون بين البشر ضرورة اجتماعية وحضارية فإن التعامل بين الأفراد المنتمين إلى جماعات لغوية مختلفة يشكل في أكثر الأحوال صعوبة كبيرة . ويطلق على اللغة التي تتعامل بها جماعات تختلف لغاتهم الأم اسم لغة التعامل Lingua franca ^(١) وهناك عدة لغات تعامل في العالم الحديث. ومن أمثلة لغات

= وقارن أيضاً المصطلحات التالية :

Classical Language.	اللغة القديمة
Standard Language	اللغة الراقية (المشتركة)
prestige Language	لغة (أصحاب) المكانة
Litrary Language	لغة التأليف (والادب)
Mother tongue = first language	اللغة الأم (= الأولى)
= Native Language	
Second Language	اللغة الثانية
Vernacular = Colloquial	العامية
Dialect	لهجة محلية
Class language	لغة طبقة (في مجتمع)
Argot	لهجة فئة اجتماعية
pidgin	العامية المهجين (غير مكتنة)
Creole	اللغة المهجين (مكتنة)
Area language	لغة منطقة (في دولة)

(١) يرجع تاريخ المصطلح الاوربي Lingua franca إلى عصر الحروب الصليبية ، عندما كان الصليبيون يتعاملون مع بعضهم البعض بلغة تختلف عن لغاتهم =

التعامل استخدام العربية بين القبائل غير العربية في السودان وإريتريا ، واستخدام الإنجليزية بين أبناء اللغات المختلفة في الهند (١) . وأكثر لغات التعامل لغات طبيعية Natural languages أى لغات تطورت ونمت نمواً طبيعياً ، ولكن بعض الأفراد حاولوا وضع لغات أخرى توخوا فيها البساطة، ويطلق عليها اللغات المصطنعة Artificial languages أو اللغات المساعدة auxiliary languages مثل الاسبرانتو .

ولكن هذه اللغات المصطنعة ليست سهلة لجميع أبناء اللغات بنفس الدرجة . الاسبرانتو مثلاً أكثر عناصرها تشابه مع الإيطالية والإسبانية وباقي هذه العناصر فورية ولنا فاكستاب الأوربيين عموماً للاسبرانتو أسهل من اكتساب غيرهم لها .

إن العالم المعاصر به أكثر من ثلاثة آلاف لغة ، ولكن أكثر هذه اللغات يقتصر استخدامها على أعداد محدودة من البشر . وهناك إحدى عشرة لغة من هذه اللغات يتحدث بها أكثر من خمسين مليوناً ، وهى : الصينية ، والإنجليزية ،

ولهجاتهم المختلفة في جنوب ووسط أوروبا . فقد جاءوا من مناطق تتحدث الآن بالألمانية والإيطالية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية الخ . ولم يكن كل هؤلاء يستطيعون التعامل باللاتينية ، فاستخدمت هذه الجماعات لغة مطورة عن لغة البروفنسال التى كانت آنذاك على طول الساحل الجنوبي لأوروبا من مرسيليا إلى جنوا ، واطلقوا على هذه اللغة اسم Lingua franca ومنها ما الحرفى لغة الفرنجة .

(١) حول تعريف وأنماط لغات التعامل المعاصرة ، انظر :

The Use of Vernacular languages in Education, UNESCO, paris 1953, p. 46. W.I. Samario, Lingua frances, in : F.A. Rice, Study of the Role of Second Languages, Washington D.C, 1962, p. 54 64.

والهندية — الاردية ، والاسبانية ، والروسية ، والعربية ، والبرتغالية ، واليابانية ، والبنغالية ، والالمانية ، والفرنسية . ولكن ليست كل هذه اللغات مما يمكن وصفها بأنها من اللغات الدولية International Language . فاللغة الدولية لاتتحدد مكاتمها بانتشارها وعدد أبنائها لحسب ، بل تتحدد مكاتمها بأهميتها الحضارية وأقبال غير أبنائها على تعلمها والتعامل بها (١) . فاللغة لاتعيش إلا في جماعة لغوية ، ولا ترقى إلا بالانسان .

مستويات الاستخدام اللغوى :

النظام الرمضى الصوتى لا يصبح لغة إلا إذا استخدم للتعامل فى بيئة إنسانية ، ولذا فالبحث اللغوى يتناول البنية اللغوية ويربطها بالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة فى هذه البيئة اللغوية . فطبيعة اللغة ووظيفتها شيان مترابطان ، فلو حاولنا أن نكتب اليوم عن الحياة اللغوية فى العالم العربى الحديث فإننا نجد عدداً من مستويات الاستخدام اللغوى . تستخدم اللغة الفصحى فى التأليف الأدبى والثقافى وفى كثير من برامج الإذاعة وتستخدم فى المحاضرات العامة إلى حد كبير ، ولكنها لا تكاد تستخدم فى الحديث بين المثقفين . أما اللهجات المحلية فيدور بها الحديث اليومى فى أمور الحياة .

وليس من الصحيح أن نقول بوجود مستويين اثنين هما الفصحى والعامة فيبين هذه وتلك عدة مستويات لغوية . ولنتظر فى حديث المثقفين العرب حيث تتخذ

(١) حول قضية اللغات الدولية ، انظر :

محمود فهمى حجازى : اللغة العربية بين اللغات الدولية المعاصرة ، مجلة كلية الآداب والدرية بجامعة الكويت ، العدد الأول (١٩٧٢) ص ٢٧ — ٥٤ ويمكن الحصول على الأعداد الخاصة بأبناء كل لغة من اللغات المعاصرة بالاستعانة بما تنشره الأمم المتحدة سنوياً فى :

(= الكتاب السنوى الديموجرافى) Demographic year book

عناصر كثيرة من الفصحى مكانها إلى جانب عناصر أخرى من اللهجات المحلية .
نجد المصطلحات العلمية فصيحة وصيغ الأفعال عامية والضمائر عامية ، ففي عامية
المتكلمين هذه عناصر من الفصحى وأخرى من العامية .

ولا يجوز أن نعم هذا التقسيم ، فكل مجتمع يعرف علاقاته اللغوية الخاصة
في المجتمعات الأوروبية المثقفة يدور الحديث باللغة الأدبية الفصحى ، ويحاول كل
مثقّف في حديثه أن يجرّد نفسه بقدر الامكان عن التأثير باللون المحلي أو اللهجة
الاقليمية . ويحاول الشباب المثقف في وسط أوروبا استخدام الفصحى بقدر الامكان ،
حتى إن الكثير من مثقفي المدن لم يعد يستخدم اللهجة المحلية على الإطلاق ، واقتصر
استخدام اللهجات على التعامل المحلي بين أبناء القرية الواحدة أو القرى المتجاورة
وهو استخدام متناقص مع الزمن .

فمجالات استخدام اللغة الفصحى في البيئات الأوروبية المثقفة وبيئات المدن
عموماً أكثر من مجالات استخدام العربية الفصحى في العالم العربي . وتبدو هذه
الحقيقة من مقارنة الاستخدام اللغوي في المدارس والمعاهد العلمية هنا وهناك ، كما
تبدو هذه الحقيقة واضحة بمقارنته باستخدام اللغوي بين المثقفين الأوروبيين والمثقفين
العرب .

ويلاحظ في بعض المجتمعات ارتباط لغة بعينها بجماعة بشرية محددة ، ففي واحدة
سيوه الواقعة في صحراء مصر الغربية يتحدث الرجال اللغة العربية بجانب استخدام
اللغة السيوية ، وهي لغة مستقلة تختلف عن العربية . أما النساء فلا يتحدثن إلا
باللغة السيوية ولا يستطعن التعامل بالعربية . وشبيه بهذا ما نجده في المناطق النوبية
في مصر أو البربرية في المغرب العربي والمهرية في شرق اليمن الجنوبية . وارتباط
لغة بعينها بالرجال دون النساء يرجع إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية ، فجتمع النساء
في هذه منفصل تماماً عن التعامل الخارجي ولذا لم تدخله العربية ، لغة التعامل
الخارجي ولغة التعليم والثقافة . ففي هذه المجتمعات يسود ازدواج لغوي والمقصود

بهذا استخدام لغتين في بيئة واحدة . ونجد الازدواج اللغوي في الجزر اللغوية غير العربية في شمال العراق مثلا ، فهناك عدة جزر لغوية آرامية في عدد من القرى الجبلية . وتستخدم العربية في هذه الجزر اللغوية بدرجة اتصال أبناء هذه المناطق بالجماعة اللغوية العربية وبدرجة انتشار التعليم بينهم . وفي مثل هذه الحالات ينبغي على الباحث أن يحدد مجالات استخدام كلتا اللغتين فأحدهما تستخدم في الحياة المنزلية . والآخرى وسيلة التعامل الثقافي ، ومن النادر أن نجد اللغتين تستخدمان في البيئة اللغوية الواحدة في كل المجالات ، بل هناك ضرب من تقسيم مجالات الاستخدام وتصدق هذه الملاحظة على الجزر اللغوية في أوروبا وعلى المناطق التي تتعامل باللغتين في نفس الوقت ، ففي دوله كسمبورج يسود ازدواج لغوي ، تستخدم اللوكسمبورجية وهي لهجة ألمانية في الحياة اليومية ، أما الثقافة والتعليم والتعامل مع الدوائر الرسمية فيتم باللغة الفرنسية ، فلكل لغة منها وظيفة محددة .

مستويات الاستخدام اللغوي والقوانين الصوتية :

لا بد إذن في دراسة الحياة اللغوية من تحديد مستويات الاستخدام اللغوي وليس هناك تقسيم مسبق لهذه المستويات . ولكن تحديد هذه المستويات اللغوية والتعرف على خصائصها ومجالات استخدام كل منها شرط أساسي لبحث العلاقات المتبادلة بين المستويات اللغوية المختلفة . لقد ثبت من أبحاث اللغويين الأوروبيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن القوانين الصوتية مطردة لا تعرف بالشذوذ ، ومعنى هذا أن التغير الصوتي يحدث في كل ألفاظ المستوى اللغوي . فاذا لاحظنا مثلا أن القاف الفصحى قد اختفت من لهجة القاهرة وحلت محلها الهزمة ، فهذا قانون صوتي مطرد لا يعرف الشذوذ أو الاستثناء . ولكن رغم هذا نجد عدة كلمات تستخدم اليوم عند أبناء لهجة القاهرة وتحتفظ بالقاف مثل كلبتي القاهرة والقرآن وهنا يتضح لنا السبب في احتفاظ الكلمتين بالقاف في ضوء التمييز بين مستويين لغويين اثنين ، فكلمة القرآن لم تستخدم إلا على المستوى الثقافي فظلت تنطق بالقاف ، ولذا لم

يطبق عليها قانون تحول القاف إلى الهمزة . وكان مستخدم اللهجة المحلية يستعوض عن كلمة القرآن بكلمة مصحف أو ربعة ، وعندما استعيرت كلمة القرآن من المستوى الثقافي إلى العامية احتفظت بصورتها القديمة ولم تتأثر بالقانون الصوتي الذي كان قد حول كل قاف إلى همزة ، فالكلمة إذن مستعارة من الفصحى أو بالأحرى من المستوى الفصيح في الاستخدام اللغوي . وأما كلمة القاهرة فلم يكن استخدامها جارياً في العامية لأن كلمة مصر حلت محلها في الاستخدام العامي . ولذا ظلت كلمة القاهرة على المستوى الفصيح فأحتفظت بصورتها الصوتية الفصيحة .

وتصدق قضية التمييز بين المستويات اللغوية المختلفة في كل البيئات اللغوية ، ففي الكويت ومناطق الخليج العربي التي تستخدم صوت الياء في مقابل صوت الجيم الفصحى نجد كلمات تنطق بالجيم وليس في هذا ما يتقضى كون القوانين الصوتية مطردة . فالقانون الصوتي الخاص بتحول الجيم الفصيحة إلى ياء في هذه اللهجات خاص بمستوى الالفاظ الأساسية ، وليست له علاقة بالالفاظ الهابطة من الفصحى إلى هذه اللهجات . لقد تحولت الجيم الفصحى إلى ياء في كل الالفاظ الأساسية في اللهجة ، مثال ذلك الكلمات : جاء - ياء ، واجد - ياء (بمعنى كثير) . ولكن الالفاظ الهابطة من الفصحى في مرحلة تاريخية حديثة احتفظت بالجيم الفصيحة . نجد هذا في كلمات مثل : جمعية ، جامعة . ويؤدي وجود الالفاظ من مستويين اثنين في البيئة اللغوية الواحدة إلى وجود أمثلة لا تحصى لانقسام الكلمة الواحدة إلى كلمتين بداليتين مختلفتين ، فكلمة «جامعة» في اللهجة الكويتية تعني التمويذة أو الحجاب ، وكلمة «جامعة» تستخدم بمعناها الفصيحة . ولا شك أن استخدام الكلمة الأولى في تناقص والثانية في ازدياد بسبب التحول الثقافي في المنطقة ، ولكن وجود أحدهما الآن بالياء والآخرى بالجيم يوضح انتماءهما إلى مستويين لغويين اثنين . وهكذا تطرد القوانين الصوتية ، وكل اختلاف عنها يفسر بما يبرأ أخرى منها تحديد مستوى الاستخدام اللغوي ، وهذا يعني أن البنية اللغوية لا يمكن أن تدرس أو تفسر تاريخياً إلا في ضوء استخدامها في المجتمع .

اللغة والكلام

اللغة ظاهرة اجتماعية ، ولكن استخدامها الحقيقي لا يتم إلا بين الفرد والآخرين . وقد اهتم علم اللغة ببيان العلاقة بين اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية واستخدام الأفراد لهذه اللغة . ويفرق الباحثون في القرن العشرين بين اللغة من جانب والكلام من الجانب الآخر (١) والفرق بينهما على النحو التالي : اللغة نظام من الرموز الصوتية المتفق عليه في البيئة اللغوية الواحدة ، وهي حسيّة الاستخدام المتكرر لهذه الرموز الصوتية التي تؤدي المعاني المختلفة . أما الكلام فهو الكيفية الفردية للاستخدام اللغوي . ويختلف استخدام كلتي اللغة والكلام في الكتب اللغوية عن الاستخدام الشائع للكلمتين ، فكثيراً ما نستخدم في كلامنا اليوم كلمة لغة للتعبير عن الكلام ، نقول : لغته جيدة أو لغته رديئة والمقصود بهذا الاستخدام الفردي للغة . ولكن المعنى الاصطلاحي لكلمة لغة يجعلها عبارة عن مجموعة الامكانيات التعبيرية الموجودة في البيئة اللغوية الواحدة ، أما الكلام فهو كيفية اختيار الفرد لعناصر بعضها من هذه الامكانيات التعبيرية الكثيرة . وتتضح هذه القضية في التراكيب والمفردات بصفة خاصة ، فلا يوجد فرد يستخدم كل التراكيب المتاحة في لغته ، وليس هناك فرد يستخدم كل مفردات لغته مهما أوتي من الفصاحة واللسن والتسكن اللغوي ، فكل فرد يستخدم جزءاً من الامكانيات التعبيرية المتاحة في البيئة اللغوية ، ويعبر بهذا الجزء عن حاجاته اليومية أو لاثم عن حرفته — وما أكثر الحرف — ومجالات اهتمامه وفكره وثقافته .

(١) يرجع التمييز بين (Langage بمعنى القدرة اللغوية عند الانسان) و (Langue بمعنى اللغة) و (Parole بمعنى الكلام) إلى اللغوي السويسري سوسير ، انظر :

F. de Saussure, Cours de linguistique generale P. 28-39.

والتمييز بين اللغة والكلام ضرورى فى دراسة قضية التغير اللغوى . والتغير اللغوى شبيه بالتغير فى العادات والتقاليد والأزياء . وهذا معناه أن التغير اللغوى يبدأ عند فرد ما ، أى على مستوى الكلام ، فإذا وجد هذا التجديد قبولاً من المجتمع أصبح بمضى الوقت عرفاً لغوياً سائداً .

يتم علم اللغة بالتغير اللغوى على المستوى الاجتماعى ، ويرجع التغير اللغوى دائماً إلى تجديد فردى يقبله المجتمع ، أما التجديد الذى يرفضه المجتمع فيبقى خارج مجال علم اللغة — لأن علم اللغة يبحث اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية . وليس كل تغير لغوى عند فرد ما أو مجموعة أفراد يقبل اجتماعياً ، فإلى جانب تغيرات بدأت على مستوى الفرد ثم أصبحت على مستوى البيئة اللغوية كلها ، هناك تجديدات فردية ظلت مرتبطة بمجموعة أفراد ولم تقبل اجتماعياً . وقد لوحظ مثلاً أن نطق الراى فى الفرنسية الباريسية بدأ هكذا منذ قرون عند أحد المرموقين فى الدولة ، ثم قلده رجال البلاط وتلام عدد من أبناء الطبقات المترفة ، وأصبح هذا النطق هو العرف اللغوى السائد . وعلى العكس من هذا نجد أن اتجاه نطق أصوات الإطباق لم ينبج فئذ سنوات أخذت بعض الطالبات فى جامعات مصر فى نطق الطاء والقاف والصاد والصاد دون القدر الضرورى من الإطباق . فكادت الطاء تنطق تاء والقاف كافاً والصاد دالاً . ولكن هذا الاتجاه ظل عدة سنوات محدود الانتشار مقصوراً على مجموعة أفراد ولم يقبل اجتماعياً . . لم يؤد إلى تغير فى نطق هذه الأصوات العربية .

٣ — المؤثرات العامة فى الحياة اللغوية

يتأثر انتشار الصيغ اللغوية والتراكيب بعوامل كثيرة ، أهمها فى العالم المعاصر العامل الحضارى . فإذا كانت مكانة أية لغة من اللغات الكبرى المعاصرة تتحدد فى المقام الأول بما تحمله من تراث حضارى وما تقدمه من نتاج حضارى حديث فإن للمعلم والمتقنين ووسائل الاعلام أثراً كبيراً فى البيئة اللغوية . وفى المجال

الصوتى تعد الإذاعة من العوامل الحاسمة ، فالناطق الذى يرتضيه مذيعة الإذاعة يؤثر فى آلاف المستمعين ، ولذا تهتم دول كثيرة فى العالم المعاصر بكيفية نطق المذيعين وتدريبهم تدريباً صوتياً دقيقاً . ويؤثر المحاضرون فى الجامعات فى الحياة اللغوية من ناحية المصطلحات ، فهم يدخلون بصفة مطردة مصطلحات علمية جديدة للتعبير عن المعانى الجديدة أو العلوم الحديثة . فتستخدم هذه المصطلحات عند طلابهم وقرائهم ثم فى دوائر أوسع إلى أن تستقر فى العرف اللغوى . وبذلك تصبح من المشاع اللغوى العام . فان اختلف واضمو الاصطلاحات وتعددت معهم اصطلاحاتهم للشيء الواحد حدث ارتباك فى استخدام المصطلحات وربما تعذر التفاهم . ويؤثر كبار الكتاب والادباء فى الحياة اللغوية من ناحية التراكييب بصفة خاصة ، ولكن أى نطق جديد أو اصطلاح جديد أو تركيب أسلوبى جديد — يظل ظاهرة فردية إلى أن يقبل اجتماعياً ويصبح من العرف اللغوى . وكثير مما يستحدث فى الإذاعة ووسائل الاعلام وفى الجامعات وعند كبار الادباء يقبل اجتماعياً ، ولذا تعد هذه الدوائر الحاكمة لغوياً أهم ما يؤثر فى الحياة اللغوية المعاصرة .

وقد تأثرت اللغات على مدى التاريخ وما زالت تتأثر بعوامل أخرى غير العامل الحضارى المذكور . فالعامل الدينى أبقى اللغة العبرية مقروءة أكثر من عشرين قرناً ، فكان اليهود يتعلمون قنراً من العبرية لأنها لغة العهد القديم ، وهو كتاب اليهود المقدس . والتقاء العرب حول الفصحى وعدم نجاح الدعوى إلى الكتابة بالعامية يرجع إلى عوامل منها الاتقاء حول لغة القرآن الكريم . وقد مهد العامل الدينى لدخول عدد كبير من الألفاظ العربية المتعلقة بالدين والحضارة إلى لغات العالم الاسلامى فى إفريقيا وآسيا وجنوب أوروبا . ففى اللغات السواحلية والتركية والفلبينية وأيضاً فى اللغة الصربوكرواسية نجد المسلمين يستخدمون الألفاظ الخاصة بالعبادات وبالسلك اليومى مستعارة من اللغة العربية . وارتباط الخط العربى بالدين الاسلامى جعل المتحدثين بالحوشية فى هرر — وكلهم من المسلمين يكتبون الحبشية بالخط العربى ، وقد دخلت الحررية ألفاظ عربية كثيرة وكأنهم أرادوا بذلك أن يثبتوا ارتباطهم بالعالم الاسلامى وتميزهم عن الاحباش المسيحيين حولهم .

والعامل السيامي ذو أثر في حياة اللغات ، وقد ظهرت اللغات الرومانية المختلفة من فرنسية وأسبانية وإيطالية ورومانية في فترة كانت الوحدة السياسية لهذه المناطق قد تمزقت نهائياً ، وكان الوعي القومي آخذاً في الظهور . وقد أدى النفوذ الاستعماري في الهند إلى انتشار اللغة الانجليزية حتى أصبحت أكثر اللغات استخداماً في الهند . وقد حدد تقسيم القارة الافريقية إلى مناطق للنفوذ الاستعماري مسار انتشار لغات المستعمرين فيها ، فالدول التي أعلنت الفرنسية لغة رسمية فيها أو التي تتعامل في المجالات الثقافية والسياسية والتجارية بالفرنسية قد احتفظت بذلك باللغة التي دخلت هذه المناطق مع الاستعمار . وهناك دول افريقية كثيرة تتعامل في هذه المجالات بالفرنسية وأخرى تتعامل بالانجليزية . وعندما تقسم الدول الناطقة بالفرنسية والدول الافريقية إلى : الدول الناطقة بالانجليزية ، ففي هذه — رغم الاستقلال — أثر السيطرة الاستعمارية الفرنسية والانجليزية . واليوم يتعلم التلاميذ في أوزبكستان (التركستان سابقاً) اللغة الروسية ، لأن أوزبكستان جمهورية تابعة للاتحاد السوفيتي وهكذا يؤثر العامل السياسي في الحياة اللغوية ، ولكنه تأثير يتفاوت طبقاً لطبيعة العلاقات السائدة في البيئة اللغوية .

أما العامل الاجتماعي فهو من أهم العوامل في حياة اللغات ، فانتقال مجموعة بشرية معينة من مكان لآخر واختلاط المجموعة الوافدة مع السكان الاصليين كفيل بخلق علاقات لغوية جديدة . ومن المعروف أن هجرة القبائل العربية عقب الفتح الاسلامي وفي القرون التالية للشام والعراق ومصر والمغرب كانت من أهم العوامل في انتشار اللغة العربية ، وبذلك لم تعد اللغة العربية لغة شمال الجزيرة العربية فحسب بل أصبحت بمضي الوقت لغة الحديث والعلم والادب في الدولة الاسلامية الكبرى . وفوق هذا فالطبقة العليا في المجتمع الواحد ذي الطبقات المتعددة تؤثر تأثيراً حاسماً في الاستخدام اللغوي لدى الطبقات الاخرى ، ومحاكاة الطبقة العليا أو الفئة الحاكمة أمر معروف في دول العالم المختلفة .

الفصل البشاني

علم اللغة الحديث

علم اللغة في أبسط تعريفاته هو دراسة اللغة على نحو علمي ، وتدرس اللغة في إطار علم اللغة في المجالات الآتية :

أ - علم الاصوات phonetics, Phonology

ب - علم بناء الكلمة (الصرف) Morphology, Morphematics

ج - علم بناء الجملة (النحو) Syntax

د - علم المعاجم Lexicology

علم اللغة وعلم النصوص القديمة

ويختلف علم اللغة^(١) Linguistics بمفهومه الحديث عن علم النصوص ،

(١) يرجع مصطلح Linguistics والمصطلحات الأوروبية المقابلة مثل Linguistique في الفرنسية ، Linguistica في الإيطالية إلى الكلمة اللاتينية Lingua بمعنى « اللسان » أو « اللغة » ، وقد بدأ استخدام الكلمة في اللغات =

وكثيراً ما يحدث خلط بين مجالى العلمين ، فعلم النصوص هو ما يطلق عليه فى اللغات الأوروبية اسم Philology ، وقد تحدد مجال علم الفيلولوجى ^(١) بمعناه الدقيق بتحقيق المخطوطات وإعدادها للنشر العلمى وفك رموز الكتابات القديمة وكل ما يتعلق بتقديم النصوص والنقوش القديمة على نحو يمكن من القيام بأبحاث متخصصة فيها، ولا شك أن تحقيق النصوص وفك الرموز ونشر النقوش أعمال علمية جلية، تقوم عليها دراسات تاريخية أو لغوية أو أدبية إلخ ، ولكن هذا العمل الفيلولوجى يخرج عن ميدان علم اللغة ، ويعتبر علم الفيلولوجى بهذا المعنى أساساً لعلم اللغة ولغيره من العلوم التى تقوم على النصوص .

ارتبط البحث اللغوى فى طور نشأته فى القرن التاسع عشر بالبحث فى النصوص والنقوش القديمة . لقد كانت المدرسة المقارنة فى علم اللغة تهدف إلى التعرف على العلاقات التى تربط كل لغة من لغات الأسرة اللغوية الواحدة بالمراحل الأقدم ، بل حاولوا التعرف على ملامح اللغة الهندية الأوروبية الأم التى يفترض الباحثون أن

الأوروبية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وتحدد معناها بتقديم علم اللغة فى القرن العشرين، وكان يقابلها فى اللغة الألمانية إلى عهد قريب كلمة Sprachwissenschaft ولكن الجيل الجديد من الباحثين الألمان يفضلون التسمية الأوروبية العامة Linguistik انظر : K-D. Bunting, Einführung in die linguistik. (Frankfurt 1971)

S. 13.

Das Fischer Lexikon Sprachen (Frankfurt 1961) s. 7.

(١) يرجع اشتقاق هذه الكلمة إلى كلمتين يونانيتين : Philos وتعنى «حب» و Logos وتعنى «كلمة» أو «دراسة» وقد استخدمت الكلمة فى الإنجليزية ابتداء من القرن الرابع عشر بمعنى دراسة التراث القديم .

اللغات الهندية الأوروبية المختلفة قد انحدرت منها وحاول الباحثون في اللغات السامية أيضاً إيضاح العلاقات التي تربط كل لغة من اللغات السامية باللغة السامية الأم التي افترض العلماء وجودها قبل اللغات السامية المعروفة . وأدى هذا الهدف التاريخي إلى الاهتمام بالنصوص القديمة وإلى النظر في المراحل التاريخية التالية باعتبارها انعكاساً للماضي وامتداداً له . ومن ثم فقد شغل علماء كثيرون بالبحث في النقوش والنصوص القديمة^(١) لقد اكتشفت اللغة الأكادية وبدأت دراستها في القرن التاسع عشر ، وفي نفس الفترة اكتشفت العربية الجنوبية القديمة . وكان التعرف على هاتين اللغتين قائماً على مقارنة الصيغ الواردة في نقوشهما بما هو معروف في اللغات السامية الأخرى ، وخصوصاً العربية والعبرية والآرامية والحيتية . وعندما اكتشفت النقوش العربية الشمالية القديمة وهي المعروفة باسم النقوش النجدية والصفوية والاحميانية في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين كان نشر هذه النقوش وفهم نصوصها يقوم أيضاً على أساس المقارنة مع اللغات السامية الأخرى .

ولكن تنوع جوانب البحث اللغوي في القرن العشرين فرض التخصص على من يريد المشاركة في البحث العلمي . وهنا أصبح نشر النصوص والنقوش القديمة علماً مستقلاً عن علم اللغة ، فعلم اللغة بمفهومه الحديث يختلف عن علم النصوص القديمة Philology ولم يكن التمييز بينهما واضحاً في القرن التاسع عشر لارتباط البحث اللغوي بالنصوص القديمة . كان الباحثون الألمان يميزون منذ القرن

(١) عندما أخذ الباحثون في القرن التاسع عشر يقارنون اللغات الهندية الأوروبية بهدف التوصل إلى أصولها القديمة كان عليهم أن يتوصلوا ببحث لغة النصوص القديمة فأطلق الباحثون الإنجليز والفرنسيون على هذه المقارنات

Comparative Philologie comparée (comparative), Philology.

التاسع عشر بين العمل الفيلولوجى Philologie وعلم اللغة Sprachwissenschaft^(١) وقد اخذ غيرهم من الباحثين يميل إلى تمييز المجالين وعدم خلطهما تحت اسم واحد^(٢) وقد تحدد مجال علم النصوص القديمة (الفيلولوجى) بمعناه الدقيق بتحقيق المخطوطات

(١) قامت المدرسة الفيلولوجية الألمانية في القرن التاسع عشر بفضـل K. Lachmann الذى استطاع أن يطور منها واضحا في التحقيق ، فارتبطت كلمة Philologie في الألمانية بتحقيق النصوص القديمة ونشرها ، انظر :

F. Schnabel. Deutsche Geschichte im neunzehnten Jahrhundert (Herder Bücherei Band 207 . 1965) s. 99-102.

أما دراسة الخصائص اللغوية من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية فقد أطلقوا عليها منذ القرن التاسع عشر Sprachwissenschaft أى علم اللغة .

انظر المرجع السابق ص ١٠٣-١٠٥ ومادى Philologie و Sprachwissenschaft

Der grosse Brockhaus, 1956

(٢) ذكرت دائرة المعارف البريطانية (ط . ١٩٧٠) مادة Linguistics أن هذا المصطلح واضح الدلالة ، على عكس مصطلح philology الذى يمكن أن يدل إلى جانب دراسة اللغة على بحث التراث Literature ونقد النصوص textual criticism والفن Art والآثار Archaeology والدين Religion . انظر حول الاستخدام الأمريكى للكلمة :

J.B. Carroll, The study of Language (Harvard Un Press 1960) P. 3, 65-69.

وفيه يعمل كارول علم الفيلولوجى في مركز وسط بين علم اللغة من جانب والدراسات الأدبية والانسانية من الجانب الآخر . كما أنه يعتبر دراسة التاريخ الحضارى للغة واعداد المعاجم بالإضافة إلى تحقيق النصوص ودراسة الفولكلور والميثولوجيا من مجالات علم الفيلولوجى ، ويحاول بعد هذا تقسيم العمل الفيلولوجى إلى مجالين هما . Linguistic philology ويعنى باعداد المعاجم و Liteary philology وموضوعه تحقيق النصوص وتفسيرها ونقد المؤلفات الأدبية اعتمادا على دراسة لغتها .

وأعدادها للنشر العلمى وفك رموز الكتابات القديمة وأعدادها للنشر العلمى أيضاً . فكل ما يتعلق بتقديم النصوص والنقوش القديمة على نحو يمكن من القيام بأبحاث متخصصة فيها يعد من علم الفيلولوجى ، ولا شك أن تحقيق النصوص والنقوش ونشرها أعمال علمية جلية ، وهى الأساس الذى تقوم عليه دراسة هذه النصوص والنقوش من الجوانب التاريخية أو اللغوية أو الاجتماعية المختلفة . ويعتبر العمل الفيلولوجى بذلك أساساً لعلم اللغة وغيره من العلوم التى تعنى بتفسير النصوص وتحليل مادتها . فتحقيق ديوان من الدواوين المخطوطة يعتبر عملاً فيلولوجياً يفيد البحث فى اللغة كما يفيد البحث فى الأدب ولكنه لا يدخل فى مجال علم اللغة . فالدراسة اللغوية للديوان تعنى دراسة النص من جوانبه الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية أى من الجوانب التى تعارف العلماء على جعلها مجال البحث فى علم اللغة .

٢ - علم اللغة المقارن Comparative Linguistics

موضوع علم اللغة المقارن دراسة الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية فى اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة أو فرع من أفرع الأسرة اللغوية الواحدة^(١) . ولذا يقوم المنهج المقارن فى علم اللغة على أساس تصنيف اللغات إلى أسر وتقسيم اللغويين منذ القرن التاسع عشر اللغات المختلفة إلى مجموعات أو أسر . فهناك أسرة اللغات الهندية الأوروبية التى تضم أكثر لغات المنطقة الممتدة من الهند إلى أوروبا ، وتضم بذلك عدداً كبيراً من اللغات التى عرفتها وتعرفها الهند وإيران والقارة الأوروبية^(٢) . وعرف العلماء الأوروبيون فى القرن التاسع عشر أيضاً أن العربية

(١) حول تاريخ المنهج المقارن ، انظر: R.H. Robins, A short history of linguistics (London 1967) pp. 164-197.
B.E. Vidos, Handbuch der romanischen Sprachwissenschaft (München 1968) s. 37-56.

(٢) حول قصة اكتشاف السنسكريتية ونشوء البحث المقارن فى اللغات الهندية

الأوروبية :

S. Potter, Language in the modern World (Pelican Books A 470, 1968) pp. 11-20, 90-110, 144-162.

تنتمي إلى أسرة اللغات السامية التي تضم أيضا اللغات العبرية والآرامية والأكادية والحبشية^(١). وقد تمكن العلماء من تقسيم اللغات المختلفة إلى أسر أو فصائل بمقارنة هذه اللغات واكتشاف أوجه التشابه بينها من الجوانب الصوتية والنحوية والمعجمية. ووجود جوانب شبه أساسية بين عدد من اللغات معناه أنها انحدرت من أصل واحد مشترك أي من اللغة الأولى التي خرجت عنها هذه اللغات على مر التاريخ. وجد العلماء ظواهر مشتركة في اللغات المنتشرة على مدى القرون بين إيران والهند وأوروبا، فعدوا هذه اللغات أسرة لغوية واحدة خرجت لغاتها عن لغة قديمة مفترضة، أطلق عليها اسم اللغة الهندية الأوروبية الأولى Proto-Indoeuropean. ووجد العلماء اللغات العربية والعبرية والفينيقية والأكادية والحبشية تحمل بعض الخصائص الأساسية المشتركة فاستنتج العلماء أنها لغات تشكل أسرة لغوية واحدة وأنها انحدرت من أصل واحد أطلقوا عليه اللغة السامية الأولى Proto-semitic أو Ursemitisch^(٢)، ومقارنة اللغات المختلفة المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة موضوع البحث في علم اللغة المقارن. فعلم اللغات السامية المقارن يقارن اللغات

(١) حول تاريخ الدراسات السامية وبحث العلاقات التاريخية بين اللغات السامية. انظر الفصل الذي كتبه يوهان فوك:

J. Fück, Geschichte der semitischen Sprachwissenschaft s. 31-39.
ضمن كتاب:

Handbuch der Orientalistik, Band III Abschnitt II (ed. B. Spuler, Leiden 1954).

(٢) يرجع الاصطلاح الألماني Ursemitisch الذي دخل اللغات الأوروبية الأخرى Ursemitic إلى عنصرين: الأول Ur وتعني أول أو قديم أصلي، والثاني نسبة إلى Sem أي سام (بن نوح ٩).

الأكادية والآرامية والعبرية والفينيقية والعربية الجنوبية والعربية الشمالية والحيتية ، لأن هذه اللغات تكون أسرة لغوية واحدة . وعلم اللغات الهندية الأوروبية المقارن يبحث اللغات المختلفة التي تدخل في إطار هذه الأسرة اللغوية . وتضم أسرة اللغات الهندية الأوروبية عددا من الفروع اللغوية أهمها الفرع الجرمانى والفرع الرومانى والفرع السلافي والفرع الأيراني والفرع الهندى . وقد أدت كثرة لغات هذه الأسرة إلى اهتمام بعض العلماء بالمقارنات اللغوية في إطار فرع واحد من أفرعها الكثيرة . فعلم اللغات الجرمانية المقارن يبحث اللغات الألمانية والانجليزية والنوردية القديمة والدانمركية وغير ذلك من اللغات واللهجات التي تدخل في هذا الفرع . وعلم اللغات الرومانية المقارن يبحث : اللغة اللاتينية واللغات واللهجات التي خرجت عنها ويطلق عليها اللغات واللهجات الرومانية وتضم اللغات الرومانية الحديثة : الفرنسية والإسبانية والإيطالية ولغة جمهورية رومانيا ، إلى جانب عدد كبير من اللهجات . ومقارنة هذه اللغات باللغة اللاتينية وباللاتينية الشعبية هو مجال البحث في علم اللغات الرومانية المقارن . أما علم اللغات السلافية المقارن فيبحث اللغات : الروسية والبولندية والأكراية والتشيكية والسلوفاكية والصربوكرواتية والبلغارية ، فيبين العلاقات التاريخية بين اللغات التي تكون فرعاً لغوياً واحداً أو أسرة لغوية واحدة هو مجال البحث في علم اللغة المقارن (١) .

(١) لا يزال بعض اللغويين العرب من الجبل القديم يطأقون على : علم اللغة المقارن « فقه اللغة » ، انظر مثلاً : السيد يعقوب بكر دراسات في فقه اللغة العربية (بيروت ٦٤ ، ٧٠) . ويضم هذا الكتاب دراسات في العربية في ضوء علم اللغات السامية المقارن . وقد ألزم المؤلف أيضاً بتسمية هذا التخصص Philology وهي تسمية غامضة رغب عنها اللغويون المحدثون — حتى في إنجلترا أخيراً — إلى التسمية الواضحة linguistics . ولعل أقدم ملاحظة باللغة العربية حول عدم وضوح كلمة Philology ما كتبه على عبد الواحد وائى : « مدلول philologie قد اختلف كثيراً باختلاف العصور واختلاف الأمم وما يزال العلماء يختلفون في فهمها =

٣ - علم اللغة الوصفي Descriptive Linguistics

يتناول علم اللغة الوصفي بالدراسة العلمية لغة واحدة أو لهجة واحدة في زمن بعينه ومكان بعينه . ومعنى هذا أن علم اللغة الوصفي يبحث المستوى اللغوي الواحد من جوانبه الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية . لقد ظل العلماء يبحثون اللغات في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين بالمنهج المقارن ، ولم يكن هناك تصور واضح لإمكان بحث اللغة الواحدة على نحو علمي دقيق ، ولكن الباحث السويسري دي سوسير de Saussure أثبت بدراسته في نظرية اللغة ووظيفتها إمكان بحث اللغة الواحدة وصفيًا أو تاريخيًا^(١) . وبذلك بدأ الباحثون في تطوير مناهج البحث لتحليل البنية

== وإطلاقها (علم اللغة ص ١٢) . وما يقال عن هذه الكلمة يقال أيضا عن كلمة « فقه اللغة » من ناحية عدم وضوح المعنى فقد ارتبطت بدلالة قديمة محدودة ودلت على دراسة الالفاظ ولذا يميل أكثر اللغويين العرب المحدثين إلى عدم استخدامها الدالة على « علم اللغة الحديث » .

(١) كان اللغوي السويسري دي سوسير أول من أبرز إمكان بحث اللغة واللهجة بالمنهج الوصفي ، وكان الباحثون في القرن التاسع عشر لا يعرفون من مناهج البحث اللغوي إلا المنهج المقارن ، وقد أطلق دي سوسير على علم اللغة الوصفي linguistique synchrone وترجع كلمة synchrone الفرنسية إلى syn- (في اليونانية تعني : معا) -chronos- (في اليونانية تعني زمن) ، وتستخدم هذه الكلمة المركبة في اللغات الأوروبية بمعنى متزامن أي في نفس الوقت . وحول آراء دي سوسير في علم اللغة الوصفي ، انظر :

F. de Saussure, Cours de linguistique Générale (Paris 1916).

وقد ترجم الكتاب إلى الانجليزية بعنوان :

Course in General linguistics (New York 1959).

وحول آراء دي سوسير ، انظر :

محمود فهمي حجازي : أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات اللغوية ص ١٥٦ - ١٦١ في عالم الفكر المجلد الثالث / ١ (الكويت ١٩٧٢) .

اللغوية، وزاد اهتمام الباحثين بالمنهج الوصفي في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية . وأصبح المنهج الوصفي المنهج السائد في السنوات العشر الماضية عند أكثر المشتغلين بعلم اللغة الحديث في كل أنحاء العالم .

يهتم علم اللغة الوصفي بدراسة بنية أية لغة أو أية لهجة ، فكل لغة وكل لهجة تتكون من أصوات لغوية ، تنظم في كلمات ، تتألف منها الجمل ، لتعبر عن المعاني المختلفة . والفرق بين اللغة واللهجة فرق حضارى لا ينبع من البنية اللغوية ، ولكنه يقوم على أساس مجالات الاستخدام ، فالاستخدام في المجالين الثقافى والعلمى يجعل من المستوى اللغوى المستخدم لغة ، وأما التعامل المحلى فيمكن أن يكون بهذه اللغة عند المثقفين في بعض المجتمعات الراقية ولكنه يكون في أكثر الجماعات اللغوية في العالم باللهجة المحلية (١) . ويمكن تطبيق المنهج الوصفي في تحليل البنية اللغوية لأية لغة أو لهجة .

فدراسة أبنية الافعال في لهجة الكويت أو النظام الصوتى في لهجة عمان أو جملة الاستفهام في النثر العربى الحديث أو صيغ جموع التكسير في الشعر الجاهلى أو جملة الاستثناء في النثر العربى في القرن الرابع الهجرى موضوعات تدخل في إطار علم اللغة الوصفى ، وأية دراسة صوتية أو صرفية أو نحوية أو دلالية لاحدى اللهجات القديمة أو الوسيطة أو الحديثة تعد دراسة وصفية . وهناك مجالات كثيرة لبحث النقوش والنصوص العربية القديمة بالمنهج الوصفى . فدراسة الأبنية الصرفية التى وردت مستخدمة فى مجموعة من النقوش أو فى مجموعة من النصوص المنتمية إلى مستوى لغوى واحد تعد دراسة صرفية بالمنهج الوصفى . فدراسة أى جانب من جوانب بناء الجملة فى مستوى لغوى واحد تعد دراسة نحوية بالمنهج الوصفى .

(١) أكثر الدراسات الوصفية حول العربية ولهجاتها أعدت فى الولايات المتحدة الأمريكية وقدمت لنيل درجة الدكتوراه فى علم اللغة . وأكثر هذه الرسائل تتناول اللهجات العربية الحديثة .

وفضلا عن هذا فهناك مجال كبير لاعداد المعاجم الصغيرة التي تسجل الالفاظ الواردة أو المستخدمة في أحد مستويات الاستخدام اللغوى مثل إعداد معاجم يسجل كل منها الالفاظ الواردة في ديوان بعينه أو في لهجة واحدة . وكل هذه الجهود تتم بالمنهج الوصفى .

٤ - علم اللغة التاريخى Historical linguistics

يبحث علم اللغة التاريخى تطور اللغة الواحدة عبر القرون . فتاريخ اللغة من جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية يدخل في مجال علم اللغة التاريخى (١) ومعنى هذا أن دراسة تطور النظام الصوتى للعربية الفصحى هى دراسة صوتية تاريخية . وتطور الأبنية الصرفية ووسائل تكوين المفردات فى العربية على مدى القرون مما يدخل فى الدراسة الصرفية التاريخية وتطور الجملة الشرطية أو جملة الاستفهام فى العربية الفصحى مما يدخل فى الدراسات النحوية التاريخية والمعاجم التاريخية التى يسجل كل منها تاريخ حياة كل كلمة من كلمات اللغة من أقدم نص جاءت به متبعاً تطور دلالتها على مر التاريخ — تعد أيضاً من علم اللغة التاريخى

(١) أطلق دى سوسير مصطلح Linguistique diachronique على البحث التاريخى وترجع كلمة diachronique إلى كلمة Dia- (وتعنى فى اليونانية « عبر ») وكلمة -chronos (وتعنى فى اليونانية : زمن) .
ومن أهم كتب المنهج المقارن :

Hermann Paul. Prinzipien der Sprachgeschichte (1886. Tübingen 1960).

وترجم الكتاب إلى اللغة الانجليزية .
وحول الدراسات الخاصة بتاريخ اللغة العربية ، انظر : Arabiyya فى دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانجليزية الثانية) .

فالتاريخ الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي لأية لغة من اللغات يدخل في مجالات البحث اللغوي التاريخي، والنحو التاريخي والمعاجم التاريخية من الأركان الأساسية في علم اللغة التاريخي .

ولا يتناول تاريخ اللغات تطورها البنيوي والمعجمي فحسب ، بل يبحث أيضا تطورها وحياتها في المجتمع ، فقضية انتشار لغة من اللغات والظروف التي مهدت لذلك وأثر ذلك في بنية اللغة تعد من موضوعات علم اللغة التاريخي ، وارتباط اللغة بوظيفتها أو بوظائفها المختلفة في الجماعة اللغوية يؤثر بالضرورة في حياة اللغة. فهناك فرق كبير بين أن تكون اللغة لغة جباة محدودة ، أو أن تكون اللغة الرسمية في دولة عظمى ، أو أن تكون لغة حضارة دولية . ودراسة مستويات الاستخدام اللغوي المختلفة في حياة كل لغة وأثر ذلك في بنيتها وأهميتها الحضارية ومكانتها بين اللغات مما يدخل في إطار علم اللغة التاريخي .

٥ - علم اللغة التقابلي Contrastive Linguistics

يقوم تعليم اللغات في رأى الباحثين المعاصرين على عدة أسس من أهمها ما يطلق عليه علم اللغة التقابلي^(١) . وموضوع البحث في علم اللغة التقابلي - أحدث

(١) اهتمت الجامعات الأمريكية أول الامر ثم الجامعات الأوروبية بعد ذلك بالدراسات التقابلية بهدف تيسير تعليم اللغات لغير أبنائها . وتتم مراكز بحوث تعليم اللغات وجمعيات اللغويين في عدة بلاد في العالم (أهمها : اليابان ، ألمانيا) بالدراسات التقابلية وتشغل هذه الدراسات حيزا كبيرا في المؤتمرات الدولية لعلم اللغة التطبيقية International Conference of Applied Linguistics انظر مثلا أعمال المؤتمر الثالث ١٩٧٢ .

والكتاب الوحيد المنشور في مقارنة لهجة عربية مع الفصحى هو بحث
صالح الطعمة :

=

مناهج علم اللغة — هو المقابلة بين لغتين اثنتين أو لهجتين اثنتين أو لغة ولهجة أى بين مستويين لغويين متعاصرين . ويهدف علم اللغة التقابلي إلى اثبات الفروق بين المستويين ، ولذا فهو يعتمد أساساً على علم اللغة الوصفي . فإذا كان المستويان اللغويان قد وصفا وصفاً دقيقاً بمنهج لغوي واحد أمكن بحثهما بعد ذلك بالمنهج التقابلي . واثبات الفروق بين المستويين يوضح جوانب الصعوبة في تعليم اللغات ، فإذا كان أحد أبناء اللغة الانجليزية يود تعلم العربية فالصعوبات التي تواجهه ترجع في المقام الأول إلى اختلاف لغته الأم وهي الانجليزية عن اللغة التي يريد تعلمها وهي العربية . هناك فروق فردية تجعل بعض الافراد قادرين على تعلم اللغات الأجنبية أسرع من غيرهم ، ولكن علم اللغة التقابلي لا يهتم بهذه الفروق الفردية بل يهتم بالفروق الموضوعية . ولذا فهو يقابل مستويين لغويين اثنتين بهدف بحث أوجه الاختلاف بينهما والتعرف على الصعوبات الناجمة عن ذلك . فالصعوبات التي تواجه أبناء اللغة اليابانية في تعلمهم للعربية ليست هي الصعوبات التي تواجه أبناء اللغة الاسبانية أثناء تعلمهم للعربية . وبالمثل فتعلم اللغات الأجنبية للعرب تختلف صعوباته باختلاف اللغة المنشودة . وتحديد الصعوبات الموضوعية يتم عن طريق المقابلة بين اللغتين اللغة الأم واللغة المنشودة ، وهذا مجال علم اللغة التقابلي، أما تحويل هذا إلى برامج تطبيقية مع التوصل بكل الوسائل التعليمية الحديثة فهو موضوع علم اللغة التطبيقي .

٦ - علم اللغة والبحث النحوي :

وهناك مصطلح آخر يستخدم كثيراً مرادفاً لمصطلح Linguistics مصطلح Grammatik ، أو Grammaire ، أو Grammar . فكثير من الباحثين الاوربيين

= Salih J. Alkoma, The Problem of Diaglossia in Arabic, Harvard University Press 1969.

ويقارن اللهجة العراقية باللغة الفصحى .

في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ألفوا كتباً في النحو المقارن . وتضم هذه الكتب فصولاً في الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة . وبذلك كان المقصود من علم النحو المقارن نفس المقصود من علم اللغة المقارن ، فـكأن الكلتين قد استخدمتا مترادفين يؤيدان نفس المعنى (١) . وإذا نظرنا في المؤلفات اللغوية الأوروبية الحديثة نلاحظ حديثهم تارة عن النحو المقارن Comparative Linguistics ، وتارة أخرى عن علم اللغة المقارن Comparative Linguistics ، كما نجدهم يكتبون عن النحو الوصفي Descriptive Grammar ، أو عن علم اللغة الوصفي Descriptive Linguistics ، ثم نجدهم يؤلفون في النحو التاريخي Historical Grammar ، أو علم اللغة التاريخي Historical Linguistics ، وعلى الرغم من اختلاف مسميات هذه الكتب فإنها تدلنا على أن كلتي Grammar (أى نحو) و Linguistics (أى علم اللغة) تستخدمان نفس الاستخدام في إطار البحث العلمي (٢) .

(١) من أشهر المؤلفين كارل بروكلمان C. Brockelmann وعنوان كتابه في النحو المقارن لغات السامية :

Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen (Berlin 1908 - 1913).

تناول بروكلمان هذه القضايا في كتاب صغير له صدر بعد ذلك بعنوان : Semitische Sprachwissenschaft أى : علم اللغات السامية المقارن ،

(٢) أما النحو بالمعنى التعليمي المعياري أى بهدف وضع ضوابط الاستخدام اللغوي الصحيح لأبنية المفردات وأبنية الجمل فهو مختلف — فيما يبدو — عن علم اللغة فعلم اللغة يبحث اللغة أو اللغات بهدف كشف جوانبها المختلفة ، لا بهدف الحكم بالخطأ والصواب على الاستخدام اللغوي ، ولم يكن ثمة لقاء بين علم اللغة باعتباره علماً أساسياً =

٧ - علم اللغة العام General Linguistics

موضوع علم اللغة العام نظرية اللغة ومناهج البحث فيها^(١). والاساس النظرى لعلم اللغة العام أن اللغة ظاهرة انسانية عامة تؤدى نفس الوظائف فى المجتمعات الانسانية على اختلافها . وتتألف بنيتها دائماً من أصوات تنتظم فى كلمات تكون الجمل لتؤدى الدلالات المختلفة . ومن هذا المنطق يهدف علم اللغة العام إلى وضع نظرية شاملة فى بنية اللغة وكيفية تحليل هذه البنية إلى عناصرها التى تجعل منها وسيلة للتعامل فى الجماعة اللغوية . وهذه النظرية ليست مجرد فكر نظرى فلسفى ولكنها ثمرة الدراسات المنهجية والتطبيقية فى اللغات المختلفة ، فهى نتاج التحليل العلمى لآلية لغوية مختلفة ونتاج معرفة السمات الأساسية التى توجد فى كل لغة من اللغات الانسانية والى لا بد من وجودها لسكى تؤدى اللغة وظيفتها .

ويقوم علم اللغة العام أيضاً برسم الاسس المنهجية للتحليل اللغوى من جوانبه الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية^(٢) . فإذا كانت أصوات اللغات تبدو

= والنحو باعتباره علماً تطبيقياً . واليوم يقوم علم اللغة التطبيقى Applied linguistics وهو أحدث مناهج علم اللغة بالدراسة العلمية لسكيفية تعليم اللغات الاجنبية والقومية مستخدماً فى هذا نتائج علم اللغة وعدداً آخر من العلوم . وبهذا تم لقاء جديد بين علم اللغة وتعليم اللغات .

(١) من أهم كتب علم اللغة العام كتاب دى سوسير (انظر ملاحظه رقم ١ ص ٣٢) والكتب الأساسية التالية :

E. Sapir, Language (New York 1951).

L. Bloomfield, Language (New York 1933).

H.A. Gleason, An Introduction to Descriptive Linguistics (New York 1955).

=

(٢) من أهم الكتب المنهجية :

قضايا البحث في علم اللغة Linguistics

المناهج	Phonology	Morphology	Syntax	Lexico logy
القطاعات	الاصوات	بناء الكلمة	بناء الجملة	علم المعجمات
علم اللغة الوصفى (لمستوى لغوى بعينه)	الوصف الصوتى الدراسات الوصفية الصوتية	الوصف الصرفى الدراسات الوصفية الصرفية = المورفولوجيا	الوصف النحوى الدراسة النحوية الوصفية الدراسة التركيبية الوصفية	الدراسة المعجمية للمستوى اللغوى واحد
Descriptive Linguistics				
المنهج التاريخى Historical Linguistics	التطور الصوتى الدراسة التاريخية الصوتية	التطور الصرفى الدراسة التاريخية الصرفية التطور فى بناء الكلمة . التطور المورفولوجى	التاريخ النحوى الدراسة النحوية التاريخية التطور النحوى	الدراسة المعجمية التاريخية
المنهج المقارن (لغات من أسرة لغوية واحدة) . Comparative Linguistics	المقارنات الصوتية الدراسة الصوتية المقارنة .	المقارنات الصرفية الدراسة الصرفية المقارنة . النحو المقارن	المقارنات النحوية النحو المقارن الدراسة النحوية المقارنة .	الدراسة المعجمية التأصيلية
المنهج التباينى (لغتين اثنتين) Contrastive Linguistics	الدراسة الصوتية التباينية	الدراسة الصرفية التباينية	الدراسة النحوية التباينية	الدراسة المعجمية التباينية

لأول وهلة مختلفة متنافرة فإن كل أصوات اللغات تصدر من الجهاز الصوتي الانساني ، وهو مشترك عند كل البشر ، ولذا فهناك أصوات كثيرة تتكرر في أكثر اللغات ، وهناك وسائل محددة تتوصل بها اللغات المختلفة للتمييز بين أصواتها ، فالتعرف على هذه الجوانب والاستفادة من خبرات الباحثين في اللغات المختلفة لوضع نظرية شاملة في بنية اللغة مما يدخل في علم اللغة العام . وهناك وسائل محددة تتبعها اللغات المختلفة للتمييز بين الكلمات وتصنيفها في مجموعات ، وهناك إمكانيات أخرى توضح كيفية تركيب الكلمات في جمل لأداء المعاني المختلفة ، فكل اللغات مثلا بها جمل شرطية وجمل استفهامية الخ والتعرف على هذه الوسائل وعلى منهج تحليل اللغة من هذه الجوانب جزء من علم اللغة العام . وهناك معاجم كثيرة ألقت للغات مختلفة ، بلورت أثناء إعدادها مناهج دقيقة في العمل المعجمي ، وهذه الأسس المنهجية الناجمة عن العمل التطبيقي جزء من علم اللغة العام .

وفضلا عن هذا يهتم علم اللغة العام ببيان طبيعة العلاقات المؤثرة في حياة اللغة في المجتمعات الانسانية^(١) . فاللغة لا تعيش في فراغ ، بل لابد لها من جماعة

N.S. Trubetzkoy, Grundzüge der Phonologie. Prag 1933. Götti-
ngen 1967.

وترجمة J. Cantineau إلى اللغة الفرنسية (باريس ١٩٤٩ ، ١٩٦٧) بعنوان

Principes de Phonologie- Paris 1949, 1967

E-A. Nida, Morphology. The descriptive Analysis of Words; Ann
Arbor. Mich. 1946' 1967.

N. Chomsky, Syntactic Structures, The Hague 1957.

S. Ullmann, Principles of Semantic, Oxford 1957.

(١) انظر مثلا الدراسات المنشورة في :

J.A. Fishman, Ch. A. Ferguson, J. D. Gupta, Language
Problems of Eeveloping Nations. New York 1964. =

تستخدمها حتى تصبح لغة ، وهنا يهدف علم اللغة العام إلى إيضاح الجوانب الحضارية المختلفة التي تؤثر في حياة اللغة ، ويحاول إيضاح عوامل انتشار اللغات وموتها وعوامل التجديد اللغوي ومشاكل الازدواج اللغوي وغير ذلك من المشكلات التي تتكرر في مجموعات انسانية مختلفة . إن كل بحث دقيق يعد حول بنية أية لغة أو وظائفها في المجتمع هو بحث يفيد علم اللغة العام ، ولذا تتطور النظرية العامة للغة ولمناهج بحثها بتطور الأبحاث الجزئية في اللغات واللهجات المختلفة .

إن علم اللغة الحديث يحاول بتطوير مناهجه وبالإصرار على الدقة العلمية أن يصل إلى نتائج دقيقة . ولذلك استبعدت من البحث في اللغة تلك الموضوعات التي لا يمكن بحثها بمنهج دقيقة ، وأشهر هذه الموضوعات نشأة اللغة ، ومرجع الاهتمام القديم بهذا الموضوع إلى الدين ، فقد تكونت عند الجماعات الدينية المختلفة آراء راسخة نسبياً حول نشأة اللغة الإنسانية ، فاليهود يصرون على كونها هي العبرية ومسيحيو الشرق يجعلونها السريانية ، وحنان المؤلفون العرب بين جعلها العربية أم السريانية^(١) . وإذا كان المفكر العربي ابن حزم قد وجد أنه من العبث التفكير في اللغة الأولى عند الإنسان ونسبتها إلى الدين دون دليل^(٢) ، فإن علم اللغة الحديث لا يقتناول البحث في قضية نشأة اللغة الإنسانية لعدم وجود منهج علمي لبحث ذلك . لقد حاول بعض الباحثين في القرن الماضي إعادة تكوين عدد من اللغات الموهلة في القدم مثل اللغة الهندية - الأوربية الأولى واللغة السامية

J D. Gupta, Language Conflict and National Development, = University of California Press 1970.

ابراهيم أنيس : اللغة بين القومية والعالمية ، القاهرة ١٩٧٠ .

(١) السيوطي : المزهري في علوم اللغة ١ / ٣٠ - ٣٥ .

(٢) ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ١ / ٣٠ .

الاولى . واللغة الهندية — الاوربية الاولى هي الاصل المفترض الذى خرجت عنه كل لغات الاسرة الهندية — الاوربية المختلفة . ولكن محاولات إعادة تكوين اللغة الهندية — الاوربية الاولى واللغة السامية الاولى لم تنجح إلا فى التعرف على بعض الخصائص المغرقة فى القدم ، ولكن من الصعب القول بأن هذه الابحاث استطاعت أن ترسم الملامح الكاملة للغات بادت منذ عصور سحيقة . ولهذا عزف الباحثون المحدثون عن البحث فى المراحل التى لم تصل إلينا فى النقوش والنصوص ، وأصبح البحث فى اللغة لا يهتم إلا بالمراحل التاريخية والمعاصرة . فعلم اللغة يبدأ حين نجد نقشا قديما أو نصا مدونا ، وليس من الممكن أن يمتضى الباحث فى تاريخه للأسرة اللغوية إلى المراحل السابقة على تدوين أقدم النقوش المكتوبة ، فنشأة اللغة تخرج تماما عن مجال البحث فى علم اللغة . وعلم اللغة يشبه فى هذا علم التاريخ فى أن كليهما يبدأ من أقدم الكتابات والرسوم تاركا لعلم ما قبل التاريخ بحث المراحل السابقة على ذلك .

٨ - التسميات المختلفة لعلم اللغة

من المفيد فى هذا الصدد ايضاح التسميات المختلفة لمجالات علم اللغة ومناهجه ، فى محاولة لإزالة الغموض القائم عند البعض نتيجة لكثرة التسميات وغموضها وتداخلها .

يطلق البعض على علم علم اللغة عدة تسميات :

١ - **فقه اللغة** : (بمعنى : علم اللغة المقارن ، أو بمعنى : دراسة الالفاظ العربية ، أو بمعنى : الدراسة المقارنة للالفاظ العربية فى ضوء اللغات السامية ، أو بمعنى : بحث الاصوات فى الفصحى ، أو بمعنى : بحث اللهجات القديمة والحديثة) .

(٢) **علم اللغة** : (بمعنى : علم اللغة العام ، أو بمعنى : دراسة الاصوات فى الفصحى ، أو بمعنى : دراسة اللهجات ، أو بمعنى : دراسة الدلالة) .

(٣) علم اللسان : بنفس المعاني المتعددة المذكورة .

(٤) واللسانيات (في جامعة الجزائر)

(٥) واللسنية (في الجامعة التونسية)

(٦) واللسنيات ، للدلالة على نفس المجالات .

(٧) النحو المقارن (بمعنى : دراسة بناء الكلمة (٩) في اللغات السامية .)

(٨) اللغويات (محاكاة للكلمة الإنجليزية linguistics) ، وتناول في أكثر الأحوال ما يدرس في أقسام اللغة الإنجليزية من تدريبات نحوية ، مع مدخل عن نظرية اللغة والبحث الصوتي وتاريخ اللغة . وتستخدم الكلمة أيضاً في الأهر بعد محاولة تطويره .

وتتداخل هذه المصطلحات مع بعضها البعض تتداخلاً لا يفيد العلم ، كما تتداخل مع اصطلاحات النحو والصرف . وقد أدى هذا إلى تمزق مجالات البحث العلمي في اللغة وإهمال كثير من قضاياها وإلى عدم وضوح في تصور الكثيرين اتجاه جوانبه المتكاملة . ولذا نرى ضرورة ترك الدلالات الموروثة من الماضي للحديث في تاريخ العلم ، واستخدام تسمية موحدة واضحة (علم اللغة) ، تخصص بعد ذلك بصفة (المقارن / التاريخي / الوصفي / التقابلي / التطبيقي) ، ويضم كل منها قطاعات الأصوات / الكلمة / الجملة / الدلالة) .

٩ علم اللغة وعلم النفس

ترجع العلاقة بين علمي اللغة والنفس إلى طبيعة اللغة باعتبارها أحد مظاهر السلوك الإنساني . فإذا كان علم النفس يعني بدراسة السلوك الإنساني عموماً فإن دراسة السلوك اللغوي تعد أحد جوانب الالتقاء بين علم اللغة وعلم النفس لقد اهتمت المدرسة السلوكية Behaviorism بالسلوك اللغوي^(١) ،

(١) حول السلوكية والسلوك اللغوي ، انظر :

وكان لها أثر كبير في البحث اللغوي الأمريكي في النصف الأول من القرن العشرين ، ولكن ثمة فرقا بين بحث اللغويين وبحث علماء النفس في قضايا اللغة .

يهتم علم اللغة بالعبارات المنطوقة عند صدورها من الجهاز الصوتي للمتحدث وأثناء مرورها في الهواء وعند تلقي الجهاز السمعي للمخاطب لها . ومعنى هذا أن العمليات العقلية السابقة على صدور العبارات المنطوقة لا تدخل في إطار علم اللغة . والعلاقة بين الجهاز العصبي والجهاز النطقي عند المتحدث ليست من مجالات البحث اللغوي ، فاللغويون يهتمون باللغة عند صدورها ولا يهتمون بالعمليات العقلية السابقة على ذلك ، فهي موضوع من موضوعات البحث في علم النفس . وعندما تفصل اللغة إلى الجهاز السمعي للمتلقى ويقوم بنقلها إلى الجهاز العصبي تحدث عمليات عقلية أخرى يبحثها علم النفس أيضا . أما تلك الظاهرة الصوتية التي تصدر عن المتحدث وتنمض في شكل موجات صوتية فتصل إلى المتلقى فهي اللغة ، وهي مجال البحث في علم اللغة (١) .

وهناك فرق أساسي بين منهج اللغويين وعلماء النفس تجاه الظواهر اللغوية ، فقد صرف علماء النفس جهدهم إلى اكتشاف قوانين عامة تفسر السلوك الانساني، وركزوا جهدهم على الظواهر العامة مثل التعلم والادراك والقدرات . ولكنهم لم يهتموا بمحتوى السلوك نفسه . ففي بحث قضية التعلم لم يهتموا بالمادة المنشودة التي

J.B. Watson. : An Introduction to comparative Psychology, Holt, Rinehart 1914, Psychology from the standpoint of a behaviourist, Lippencott 1919.

B.F. Skinner, Verbal Behaviour. Appelton 1957.

وكذلك : فؤاد أبو حطب في : السلوكية في علم النفس ، عالم مفكر (١٩٧٣)

١/٤ من ١٦٧ - ٢٠٠ .

Bloomfield, Language

(١) انظر :

تعلم ، بل كان اهتمامهم مركزا على عملية التعلم باعتبارها عملية عقلية^(١) . وفي السنوات الاخيرة حاول بعض الباحثين النظر إلى اللغة من الجانبين ، فلم تعد الاستجابات اللغوية Verbal responses تدرس باعتبارها ضربا من الاستجابات لحسب بل روعيت البنية اللغوية في ذلك أيضا . ويتضح هذا من مقارنة الدراسات السابقة حول اللغة عند الطفل بالدراسات المعاصرة ، فهي تبحث نفس الموضوع بطريقة اللغويين ، أى بتحليل لغة الطفل من جوانبها الصوتية والنحوية والدلالية^(٢) . وقد أفاد علماء النفس في السنوات الاخيرة من مناهج التحليل اللغوي في بحثهم لسلوك اللغوي ، ولكن هذا لا يمنع من تحديد مجال اختصاص كل من الفريقين .

فمجال الدراسة النفسية للغة هو كيفية تحويل المتحدث للاستجابة إلى رموز لغوية to encode ، وهذه عملية عقلية تتم عند الانسان ، وينتج عنها إصدار الجملة الصوتية للغة . وعندما تصل اللغة إلى الملتقى ويقوم بفك هذه الرموز اللغوية في العقل إلى المعنى المراد to decode تتم عملية عقلية أخرى تدخل في إطار علم النفس أيضا . أما تلك الرموز الصوتية التي تنتقل من المتحدث عبر الهواء

(١) انظر التقرير العلمى العميق الذى كتبه كارول استاذ علم النفس بجامعة هارفارد حول علم اللغة والعلوم المرتبطة به والمنشور بعنوان :

Caroll, The Study of Language, Harvard University Press 1953, 1966.

ويتناول الفصل الثانى من الكتاب : علم اللغة وعلم النفس .

(٢) انظر مثلا كتاب :

P. Menyuk, The Acquisition and Development of Language.

الصادر فى سلسلة :

The prentice-Hall-Series in Developmental Psychology 1971.

إلى المتأق ، ففى مجال البحث فى علم اللغة . ويرى بعض اللغويين وعلماء النفس أن دراسة السلوك اللغوى لإسهام مثير لا لفهم اللغة فحسب بل لتكوين النظرية العامة لعلم النفس ، وقد تطورت الدراسات اللغوية والنفسية فى العشرين عاماً الماضية لتجعل من جوانب اللقاء بين علم النفس وعلم اللغة فرعاً مستقلاً بذاته هو علم اللغة النفسى (١) psycholinguistics .

١٠ — علم اللغة والعلوم الاجتماعية

اللغة ظاهرة اجتماعية حضارية ، ولذا يلتقى فى بحثها علم اللغة مع العلوم الاجتماعية المختلفة . وهناك عدة تسميات أطلقت على جوانب اللقاء بين علم اللغة والعلوم الاجتماعية فى بحثها اللغة . وتعددت هذه التسميات بتعدد أسماء العلوم الاجتماعية ومدارسها المختلفة وليس من شأننا هنا أن ندخل فى اختلافات التسميات بين العلوم المتداخلة ، ويكفى أن نشير إلى جوانب اللقاء الكثيرة بينها وبين علم اللغة (٢) . لقد أفاد الباحثون فى العلوم الاجتماعية من نتائج البحث اللغوى من عدة

(١) يسمى أيضاً :

Psychology of Language

علم نفس اللغة

Linguistic psychology

علم النفس اللغوى

F. Carroll, P. 70.

انظر :

وقد جمعت مجموعة دراسات فى علم اللغة النفسى ضمن كتاب :

Sol Saporta Psycho—linguistics, Holt, Winston 1966.

(٢) يطلق على دراسة القضايا اللغوية فى ضوء العلوم الاجتماعية عدة تسميات :

Sociology of Language

علم الاجتماع اللغوى

Sociolinguistics

علم اللغة الاجتماعى

Ethno —Linguistics

علم اللغة الانثنولوجى

جوانب منها أن اللغة أهم مظاهر السلوك الاجتماعى وأوضاع حياتيات الانتماء الاجتماعى للفرد . وأفاد اللغويون كذلك من الدراسات الاجتماعية، فدراسة الالفاظ ودلالاتها على نحو دقيق لا تتم إلا فى إطارها الاجتماعى والحضارى ، والتغير اللغوى لا يفسر تفسيراً كاملاً إلا فى ضوء الظروف الحضارية والاجتماعية . وإلى جانب هذا تؤثر المواقف الاجتماعية من مستويات اللغة فى مكانة هذه المستويات وتحدد مسار التغير فيها . هناك قضايا لغوية كثيرة لا يمكن اتضاح معالمها السكاملة إلا بالتعاون بين الدراسات اللغوية والحضارية (١) .

١١ — علم اللغة وتعليم اللغات :

يعد علم اللغة التطبيقى Applied Linguistics ثمرة اللقاء بين علم اللغة والتربية . موضوع علم اللغة التطبيقى هو الاستفادة من علم اللغة بمناهجه ونتائج دراساته ، وتطبيق هذا كله فى مجال تعليم اللغات . لقد كان علماء اللغة فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين يهتمون فى أبحاثهم المنهج المقارن ، ولم يكن ثمة لقاء بين دراساتهم وعلم التربية . ولكن البحث الوصفى للغات والتقدم الذى أحرزه علم اللغة العام فى القرن العشرين أوضحا حقائق كثيرة عن بنية اللغة وحياتها . وبدأ المختصون فى تعليم اللغات

Anthropological linguistics

علم اللغة الانثروبولوجى

Linguistic Anthropology

علم الانثروبولوجيا اللغوية

وحول تاريخ اللقاء بين علم اللغة والعلوم الاجتماعية :

محمود فهمى حجازى : أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الانثولوجية ،

عالم الفكر (١٩٧٢) ١/٣ ص ١٥١ — ١٨٠ .

(١) انظر مجموعة البحوث المنشورة فى :

Dell Hymes, Language in culture and Society, New York 1965.

P.P. Giglioli, Language and Social context (Penguin 1972).

وخصوصاً في العشرين عاماً الماضية يحاولون تطبيق مناهج علم اللغة ونتائجه في تعليم اللغات^(١). فلم تعد اللغة الأجنبية تعلم باعتبارها ظاهرة مكتوبة بل باعتبارها ظاهرة صوتية في المقام الأول. بدأ الاهتمام بالنطق يحتل المكان الأول في تعليم اللغات، فهو الأصل، أما الكتابة فهي ظاهرة تابعة، ومن ثم أصبح من المنفق عليه في علم اللغة التطبيق أن يعد تعليم النطق أساساً لتعليم الكتابة. فيبدأ تعليم اللغة بالجانب الصوتي ثم تأتي كيفية الكتابة بعد ذلك، مع ملاحظة أن الفروق بين البنية الصوتية للغة ونظام كتابتها يشكل صعوبات التدوين، ومن ثم ينبغي الإشارة إليها باعتبارها ظواهر خاصة بالكتابة لا باللغة.

وإذا كان علم اللغة التقابلي يهتم بمقارنة أي مستويين لغويين بهدف إثبات الفروق بينهما، فإن مقارنة اللهجة المحلية التي اكتسبها التلميذ في طفولته باللغة

(١) اهتمت كثير من الدول بالاستفادة من علم اللغة التطبيق في نشر لغاتها وتعليمها للأجانب وأنشئت مراكز لعلم اللغة التطبيقى مثل :

Center for applied Linguistics. Washington.

Centre de recherche et d'aide pour la diffusion du Français
=Paris (CREDIF)

ومركز الدراسات التابع لمعهد جوته Goethe — Institut في ميونخ
وتسكونت في السنوات الماضية عدة جمعيات علمية لعلم اللغة التطبيقى وعقدت مؤتمرات دولية كثيرة في السنوات الماضية لبحث قضايا علم اللغة التطبيقى (١٩٧٢)
وانظر حول هذا الاتجاه الجديد في تعليم اللغات :

R. Lado, Language Teaching, New York (1970).

M. de Grève, Linguistique et Enseignement des langues
étrangères (1970)

الادبية التي ينبغي له أن يتعلمها توضح لنا الصعوبات التي تواجهه في ذلك . ولذا تعد الدراسات اللغوية التقابلية من أهم أدوات البحث في وضع برامج تعليم اللغة القومية ، كما أنها تفيد بنفس القدر في تحديد الصعوبات التي تواجه أبناء جماعة لغوية ما في تعلمهم للغة أجنبية . وبذلك تستطيع الدراسة التقابلية أن تحدد بطريقة موضوعية جوانب الصعوبة الناجمة عن اختلاف بنية اللغتين : اللغة الأم واللغة المنشودة^(١) .

وإذا كان علم اللغة قد أوضح أن المعنى هو حسيلة الاستخدام في المواقف الكلامية والثقافية المختلفة وأن إيماءات الرمز اللغوي هو حسيلة استخدامه في هذه المواقف فإن تعليم اللغات أخذ يضع في اعتباره أن دلالة الكلمة أو العبارة لا تتضح عند التلميذ إلا إذا درست مرتبطة بمواقف استخدامها . فاستظهر قوائم المفردات لا معنى إدراك إيماءات المعنى المراد ، ودلالة الالفاظ لا تكسب إلا في مواقف استخدامها ، ولا تعلم إلا في مثل هذه المواقف أو ببيان هذه المواقف .

لقد أثبت علم اللغة وجود مستويات متنوعة للاستخدام اللغوي ، ولذا ينبغي تحديد المستوى اللغوي المراد وعدم قضاء الوقت في تعلم مستويات لغوية متداخلة دون وعى بالمستوى اللغوي المنشود^(٢) ، ولابد من تحديد هذا المستوى في ضوء الأهداف الحضارية والثقافية والاجتماعية المختلفة ، فتعلم لغة من اللغات بهدف التعامل اليومي بها يختلف عن تعلمها بهدف قراءة المؤلفات العلمية بها ، وتعليم

(١) اللغة المنشودة = target language أى اللغة المراد تعلمها .

(٢) تتم بعض مراكز بحوث تعليم اللغات بقضية الاستخدام اللغوي في مجال التخصص وقد بحث المعهد المركزي للإنجليزية Central Institute of English في حيدر أباد بالهند الاستخدام اللغوي المحدود restricted Language بهدف تحديد ما يلزم الطالب الهندي من الإنجليزية لقراءة كتب العلوم الطبيعية وما يلزمه

اللغة بهدف قراءة كتب الفيزياء أو الرياضيات يختلف عن تعليمها لقراءة الصحف ،
فهذه المستويات متنوعة متفاوتة .

١٢ — علوم اللغة بين العلوم :

هناك فرق أساسى بين مكانة علوم اللغة فى التراث العربى ومكانة علم اللغة بين
العلوم الحديثة . فإذا كانت مدارس علم اللغة المتتابعة عبر القرون تختلف فى
مناهج التحليل اختلافا كبيرا فإن الفرق الأساسى بين علم اللغة فى التراث العربى
وعلم اللغة الحديث ينبع من مكان علم اللغة بين العلوم . كان البحث اللغوى عند
العرب أداة لفهم الدين ، وقد ارتبط منذ نشأته بالبحث فى لغة القرآن الكريم .
وظل هذا الارتباط قائما فى الدوائر العلمية على مدى القرون ، وظهر هذا بصفة
خاصة عند المؤلفين المسلمين من غير العرب ، مثل الثعالبى وأبى حاتم الرازى
والحوارزمى والتهانوى فالثعالبى يرى العربية خير اللغات والألسنة والاقبال على
تفهمها من الديانة ، إذ هى أداة العلم ومفتاح التفقه فى الدين ،^(١) . وقد جعل
أبو حاتم الرازى اللغات العربية والعبرية والسريانية والفارسية أفضل لغات الأرض
لأن الكتب الدينية دونت بها ، فالعلماء الدينى هو معيار تفضيل لغة على لغة ،
ومن ثم فهو يرفض أيضاً رأى القائل بفضل اللغة اليونانية والهندية لأن كتب
الفلاسفة والأطباء وأصحاب النجوم والهندسة والحساب بها^(٢) . لقد كانت

== لقراءة كتب العلوم الاجتماعية الخ ... وقد أصدر مركز CREDIF فى فرنسا
عدة كتب فى هذا الاتجاه أى حول *Les langues des specialités* تناولت عدة
فروع للمعرفة ، وتعمل هذه المراكز الآن فى تطوير الوسائل التربوية المناسبة
للافادة فى هذه البحوث اللغوية .

(١) فقه اللغة ص ١ ، ط ١٩٥٤ .

(٢) كتاب الويثة ، ص ٦١ .

العلوم الدينية تشغل حيزاً كبيراً من الاهتمام العلمى فى مجال الحضارة الإسلامية . وكان الاهتمام بعلوم اللغة جزءاً من المدرسة الهادفة إلى التعمق فى الدين . فعندما صنف الخوارزمى العلوم التى عرفتها الحضارة الإسلامية جعلها فى مجموعتين : العلوم الشرعية وما يقترن بها من العلوم العربية ، ثم : علوم المعجم من اليونانيين وغيرهم من الأمم ^(١) . ونجد فى مقدمات كتب كثيرة إشارات إلى أن الدراسة اللغوية أداة من أدوات فهم نصوص القرآن والحديث ، فإن القوطية — مثلاً — قدم لكتابة الأفعال بأنها أصول مبانى أكثر الكلام . . . وبعلمها يستدل على أكثر علم القرآن والسنة ^(٢) . . . وقد عد ابن خلدون معرفة علوم اللسان العربى ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهى بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم ^(٣) . . . وعندما قسم ابن خلدون العلوم إلى علوم مقصودة بالذات « وعلوم آلية » ، عد علوم اللغة من العلوم الآلية باعتبار أنها مجرد وسيلة لفهم العلوم الشرعية . ولذا فالبحث اللغوى عند ابن خلدون ليس هدفاً فى ذاته ^(٤) ، بل إنه يرى الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضيقاً للعمر وشغلاً بما لا يعنى ^(٥) . وتنضح هذه الفكرة عند التهانوى الذى جعل علم اللغة من فروع الكفاية التى تسقط عن الكل إذا قام بها البعض ؛ فعلم اللغة لم يكن مستقلاً بذاته ، ولم يكن إلا وسيلة لفهم النصوص الدينية ، أو كما يقول

-
- (١) مفاتيح العلوم ، ط القاهرة ١٣٤٢ ، ص ٤ .
 - (٢) كتاب الأفعال لابن القوطية ، تحقيق : على فودة ١٩٥٢ ، ص ١ .
 - (٣) مقدمة ابن خلدون ١٢٥٤ . (ط وائى — القاهرة ١٩٦٢)
 - (٤) مقدمة ابن خلدون ١٢٣٨ .
 - (٥) مقدمة ابن خلدون ١٢٣٩ ، وقد ردد هذه الفكرة حسين المرصنى فى الوسيلة الأدبية (ط ١٩٢٤/٢ ، ١٠٦/١) .

التهانوي : « آلة لتحصيل العلم بالشرعيات »^(١) وتوضح هذه النصوص موقفا عاما من علوم اللغة في إطار الحضارة الاسلامية ، فقد كان الاشتغال بعلوم اللغة أداة لفهم العلوم الدينية ، ولم تكن فكرة استقلال كل علم واردة في فكر المصور الوسطى ، ولم يكن الهدف العلمى واضحا في تصنيف العلوم .

ولكن التقدم العلمى فى العصر الحديث أدى إلى اتساع مجالات المعرفة عند الانسان وفرض التخصص على من يريد المشاركة فى البحث العلمى ، وهنا أخذ علم اللغة يستقل بنفسه شأنه فى هذا شأن فروع المعرفة الأخرى ، وإذا كان ثمة ضرورة لتصنيف العلوم فى العصر الحديث فإن علم اللغة يشغل فى التصنيف العشرى لديوى^(٢) مكانا وسطا بين علم الاجتماع والعلوم الطبيعية . وفى هذا إدراك واضح لمكان علم اللغة الحديث بين العلوم والمعارف الحديثة .

لم يعد علم اللغة مجرد وسيلة لفهم النصوص الدينية أو أداة لفهم النقوش القديمة لحسب ، بل له أيضا أهدافه العلمية العامة بجانب الأهداف التطبيقية الكثيرة . فعلم اللغة علم أساسى بمعنى أنه يحاول — مثل باقى العلوم الأساسية الأخرى — كشف جوانب موضوعه بأدق المناهج العلمية . أما الأهداف التطبيقية مثل الاستفادة من نتائج علم اللغة فى تعليم اللغات والتخطيط اللغوى فتأتى ثمرة طبيعية للدراسات الأساسية . ولكن علم اللغة لا يهدف بطريقة مباشرة نحو هذه القضايا التطبيقية ، وهذا أيضا شأن كل فروع المعرفة العلمية .

= فروض الكفاية ... وعلم الطب من فروض الكفاية أما التعمق فى الطب فليس بواجب . انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ١/٧٣ . ومنطلق فكرة التهانوي فى تصنيفه للعلوم هو اعتبار الدنيا مرحلة إلى الآخرة وأن العمل من أجل الآخرة هو طريق الصلاح فى الدنيا والآخرة سبب استقامة الدنيا وفى استقامتها استقامتها ، المرجع المذكور ١/٧٤ .

Dewey Decimal Classification

(١) انظر :

لقد أصبح علم اللغة علماً مستقلاً هدفه الأساسي بحث كل جوانب اللغة والحياة اللغوية في العالم . ويقدم علم اللغة هذه النتائج ، فتكون متاحة لعدة تخصصات وعلوم تستفيد من علم اللغة ومن غيره . وما أكثر العلوم التي تتعامل بنتائج علم اللغة ، منها : علم الأصوات العلاجي ، علوم التربية ، علم النفس ، والعلوم الاجتماعية وهندسة (أجهزة) الاتصال Communication Engineering الخ : وإذا كان ابن خلدون وغيره قد اعتبروا الحساب أداة للعلوم الدينية^(١) ، فلم يعد أحد يعتبر الرياضيات مجرد وسيلة لتنظيم المعاملات الفقهية . وإذا كانت الرياضيات قد أصبحت علماً مستقلاً ، وأصبح للطب الذي كان فرض كفاية^(٢) فروع كثيرة مستقلة ومتكاملة ، فإن علم اللغة قد أصبح علماً مستقلاً يبحث اللغة ويستفيد من كل فروع المعرفة التي تثير له جوانب مختلفة في بحث اللغة ، فإلى جانب الاستفادة من أجهزة القياس الصوتي والوسائل الإحصائية ونتائج علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم فيزياء الصوت فإن علم اللغة يرتبط بأوثق الوشائج مع العلوم الإنسانية الأخرى ، مثل : علم النفس وعلم الاجتماع . ولذا يصفه البعض بأنه أكثر العلوم الدقيقة إنسانية وأكثر العلوم الإنسانية دقة .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣٨ .

(٢) كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي ١/٧٣ .

الفصل الثالث

علوم اللغة في التراث العربي

اهتم عدد من الباحثين العرب بعلوم اللغة منذ بداية الحركة العلمية في إطار الدولة الإسلامية ، فكانت لهم جهودهم في مجالات الاصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة والمفردات . وكان المشتغلون بعلوم اللغة يصنفون إلى مجموعتين ، تهتم المجموعة الأولى ببنية اللغة ، وتهتم المجموعة الثانية بمفردات اللغة ودلالاتها . وقد وصف مجال البحث عند المجموعة الأولى بأنه « النحو » أو « علم العربية » ، بينما وصف مجال بحث المجموعة الثانية بأنه « اللغة » أو « علم اللغة » أو « فقه اللغة » أو « متن اللغة » . وإلى جانب هذه المصطلحات ، ولكل منها تاريخ مستقل ، وجدت محاولات لوصف علوم اللغة مجتمعة ، فسميت « علم اللسان » أو « علوم اللسان العربي » أو « علوم الأدب » أو « العلوم العربية » ، كما وجدت إلى جانب هذا محاولات لبيان ترابط هذه الأفرع وايضاح النسق الذي يتخذه كل منها في إطار البحث اللغوي العام

١ - النحو وعلم العربية :

أطلق علماء اللغة على دراسة بنية اللغة من جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية في التراث العربي اسمين اثنين ، هما النحو ، وعلم العربية ، ويرجع مصطلح النحو إلى القرن الثاني الهجري ، وظل مستخدما لوصف هذا المجال من مجالات البحث إلى يومنا هذا . لقد صنف كتاب سيديويه بأنه كتاب في النحو ، ووصفه أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) بأنه « قرآن النحو » ، كما وصف سيديويه بأنه « أعلم الناس

بالنحو بعد التحليل ، (١) . ويضم النحو بهذا المعنى مجموعة من الدراسات التي تصنف في علم اللغة الحديث في إطار الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة . إن سيوييه صاحب أقدم كتاب وصل إلينا في النحو العربي — لم يقسم كتابه إلى موضوعات كبرى متميزة ، وإنما اكتفى بمحشد الأبواب الكثيرة متتابعة . لقد بدأ كتابه بقضية الإعراب وانتقل منها إلى عدد من القضايا الخاصة ببناء الجملة ، وعندما تحول بعد ذلك إلى الأبواب الخاصة بالأبنية الصرفية وجد لزوما عليه أن يفسر بعض الأبنية في ضوء البحث الصوتي فجاءت الأبواب الخاصة بالأصوات في آخر كتابه . لم يضع سيوييه مصطلحات تميز في وضوح قطاعات الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة ، فكل هذا يدخل عنده في مجال واحد هو مجال النحو .

وذلل الباحثون في القرون الأولى للهجرة يستخدمون مصطلح النحو في أكثر الأحوال بهذا المعنى العام . يضم النحو في تعريف ابن جني (ت ٣٩١ هـ) المجالات التالية : الإعراب ، التثنية ، الجمع ، التحقير ، التكسير ، الإضافة ، النسب ، التركيب وغير ذلك (٢) . فالنحو يضم عند ابن جني هذه الدراسات التي تصنف الآن في إطار بناء الكلمة إلى جانب ما يتعلق ببناء الجملة . ويتناول علم النحو عند أبي حيان الأندلسي معرفة الأحكام للكلم العربية من جهة أفرادها ومن جهة تركيبها ، (٣) ، أي أنه يبحث بنسبة الكلمة المفردة وعلاقات الكلمات في الجملة .

(١) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي - ص ٦٥ .

(٢) الخصائص لابن جني ١-٣٤ ، وتعريف ابن جني للنحو : « النحو هو انتحاء سميت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقيق والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة » .

(٣) البحر المحييط لأبي حيان ١ / ٥ - ٦ . وانظر كتاب : أبو حيان النحوي لخديجة الحديثي . ص ٢١٣ .

وظل كثير من النحويين يمدون النحو شاملا لكل هذه الدراسات ، فالنحو عندهم يتناول كل ما يتعلق بالكلمة والجملة . لقد ألف ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) كتاب « الكافية » في النحو ويتناول فيه القضايا الخاصة بالإعراب وبناء الجملة بينما خصص لبناء الكلمة كتابا آخر هو « الشافية » . ولكنه على الرغم من هذا التقسيم ظل ابن الحاجب يعد « التصريف » قسما من النحو لا قسيما له (١) .

وهناك مؤلفون آخرون استخدموا كلمة النحو بمدلول أضيق ، ففصلوا استخدام هذه الكلمة على البحث في بناء الجملة ، وبهذا المعنى استقر المصطلح في القرون المتأخرة للحضارة العربية الإسلامية (٢) . وهناك مصطلح آخر وصف به البحث في بنية اللغة ، وهو مصطلح « العربية » ، أو « علم العربية » . لقد وصل

(١) انظر : شرح الشافعية للاستراياذى (ط محي الدين ١٩٣٩) ٦/١ .

تعريف النحو عند الاشعري : « العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي اختلف منها » (انظر : شرح الاشعري على الالفية ٥/١ ، ط النهضة بالقاهرة ١٩٥٥) ، ولكن مضمون البحث النحوي كما يتضح من الالفية عبارة عن أحكام الجملة والكلمة . وقد ذكر الشانوي التعريف التالي للنحو :

« علم يعرف به كيفية التركيب العربي صحة وسقاما وكيفية ما يتعلق بالانفاذ من حيث وقوعها فيه » ، (انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ، مؤلف ١١٥٨ هـ ، ٢٣/١) .

(٢) قارن أيضا تعريفات النحو عند أبي حيان النحوي في الادراك ط استانبول ١٣٠٩ ص ٦٦ ، والبحر المحييط ٥/١ - ٦ ، وعند ابن خلدون في المقدمة . ١٢٥٤ .

إلينا المصطلحان في مؤلفات القرن الرابع الهجري ، فابن النديم وابن فارس يستخدمان مصطلح العربية بمعنى النحو . فعندما نوقشت قضية أولية التأليف في النحو نجد عندهما العبارة التالية : « أول من وضع العربية »^(١) ، وظل استخدام هذين المصطلحين في كتب المشاركة في القرون التالية يمثل ظاهرة فردية محددة ، على نحو ما نجد في مؤلفات ابن الأنباري (ت ٥٧٧ هـ) ، ولكن المغاربة والاندلسيين كانوا يفضلون وصف ذلك التخصص بأنه « علم العربية » .

لقد ذكر أبو البركات بن الأنباري مصطلح العربية في مواضع كثيرة بمعنى النحو كما جاء هذا المصطلح في تراجم كثير من العلماء ، فعند يونس بن حبيب يلتقي « طلبة العربية وفصحاء الأعراب »^(٢) . والزيدي « أخذ علم العربية من أبي عمرو بن العلاء وعبد الله بن اسحق الحضرمي والتحليل بن أحمد »^(٣) . كما وصف ابن الأنباري كتابه الانصاف بأنه « أول كتاب صنف في علم العربية »^(٤) حول القضايا الخلافية ، وسمى ابن الأنباري أحد كتبه في النحو « أسرار العربية » . ولكن استخدام مصطلحي العربية وعلم العربية بمعنى النحو يعد ظاهرة محدودة الانتشار عند المشاركة مثل ابن الأنباري .

(١) (نزعة الألباء ص ٤٧) . انظر الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس (ط بيروت) ص ٣٨ ، ٦٦ ، والفهرست لابن النديم (ط فلوجل) ص ٣٩ ، ونفس العبارة في نزعة الألباء (ط القاهرة د . ت) ص ٤ .

(٢) نزعة الألباء ص ٤٧ .

(٣) نزعة الألباء ص ٢٠٥ .

(٤) انظر مقدمة كتاب « الانصاف في مسائل الخلاف » (ط القاهرة ٦١)

أما في المغرب والاندلس فهناك نصوص كثيرة توضح تفضيلهم لمصطلح « العربية » ، ففي القرن الرابع الهجري ذكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) في تراجمه لكثير من علماء الاندلس والمغرب مصطلح « العربية » بمعنى النحو . فإذا كان المشاركة قد كتبوا عن « النحو » و « اللغة » ، فإن الزبيدي ذكر في مواضع كثيرة « العربية » و « اللغة »^(١) . و « العربية » أو « علم العربية » عند الزبيدي مصطلحان دارا كثيرا في مؤلفاته بمعنى النحو^(٢) . وليس استخدام مصطلحي « العربية » و

(١) انظر العبارات التالية للزبيدي في طبقات النحويين واللغويين حيث نجد التقابل بين « (علم) العربية » بمعنى النحو و « (علم) اللغة » بمعنى بحث المفردات : — وكان يستفتى في الكلمة من اللغة والمسألة من العربية ، ، ص ٢٨١ .

— وكان من أهل العلم بالعربية واللغة ، ، ص ٢٨٧ .

— و جلب إلى الاندلس علما كثيرا من الشعر والغريب والعربية والأخبار ، ، ص ٢٨٩ .

— وكان أستاذا في علم العربية واللغة ، ، ص ٢٩٤ .

— ومن أهل العلم بالعربية والحفظ للغة ، ، ص ٣٠٩ ، وكذلك ص ٣١٢ .

— وكان مؤدبا عالما بالعربية ، وكان يميل إلى مذهب الكوفيين ، ، ص ٣٢٣ .

— وكان بصيرا بالعربية حاذقا فيها ، وكان قد طالع كتاب سيبويه ونظر فيه ، ، ص ٣٢١ .

وهناك مواضع كثيرة مماثلة أخرى .

(٢) وصل إلينا كتاب نحوى للزبيدي في مخطوطين اثنين :

الأول : مخطوط مكتبة الجامع المقدس بصنعاء ٧١ نحو عنوانه فيها : « الواضح في علم العربية » ، ومنه مصورة في دار الكتب بالقاهرة . والثاني : مخطوط الاسكوريال ١٩٧/٢ وعنوانه فيها : « الواضح في النحو » (انظر : لحن العامة للزبيدي ، مقدمة : عبد العزيز مطر ٨) .

« علم العربية » عند الزيدى سمحة فردية خاصة ، فالمصطلحان وردا في كتب مغربية وأندلسية كثيرة^(١) ، كما وردا في تراجم أندلسية تناقلتها كتب الطبقات^(٢) . وهناك مواضع كثيرة عند ابن خلدون توضح أن المغاربة والاندلسيين كانوا قد اعتادوا حتى عصره التعبير عن النحو بمصطلح « العربية » أو « علم العربية » . لقد وصف ابن خلدون كتاب سيبويه بأنه في علم العربية وأن ألفية ابن مالك في العربية أيضا^(٣) . وإذا كان ابن خالويه (ت ٢٧٠ هـ) وهو أحد علماء المشرق قد استخدم عبارة « أهل صناعة النحو » ، فإن ابن خلدون وهو مغربي قد ذكر في نفس المعنى عبارة : « أهل صناعة العربية »^(٤) . وقد أطلق ابن خلدون على القواعد النحوية مصطلحين مترادفين هما : « قوانين العربية » و « القوانين النحوية »^(٥) . ومن هذا كله يتضح أن المغاربة والاندلسيين كانوا يستخدمون مصطلح العربية في الوقت الذي كان فيه المشاركة يميلون إلى مصطلح النحو .

ظل النحو عند المشاركة أو علم العربية عند المغاربة يضم الدراسات الخاصة ببنية اللغة من جوانبها المختلفة . وعندما ألف المازني (ت ٢٤٩ هـ) كتابه

(١) ووصف ابن عصفور (ت ٦٦٩) التصريف بأنه من « علم العربية » (انظر : المتع ١ / ٢٧) باعتبار أن علم العربية يضم كل ما يتعلق ببناء الجملة وبناء الكلمة .

(٢) وردت كلمة « العربية » في تراجم أندلسية نقلها السيوطي في بغية الوعاة ٩/١ ، ٨/١ ، ٧/١ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ١٢٣١ .

(٤) قارن : الحجة في القراءات السبع ص ٣٨ ، مقدمة ابن خلدون ١٢٧٨ ، ١٢٣١ .

(٥) مقدمة ابن خلدون ١٢٤٨ .

والتصريف ، لم يكن البحث في بناء الكلمة إلا جزءا من النحو بالمعنى الشامل .
 لم يضع سيبويه اصطلاحا مستقلا للعلم الذى يبحث بناء الكلمة ، ويبدو أن الماثلين
 من أوائل من خصصوا للأبنية الصرفية كتباً مستقلة ، وكتابه والتصريف ، أقدم
 كتاب مستقل كامل وصل إلينا فى الأبنية الصرفية . وقد حدد ابن جني (ت ٣٩١هـ)
 مجال البحث فى التصريف بأنه معرفة أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليه ،
 وأن التصريف هو الأساس الذى تقوم عليه معرفة الاشتقاق^(١) ، ولم يكن
 التصريف عند ابن جني إلا جزءا من النحو . وألف ابن عصفور الأندلسي
 (ت ٦٦٩هـ) فى بنية الكلمة كتابه والمتع فى التصريف ، والتصريف عنده
 جزء من البحث فى علم العربية^(٢) . وصرح الاسترأباذي (ت ٦٨٨هـ)
 بأن التصريف جزء من أجزاء النحو بلا خلاف من أهل الصناعة^(٣) .

أما مصطلح الصرف ، الذى استقر فى الاستخدام المدرسى بعد ذلك فهو
 اصطلاح متأخر نسبيا . فالسكاكى (ت ٦١٧هـ) استخدم مصطلح الصرف فى
 حديثه عن الاحكام الخاصة ببنية الكلمة^(٤) ، وهذا المعنى ذكر طاشكبرى زاده
 علم الصرف^(٥) . ويلاحظ عند هؤلاء المؤلفين المتأخرين أن الصرف عندهم
 ليس جزءا من النحو ، بل هو قسم النحو . وهكذا استقر مجال علم النحو عندهم
 باعتبار أنه دراسة الاعراب وبناء الجملة فى مقابل الصرف الذى يقتسول بنية
 الكلمة .

(١) انظر المنصف شرح التصريف ٢/١ .

(٢) الممتع ٢٧/١ .

(٣) شرح الشافية (تحقيق : محي الدين ، القاهرة ١٩٣٩) ٦/١ .

(٤) مفتاح العلوم للسكاكى ص ٣ ، وأحمد مطلوب : البلاغة عند السكاكى

(بغداد ١٩٦٤) ص ٦٥ .

(٥) مفتاح السعادة ٩٩/١ .

٢ - اللغة وعلم اللغة وفقه اللغة :

أطلق المؤلفون العرب على الاشتغال بالمفردات اللغوية جمعا وتأليفا عدة مصطلحات أقدمها مصطلح « اللغة » . لقد وصف أبو الطيب اللغوي (ت ٨٢٥١) أبا زيد والاصمعي وأبا عبيدة ، وقارنهم من جانب معرفتهم باللغة ، وكان أبو زيد أحفظ الناس للغة ، وكان الاصمعي يجيب في ثلث اللغة ، وكان أبو عبيدة يجيب في نصفها ، وكان أبو مالك يجيب فيها كلها ^(١) . والمقصود هنا بكلمة اللغة مجموع المفردات ومعرفة دلالاتها . وبهذا المعنى كانت كتب الطبقات تميز بين المشتغلين بالنحو أو العربية من جانب والمشتغلين باللغة من الجانب الآخر ، لذا عد سيبويه والمبرد من النحاة بينما عد الاصمعي وأقرانه من اللغويين . وقد ظل استخدام كلمة اللغة بهذا المعنى عدة قرون ، وأصبح اللغوي ، هو الباحث في المفردات جمعا وتصنيفا وتأليفا .

فالاصمعي لغوي لأنه جمع ألفاظ البدو وسجلها في رسائل لغوية مصنفة في موضوعات دلالية . والتحليل لغوي لأنه أول من حاول حصر الألفاظ العربية وتسجيلها في معجم . وابن دريد لغوي أيضا لأنه ألف معجمه « جمهرة اللغة » . والازهرى لغوي لأنه ألف معجمه « تهذيب اللغة » . وظل استخدام كلمة « اللغة » بمعنى بحث المفردات وتصنيفها في معاجم وكتب موضوعية سائدا في الدوائر العلمية عدة قرون .

وهناك مصطلح ظهر في القرن الرابع الهجري عند اللغوي العربي ابن فارس (ت ٥٢٩٥) وأخذه النحائي (٥٤٢٩) . لقد أطلق ابن فارس على أحد كتبه « الصحابي في فقه اللغة » ، وبذلك ظهر مصطلح فقه اللغة لأول مرة في التراث العربي عنوانا لكتاب ، وتسمية لفرع من فروع المعرفة ، ولم ينتشر هذا المصطلح

(١) مراتب النحويين لابن الطيب اللغوي ص ٤١ .

إلا بقدر محدد، وأشهر من استخدمه بعد ابن فارس - لغوي أديب هو الثعالبي ، فقد سمى كتابه « فقه اللغة وسر العربية » . يتفق كتابا ابن فارس والثعالبي في معالجتها لقضايا الالفاظ العربية ، فموضوع فقه اللغة عندهما هو معرفة الالفاظ العربية ودلالاتها وتصنيف هذه الالفاظ في موضوعات وما يتعلق بذلك من دراسات^(١) . يضم كتاب ابن فارس إلى جانب هذا مجموعة من القضايا النظرية حول اللغة ، من أبرزها قضية إشاة اللغة ، فإذا كان العلماء قد اختلفوا في ذلك فآها البعض اصطلاحا ، أى عرفا اجتماعيا فإن ابن فارس رفض هذا الرأى واعتبرها توقيفا ، أى بمنزلة الوحى المنزل من السماء^(٢) . ولا يدخل موضوع اللغة ولا

(١) تناول القسم الخاص بفقه اللغة في كتاب : « فقه اللغة وسر العربية » المفردات في مجموعات دلالية (النبات والشجر ، أنواع الحيوان ، الطعام ، الثياب ، الابل ، الآلات ، والادوات ، أوائل الاشياء وأواخرها ، الطول والقصر ، اليس واليمين ، القلة والكثرة ، الملء والصفورة والخلاء ، الأصول والرواس والاعضاء والاطراف ، الامراض والدواء ، الاصوات وحكايتها ، الحجارة ...
السخ) .

(٢) انظر : الصاحبي في فقه اللغة . وأيضا المزهر للسيوطى ٨/١ وما بعدها
يتضح رأى ابن فارس في أصل اللغة من الفقرة التالية : « وقف الله عز وجل آدم عليه السلام ما شاء الله أن يعلمه إياه بما احتاج إليه عليه في زمانه ، ... ثم علم بعد آدم من الانبياء (ص) ما شاء الله أن يعلمه ، حتى انتهى الامر إلى نبينا محمد (ص) فأناؤه الله من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله ، تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة ، ثم قر الامر قراره ، فلا تعلم لغة من بعده حدثت . فإن تعمل لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده ، وقدوافق ابن حزم على القول بالأصل التوقيفى للغة الانسانية ورفض خلط اللغات وعدم التمييز بينها ونسبة اللغات إلى الانبياء دون دليل على ، انظر : الاحكام في أصول الاحكام ص ٣٠ - ٣١ .

موضوع ارتباط اللغة بالوحي في إطار قضايا علم اللغة الحديث ، لأنه ليس من الممكن بحث الموضوعين بمعايير علمية دقيقة .

كما تضمن كتاب الثعالبي قسماً ثانياً هو سر العربية ، وقد تناول الثعالبي في القسم الثاني عدداً من الموضوعات الخاصة ببناء الجملة العربية . ولكن المؤلفين متفقان على جعل فقه اللغة هو دراسة دلالات الألفاظ وتصنيفها في موضوعات . أما مصطلح « علم اللغة » فقد استخدم عند بعض اللغويين المتأخرين وكان المقصود منه دراسة الألفاظ مصنفة في موضوعات مع بحث دلالاتها . فالرشي الاسترأبادي يفرق بين علم اللغة وعلم التصريف ، موضوع الأول : دراسة الألفاظ ، والثاني : معرفة القوانين الخاصة ببنية هذه الألفاظ (١) . أما أبو حيان فقد ذكر مصطلح علم اللغة في عدة كتب له ، وموضوع علم اللغة عنده هو دراسة « مدلول مفردات الكلم » (٢) . ولا يختلف استخدام مصطلح علم اللغة عند ابن خلدون عن هذا المعنى ، فعلم اللغة عنده هو « بيان الموضوعات اللغوية » ، والمقصود بذلك الدلالات التي وضعت لها الألفاظ (٣) . وقد ذكر ابن خلدون في إطار كلامه عن علم اللغة الخليل بن أحمد وغيره من أصحاب المعاجم العربية . ويوضح كل هذا أن مصطلح علم اللغة كان يعني عند الرشي الاسترأبادي وأبي حيان وابن خلدون وغيرهم (٤) دراسة المفردات وتصنيفها في معاجم وكتب .

(١) شبرج الكافية (المقدمة) .

(٢) انظر الادراك للسان الاتراك ص ٦٦ ، البحر المحيط لأبي حيان ٥/١ - ٦ ،

أبو حيان النجوى لتحديجة الحديث ص ٢١٣ ، وكذلك ص ١٧٦ ، ١٨٣٨ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ١٢٥٨ .

(٤) قارن : المواهب الفتحية لمحة فتح الله ٢١/١ - ٢٢ ، ودراسات في علم

اللغة لسكال بشر ٤٧/٢ - ٤٨ .

وهناك اصطلاح آخر أطلقه بعض المؤلفين على دراسة دلالات المفردات اللغوية وهو اصطلاح « علم متن اللغة »^(١) . وقد حاول المرصفي^(٢) . وحزمة فتح الله استخدام هذا المصطلح بهذا المعنى : كما أطلق أحمد رضا أيضا على معجمه « متن اللغة » .

وهكذا استخدم المؤلفون العرب قبل العصر الحديث وتابعهم المؤلفون السلفيون في أوائل القرن العشرين بصفة خاصة مصطلحات اللغة وفقه اللغة وعلم اللغة ومتن اللغة في عناوين مؤلفاتهم أو وصفاً لجهود مؤلفي المعاجم وكتب المفردات اللغوية .

٣ - علم اللسان وعلوم الادب والعلوم العربية :

ترجع أول محاولة جادة^(٣) لترتيب علوم اللغة في نسق واحد إلى الفارابي، وقد أطلق الفارابي على كل العلوم اللغوية اسماً شاملاً لها هو « علم اللسان » . يتألف علم اللسان عنده من عدة مجالات . يقابل « علم الألفاظ المفردة » في تصنيف الفارابي علم الدلالة في التصنيف الحديث . ويتناول « قوانين الألفاظ عندما

(١) ذكر ابن يعقوب المغربي في شرح التلخيص ١/١٤٦ : « علم متن اللغة » أى معرفة أوضاع المفردات اللغوية ، ويسمى هذا العلم المتن ، لأنه هو ظهر الشيء . ووسطه وقوته وهذا العلم تعلق بذات اللفظ ومعناه ، وانظر كذلك : المواهب الفتحية ٢٠/١ - ٢٢ .

(٢) انظر الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية للشيخ حسين المرصفي (ط ٢ سنة ١٩٢٤) ج ١ ص ٢٠ .

(٣) ابن فارس (الصاحبي ص ١ - ٢) ميز بين « علم العرب أصلاً وفرعاً » ، وهو تمييز بين القضايا اللغوية من جانب . ومعرفة الألفاظ ودلالاتها من الجانب الآخر .

تكون مفردة وعندما تتركب ، البحث في الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة على التوالي . ولكن الفارابي أدخل في علم اللسان بعض الموضوعات التي لا تدخل في علم اللغة بالمعنى الحديث ، من ذلك « علم الالفاظ المركبة التي صنعها خطباؤهم وشعراؤهم ، أى دراسة الشعر والنثر ، ومن ذلك أيضا ، « قوانين تصحيح الكتابة وقوانين تصحيح القراءة وقوانين الاشعار » (١) . وهكذا ضم علم اللسان عند الفارابي علوم اللغة إلى جانب غيرها من العلوم والمهارات .

ويدل مصطلح « علوم الادب » عند ابن الانبارى على علوم اللغة : النحو واللغة والتصرف وعلم الجدل في النحو وعلم أصول النحو بالإضافة إلى العروض والقوافي وصناعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم (٢) . أى أن علوم الادب تشمل عند ابن الانبارى مجموعة العلوم اللغوية والأدبية وما يتعلق بها من معارف .

وكان ابن الانبارى أول من اعتبر « علم أصول النحو » أى مناهج البحث النحوى علماً قائماً بذاته ، وقد ألف فيه مختصراً حذو المؤلفين في علم أصول الفقه . يقول ابن الانبارى « أصول النحو هي أدلة النحو التي تفرعت عنها فروعها وفصولها كما أن معنى أصول الفقه أدلة الفقه التي تفرعت عنها جملته وتفصيله » .

والأديب عند ابن الانبارى وعند ياقوت الحموى هو المشتغل بهذه العلوم اللغوية والأدبية وما يرتبط بها من معارف . وبهذا المعنى ألف ابن الانبارى كتابه « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » ، وألف ياقوت الحموى « ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب » .

(١) انظر : احصاء العلوم للفارابي ، تحقيق ، عثمان أمين ١٩٤٨ ، ص ٤٧ - ٥٠ .

(٢) انظر : نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الانبارى ، تحقيق : عطية عامر . ص ٥٢ ، وانظر : لمع الأدلة في أصول النحو ، تحقيق عامر ، ص ٢٢٧ .

أما تصنيف السكاكي لعلوم اللغة فيقوم على أساس « مشارات الخطأ » ، فالخطأ اللغوي يمكن أن يكون في بنية الكلمة المفردة وهذا موضوع علم الصرف ، وقد يكون في تأليف المفردات داخل الجملة وهذا موضوع « علم النحو » ، وقد يكون في مطابقة العبارة للمعنى وهذا موضوع علمي « المعاني والبيان » . واعتبر السكاكي علوم الصرف والنحو والمعاني والبيان بالإضافة إلى علم اللغة مجموعة علوم متكاملة انتظمت عنده في لسق واحد^(١) .

وكان أبو حيان النحوي أول من أطلق مصطلح « علوم اللسان العربي » على علوم اللغة . وقد تابعه ابن خلدون في استخدام هذا المصطلح . تضم علوم اللسان العربي عند أبي حيان علم اللغة وعلم التصريف وعلم النحو ، يتناول علم اللغة ومدلول مفردات الكلم ، ويتناول علم التصريف وأحكام مفردات الكلم قبل التركيب . أما علم النحو فيتناول أحكام مفردات الكلم « حالة للتركيب » ، وبذلك كان دون غيرها من العلوم^(٢) .

ولا يقتصر مجال علوم اللسان العربي عند ابن خلدون على النحو واللغة بل ضم إليهما علم البيان وعلم الادب . وبذلك لم يفصل ابن خلدون بين علوم اللغة بمعناها المحدد والدراسة الأدبية^(٣) .

ويقوم تصنيف طاشكبري زاده للعلوم اللغوية وما يتعاق بها من دراسات على أساس التمييز بين ما يتناول « المفردات » من جانب وما يتناول « المركبات » من

(١) انظر : مفتاح العلوم للسكاكي (المؤلف سنة ٧١٦ هـ تقريباً) ص ٣ ،
والبلاغة عند السكاكي لاحد مطلوب ص ٦٥ .

(٢) انظر : الادراك للسان الاتراك ص ٦٦ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ١٢٥٤ ، وقد أطلق عليها ابن خلدون في موضع آخر
(ص ١٢٦٣) « العلوم اللسانية » .

الجانب الآخر (١) . ذكر طاشكبرى زاده أن دراسة المفردات تتناول مجالات خمساً ، أولاً : علم مخارج الحروف . ويعد هذا المصطلح أول تسمية محددة شاملة لما يطلق عليه في العصر الحديث « علم الأصوات » . فإذا كانت الدراسة الصوتية قديمة في التراث العربي فإن سبويه والخليل ومن جاء بعدهما لم يضموا إليها تسمية خاصة وشاملة إلى أن جاء طاشكبرى زاده وحاول في تصنيفه للعلوم أن يخص هذه الدراسة . فأطلق عليها علم مخارج الحروف ، وجعل هذا العلم أول مجالات البحث اللغوي ، . وهذا اتفق طاشكبرى زاده مع ما تعارف عليه اللغويون المحدثون بعده بقرون . يتناول علم مخارج الحروف « معرفة تصحيح مخارج الحروف » . كيفية وكيفية . وصفاتها العارضة لها بحسب ما يقتضيه طباع العرب ويستمد من العلم الطبيعي وعلم التشريح . . ويتضح من تحديد طاشكبرى زاده لمكان علم مخارج الحروف في أول مجالات البحث اللغوي إدراكه العميق لأهمية علم الأصوات ، بل « ويعد فهمه لمعلاقة البحث الصوتي بالعلم الطبيعي وبعلم التشريح سابقاً لعصره ولكتيرين عن جاءوا بعده .

والإلى جانب علم مخارج الحروف تضم دراسة المفردات عند طاشكبرى زاده : « علم اللغة » ويبحث « جواهر المفردات » وهيئاتها من حيث الوضع للدلالة على المعاني الجزئية ، « كما يضم « علم الوضع » ، ويبحث في « تفسير الوضع وتقسيمه إلى الشعمى والتوعى والعام والخاص » ، والمقصود بذلك دراسة الدلالات التي وضعت لها الألفاظ ، ويضم أيضاً « علم الاشتقاق » وموضوعه « كيفية خروج الكلم بعضها عن بعض » ، وآخر مجالات دراسة المفردات : « علم الصرف » (٢) . وعلى هذا تتناول دراسة المفردات عند طاشكبرى زاده ما يقابل علم الأصوات

(١) مفتاح السعادة ص ٩٩ .

(٢) مفتاح السعادة ص ١٠٠ .

وعلم بنية الكلمة وعلم الدلالة في مجالات علم اللغة الحديث . أما بنية الجملة فقد جعلها طاشكبرى زاده الموضوع الاول للبحث في المركبات ، وتضم دراسة المركبات عنده النحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي الخ^(١) . وبذلك ضم طاشكبرى زاده . هذه الدراسات الادبية مع علم النحو في إطار واحد .

ويتفق التهانوي في تصنيفه لما أطلق عليه « العلوم العربية » مع تصنيف هذه العلوم عند طاشكبرى زاده اتفاقا بعيدا ولكن التهانوي لم يخصص لعلم الاصوات قسما مستقلا كما فعل طاشكبرى زاده ، بل بدأ التهانوي حصره للعلوم العربية بعلم اللغة ، ثم جاء علم الصرف ، وعلم الاشتقاق ، وعلم النحو ، وعلم المعاني ، وعلم البيان ، وعلم العروض ، وعلم القافية الخ^(٢) . وقد ظل مصطلح « العلوم العربية » مستخدما عند أصحاب الثقافة السلفية في العالم العربي الحديث . فقد صنف الشيخ حسين المرصفي العلوم العربية إلى علم « متن اللغة » ، و « وفقه اللغة » ، و « علم الصرف » ، و « علم النحو » ، والفرق بين علم متن اللغة وفقه اللغة عند المرصفي أن الاول يبحث في « أوضاع الالفاظ لمعانيها » ، والثاني يبحث الالفاظ « باعتبار تخالفها في المعاني التي وضعت لها »^(٣) . أي أنه يعتبر علم متن اللغة هو معرفة المعاني الحقيقية الالفاظ وفقه اللغة هو دراسة الفروق في المعاني . .

وهكذا تنوعت التسميات التي أطلقت في مراحل تاريخية مختلفة على مجالات البحث في اللغة ، ولذا تعتبر هذه المصطلحات جزءا من تاريخ البحث اللغوي . وينبغي أن تترك هذه المصطلحات للحديث في تاريخ العلم على أن تكون المصطلحات الحديثة قائمة على أساس النظرية الحديثة لعلم اللغة .

(١) مفتاح السعادة ١٤٤ .

(٢) كشف اصطلاحات الفنون ١٨/١ - ١٩ .

(٣) الوسيلة الادبية إلى العلوم العربية ٢٠/١ .

الفصل الرابع

كتب طبقات النحويين واللغويين

هناك عدة مصادر عربية وغير عربية ترجمت للنحويين واللغويين وحدهم أو مع غيرهم من المشتغلين بالعلوم الأخرى . وتضم هذه الكتب أخبار النحويين واللغويين مع ذكر مسكوناتهم الثقافية ومؤلفاتهم في علوم اللغة وفي غيرها ، لذا تعد هذه المصادر مدخلا طبيعيا للتعرف على الحياة الثقافية والعلمية للمسلمين في التراث اللغوي العربي

١ - كتب الطبقات :

لقد اهتم النحاة ولما تمض مائة عام على وفاة سيبويه بتصنيف النحاة إلى طبقات على غرار تصنيف ابن سعد في كتابه « الطبقات الكبرى » لأعلام علمي الحديث والتفسير . ويبدو أن أول كتاب في هذا الموضوع هو كتاب « طبقات النحويين البصريين وأخبارهم » للمبرد (ت ٢٨٥ هـ) . لم يصل إلينا هذا الكتاب ، غير أننا نعرف على طبيعة مادته من النقول التي أخذها السيرافي عنه . كان السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) يورد في كتابه « أخبار النحويين البصريين » مادته بطريقتين متميزتين ، فهو يقدم لبعض أخباره بسلسلة إسناد تسبق كل خبر وتشير إلى أخذه له عن طريق الرواية الشفوية (١) ، ولكن السيرافي لا يقدم الأخبار التي أخذها

(١) مثال الاستاد :

« حدثنا أبو مزاحم موسى بن عبيد الله قال : حدثني عبد الله بن أبي سعيد الوراق ، =

عن المبرد بأية سلسلة إسناد ويكتفى بعبارة : « قال المبرد ، ^(١) وإذا كان السيرافي قد ولد سنة ٢٨٠ هـ ، ووفاته المبرد كانت ٣٨٥ هـ ، فلا بد أن أخذ السيرافي للمادة المنسوبة للمبرد إنما قام على أساس اعتماد السيرافي على كتاب المبرد المؤلف في نفس الموضوع .

وترجع أقدم كتب الطبقات الموجودة والتي ترجمت للنحويين والغويين إلى القرن الرابع الهجري . وبعد كتاب مراتب النحويين لآبي الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) أقدم كتاب وصل إلينا في الترجمة للنحويين ، وله أهميته أيضا لأن المؤلف لغوي عرف الكثيرين من ترجم لهم من المشتغلين بعلوم اللغة حتى ذلك الوقت . أما كتاب أبي سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) فقد وصل إلينا بعنوان « أخبار النحويين البصريين » . وقد اعتمد السيرافي في كتابه هذا على كتاب المبرد ، وأضاف إلى ذلك أخبارا كثيرة وصلت إليه مشافهة . موضوع كتاب السيرافي : « ذكر مشاهير النحويين وطرف من أخبارهم وذكر أخذ بعضهم عن

== قال : حدثني مسعود بن عمرو ، قال : حدثنا علي بن حميد الزراع ، قال سمعت حماد بن سلمة يقول : « من لحن في حديثي فقد كذب علي » (أخبار النحويين البصريين ٣٣ — ٣٤) .

(١) أمثلة الأخذ المباشر عن المبرد : قال أبو العباس : كان الاخفش أكبر سنا من سيبويه . . . (أخبار النحويين البصريين ٣٨) ذكر أبو العباس محمد ابن يزيد عن المازني عن الاخفش عن الكسائي قال . . . (أخبار النحويين البصريين ٤٠) قال أبو زيد سعيد بن فارس الانصارى صلية من الخروج (أخبار النحويين البصريين ٤١) . ذكر أبو العباس قال : حدثني أبو بكر القرشي . . . (أخبار النحويين البصريين ٤٢) وكذلك المواضع في ٤٤ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٥٤ ، ٥٥ .

بعض والسابق منهم إلى علم النحو^(١) . ذكر السيرافي النحاة البصريين فقط ، ولم يذكر شيئاً عن النحاة السكوفيين وكأنه لا يعترف بهم ولا يهتم بأخبارهم . لم يترجم السيرافي في كتابه لسلك النحويين البصريين حتى عصره ، بل قصر كلامه على نحاة البصرة حتى أبي العباس محمد بن يزيد المبرد وتلاميذه . وكأنه تخرج من الترجمة لمعاصريه فلم يترجم لهم . لم يهتم السيرافي إلا بذكر الأخبار الخاصة بهؤلاء النحاة في كتابه أخبار ، ولذا فهو لا يذكر عن مؤلفات هؤلاء النحاة أية معلومات ولا يشير إلى أسماء هذه المؤلفات إلا نادراً .

أما كتاب « طبقات النحويين واللغويين » لأبي بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) فهو كتاب أندلسي ، مؤلفه لغوي ونحوي من أهم من أجهبتهم الأندلس في علوم اللغة . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى كونه أندلسياً ، فالكتب التي ذكرناها — من قبل — كانت كلها من العراق ، وتقدم لنا صورة للحياة الثقافية والعلمية لنحاة المشرق ، ولكن كتاب الزبيدي اهتم إلى جانب ترجمته لنحاة المشرق بالترجمة أيضاً لعلماء المغرب والأندلس في النحو واللغة ، فأتى بمادة جديدة لها أهميتها في دراسة النحويين واللغويين المغاربة والأندلسيين^(٢) .

٢ - كتاب الفهرست :

ويعد كتاب « الفهرست » لابن النديم المؤلف سنة ٣٧٧ هـ المصدر الأول للتعرف على مؤلفات النحويين واللغويين حتى تاريخ تأليفه . وقد خصص ابن النديم « المقالة الثانية » أي الباب الثاني من كتابه لأخبار النحويين واللغويين وأسماء كتبهم . وقد اعتمد ابن النديم على المصادر التي أتاحت له حول أخبار النحويين واللغويين

(١) أخبار النحويين البصريين ص ١٠ .

(٢) أطلق الزبيدي على نحاة القيروان وما حولها « القرويين » .

مثل كتاب « أخبار النحويين البصريين » لأبي سعيد السيرافي ، ولكنه يتميز عن الكتب السابقة عليه بأنه يذكر المصنفات التي ألفها كل نحوي ولغوي حتى عصره . وهو بذلك أقدم وثيقة تضم أسماء الكتب العربية في علوم اللغة وفي غيرها . قسم ابن النديم هذه المقالة إلى قسم خاص بالبصريين وقسم آخر للكوفيين وقسم ثالث لمن خلط المذهبين ، وقد تابع ابن النديم حركة التأليف في النحو واللغة منذ بدايتها حتى عصره . وبذلك يختلف ابن النديم عن كثير من علماء عصره الذين كانوا يتجنبون الترجمة لمن عاصرهم ، فإن النديم يحترم الناهين من أبناء عصره وترجم لهم في حياتهم ، فقد ذكر ابن النديم في ترجمة الرماني النحوي أنه كان على قيد الحياة وقت تأليف الكتاب (١) .

٣ - كتب التراجم :

هناك مجموعة كثيرة من الكتب التي ترجمت للنحويين واللغويين وحدهم أو مع غيرهم من أصحاب العلوم ، ولكنها رتبهم ترتيباً مخالفاً لكتب الطبقات . كانت كتب الطبقات رتبهم ترتيباً زمنياً ، فكل طبقة تمثل مجموعة متعاصرة من العلماء . ولكن كتب التراجم لم تتبع هذا المنهج في الترتيب ، بل كانت ترتب الرجال وفق الأسماء الحقيقية لكل منهم ، فالمراد لا يذكر بهذا الاسم ، بل ينبغي البحث عنه تحت اسمه الحقيقي : محمد بن يزيد ، وسيمويه يذكر في هذه الكتب تحت اسمه الحقيقي : عمرو بن عثمان . وبغض النظر عن بعض السمات الخاصة ببعض هذه الكتب فإن أكثرها يرتب أسماء النحاة واللغويين الحقيقية ترتيباً هجائياً .

وصل إلينا من القرنين الخامس والسادس للهجرة كتابان هامين ترجما للنحاة واللغويين ، هما كتاب « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي (ت ٦٣٤ هـ) وكتاب

(١) الفهرست لابن النديم (فلوجل) ص ٦٣ :

« أبو الحسن ... الرماني ... ويحيا إلى الوقت الذي بيض هذا الكتاب فيه » .

« نزعة الألباء في طبقات الأدباء » ، لابن الأنباري (ت ٥٧٧ هـ) . ليس كتاب « تاريخ بغداد » من كتب التاريخ العام بل هو كتاب في تاريخ الرجال الذين كانت لهم ببغداد صلة مولد أو دراسة أو إقامة ^(١) ، ولذا يضم الكتاب تراجم لعدد كبير من أعلام الحضارة الإسلامية حتى عصره فما أكثر من كانت لهم صلة ببغداد حتى القرن الخامس الهجري . ويلاحظ في ترجمة الخطيب البغدادي للنحويين واللغويين أنه اعتمد على مصادر شفهية بجانب أخذه عن المؤلفات السابقة عليه في هذا المجال . وقد اهتم في المقام الأول بذكر الأخبار الخاصة بكل نحوي أو لغوي أتى بترجمته ، وقد جاءت هذه الأخبار مزودة بأسانيدھا المفصلة . ولكن الخطيب البغدادي لم يهتم بنفس الدرجة بذكر المؤلفات النحوية واللغوية ، فكتابه في الأخبار وليس في حصر المؤلفات وتصنيفها . ومن هذا الجانب يختلف كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي عن كتاب الفهرست لابن النديم .

(١) يقول الخطيب البغدادي : بدأنا بذكر الصحابة مفردا عن سواهم ، أما التابعون ومن بعدهم فأننا سنورد أسماءهم في جملة البغداديين عند وصولنا إلى ذكر كل واحد منهم إن شاء الله تعالى . وهذه تسمية الخلفاء والكبراء والقضاة والفقهاء والمحدثين والقراء والزهاد والصلحاء والمتأدبين والشعراء من أهل مدينة السلام الذين ولدوا بها أو بسواها من البلدان ونزلوها ، وذكر من انتقل عنها ومات ببلدة غيرها ، ومن كان بالنواحي القريبة منها ومن قدمها من غير أهلها . . . ألقته أبوابا مرتبة على نسق حروف المعجم من أوائل أسمائهم ، وبدأت منهم بذكر من اسمه محمد تبركا ولم أذكر من محدثي الغرباء الذين قدموا مدينة السلام ولم يستوطنوها ، سوى من صح عندي أنه روى العلم بها . . . غير نفر يسير عددهم عظيم عمد أهل العلم بحلم ثبت عندي ورودهم مدينتنا ولم أتحقق تحديدهم بها ، فرأيت أن لا أخلى كتابي من ذكرهم لرفعة أخطارهم وعلو أقدارهم ، تاريخ بغداد

٢١٢/١ - ٢١٣

أما كتاب نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، لابن الأنباري فهو كتاب موجز
لخص المادة التي وجدها في الكتب السابقة عليه مثل الفهرست لابن النديم وتاريخ
بغداد . ولكن ابن الأنباري حذف كثيراً من أساليب الأخبار التي وجدها في
تاريخ بغداد .

ولا يكاد كتاب نزهة الألباء يقدم مادة جديدة بخصوص النحويين واللغويين
الذين جاءت ترجمتهم في المصادر التي ألفت قبل ابن الأنباري . ولكنه أضاف
بمجموعة تراجم للغويين ونحويين ترد ترجماتهم لأول مرة في كتابه ، وله أهميته من
هذا الجانب .

وهناك ثلاثة كتب من القرن السابع الهجري تضمنت تراجم للنحويين واللغويين
وهي « إنباء الرواة للقفطي » (ت ٥٦٣٤) و « إرشاد الأريب ، لياقوت » (ت ٥٦٣٦)
و « وفيات الأعيان ، لابن خلكان » (ت ٦٨١) .

تناول القفطي وهو مؤلف مصري في كتابه « إنباء الرواة على أنباء النحاة ،
اللغويين والنحويين وحدهم . ولا يقتصر كتابه على ذكر النحويين واللغويين
المصريين بل هو كتاب شامل لعلماء اللغة والنحو ومن ألفت في علوم اللغة أو درس
علوم اللغة في « أرض الحجاز واليمن والبحرين وعمان واليامة والعراق وأرض
فارس والجبال وخراسان . . . والشام والساحل ومصر . . . وإفريقية ووسط
المغرب وأقصاء وجزيرة الأندلس وجزيرة صقلية »^(١) . . . ينقسم كتاب « إنباء
الرواة » بالشمول والاحاطة ، فقد ترجم للمشتغلين بعلوم اللغة في كل أنحاء الدول
الإسلامية حتى عصره ، إلا أنه لا يكاد يأتي بمجديد حول النحويين الذين ترجم
لهم مؤلفو القرن الرابع . مثل السيرافي وابن النديم ، وأهميته ترجع إلى ترجمته
للنحاة الذين جاءوا بعد ذلك .

(١) إنباء الرواة ٢/١ .

ويضم كتاب «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» لياقوت الحموي تراجم كثيرة للمشتغلين بالعلوم المختلفة حتى عصره ، فالأديب عنده هو المشتغل بالعلوم أيضا ، ولنا عرف كتابه باسم «معجم الأديباء» (١) . خصص ياقوت تراجم مستفيضة للنحويين واللغويين ، واستقى مادته من كتب الطبقات السابقة عليه ومن كتاب «الفهرست» لابن النديم ، كما أضاف إلى ذلك مادة كثيرة أخذها من كتب أخرى ، فقد اعتمد في ترجمته لأبي سعيد السيرافي ، الحسن بن عبد الله ، علي كتب الطبقات وكتاب «الفهرست» ، واقتبس نصوصا كثيرة حول السيرافي من كتب تلميذه أبي حيان التوحيدي مثل كتاب «محاضرات العلماء» وكتاب «مثالب الوزراء» ، وكتاب «الامتناع والموانسة» ، وأيضا من كتاب «تقريظ الجاحظ» ، وقد ضاع الكتاب الأخير ولم يعد له أثر إلا ما نقل عنه ياقوت الحموي وغيره (٢) ويعد ياقوت في كتابه «إرشاد الأريب» من أكثر العلماء العرب دقة في استخدام المصادر ، يظهر هذا في عبارات كثيرة له تحفظ فيها تجاه النصوص التي ذكرها .

فقد علق على خبر ذكره بقوله : «أو كما قال أبو حيان فإنني لم أنقل ألفاظ

(١) «إرشاد الأريب» (ط: فريد رفاعي القاهرة) ويتناول هذا الكتاب :
 . . . من عرف بالتصنيف واشتهر بالتأليف وصحت روايته وشاعته . درايته وقل
 شعره وكثر نثره . ٥٠/١٠٠ .

(٢) انظر ترجمة أبي سعيد السيرافي (الحسن بن عبد الله ٣٦٨) في
 «إرشاد الأريب» ١٤٥/٧ - ٢٢٣ ، وقد أشار ياقوت كثيرا إلى مصادره : «وقرات
 بخط أبي حيان التوحيدي في كتابه الذي ألفه في تقريظ عمرو بن بحر ١٥٠/٨
 (مفقود)» وقال أبو حيان في كتاب «محاضرات العلماء» (١٥٢/٨) ، «قال في
 كتاب الامتناع ... ١٧٨/٨ . . . ونص مناظرة أبي سعيد السيرافي مع متى بن يونس
 (١٩٠/٨ - ٢٢٣) مأخوذ عن الامتناع والموانسة .

الخبر أقدم الأصل الذي قرأت منه ،^(١) وكان ياقوت يقارن عدة نسخ من الكتاب الواحد ليصل إلى حقيقة ما عناء مؤلفه دون تصحيح الوراقين والكتاب ، نجد هذا واضحاً في تعليقاته على بعض العبارات مثل : وكانت النسخة غير مرضية فتكتبها إلى أن يقع لي ما أرتضيه ، وأكثر النسخ . . . لا توجد هذه الرقعة فيها ،^(٢) .

فياقوت كان يتحرى الدقة في النقل عن مصادره ويقارن النسخ بعضها ببعض تحقيقاً لمبدأ الأمانة العلمية في صحة النقل . ولذا يعد كتاب « إرشاد الأريب » ، — على الرغم من تأخره زمنياً — من أهم الكتب التي ترجمت للنحويين واللغويين وغيرهم .

وقد اتبع ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » الترتيب الهجائي للأعلام المترجم لهم . اعتمد ابن خلكان على الكتب السابقة عليه ، وأضاف إليها ما أخذه « من أفواه الأئمة المتقدمين » . وما إن فكر المؤلف في تحرير كتابه في صيفته الأخيرة سنة ٨٦٤ حتى وجد أن ترتيب أسماء الأعلام ترتيباً هجائياً أفضل من ترتيبهم وفق المعيار الزمني . ويفيد كتاب وفيات الأعيان في الترجمة للعلماء الذين لا نجد لهم تراجم في الكتب السابقة عليه ، ولكنه في كثير من التراجم لا يكاد يضيف إلى مصادره المعروفة لنا شيئاً .

ويعد كتاب « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطي (ت ٩١١هـ) أحد الكتب الموسوعية التي ظهرت في مصر قبيل الفتح العثماني . ألف السيوطي في كل فروع المعرفة التي اعترف بها عصره ، وهو فيها جميعاً ناقل جامع لا يضيف إلى العلم جديداً ، تتركز قيمة كتبه في احتفاظها بنقول أخذها السيوطي

(١) إرشاد ١٤٧/٧ .

(٢) إرشاد الأريب ٢٦٠/٧ .

من مصادر لم تعد متاحة للباحث الحديث . اعتمد السيوطى فى « بغية الوعاة » على كتب الطبقات السابقة عليه ، وأفاد أيضاً من معرفته الواسعة بالتراث العربى الأندلسى ، ففصل القول فى ذكر النحويين والمفكرين الأندلسيين ، وله أهميته من هذا الجانب . ويفيد كتاب « بغية الوعاة » فى معرفة أعلام النحو واللغة حتى عصره ، وتسم تراجم النحاة والمفكرين عند السيوطى بالتركيز على ثقافة النحوى ومؤلفاته . وقد لاحظ السيوطى صعوبة البحث عن النحوى تحت اسمه الحقيقى ، فأعد فى آخر كتابه ثبناً بالنحويين والمفكرين وفق ألقابهم وكنائهم ، وبذلك يستطيع الباحث إذا عرف لقب النحوى أو كنيته أو اسمه الذى اشتهر به أن ينظر فى هذا الثبوت ليجد الاسم الحقيقى للنحوى أو المفكر^(١) .

٤ - المراجع العامة الحديثة فى التراث :

خصص المستشرق الألمانى كارل بروكلمان C. Brokelmann عدة
فصول للمشتغلين بعلوم اللغة فى كتابه عن التراث العربى^(٢) Geschichte

(١) يتناول الباب الاخير من بغية الوعاة الكنى واللقاب والنسب والاضافات وهو باب مهم تشتهر إليه الحاجة يذكر فيه من اشتهر بشئ من ذلك لينظر اسمه ويسهل الكشف عليه من بابه ، ٣٦٧/٢ - ٣٩٥ .

(٢) ترجع كلمة Litteratur فى الألمانية إلى الكلمة اللاتينية Litteratura وتعنى الكتابة بالحروف والكليات عموماً . وتستخدم الكلمة الألمانية بمعنى التراث المدون فى كل فروع المعرفة ، وهنا المعنى استخدم بروكلمان الكلمة عنواناً لكتابه الذى لا يتناول الادب الفنى فحسب ، بل يضم أيضاً كل فروع المعرفة العربية ، ومنها : علوم اللغة . ولذا فكتاب بروكلمان ليس فى « تاريخ الادب العربى » ، بل فى تاريخ التراث العربى .

der arabischen Litteratur . وقد اهتم بروكلمان ببيان المسهمين في التأليف اللغوي العربي واحداً واحداً ، وقد رتبهم ترتيباً زمنياً ثم مكانياً . وترجع أهمية كتابه إلى اهتمامه بذكر الكتب التي ألفها كل واحد منهم ، وبين أماكن وجود مخطوطاتها وأرقام هذه المخطوطات ، وذكر طبعتها إن كانت قد طبعت . وقد ظل كتاب بروكلمان أفضل دليل مصنف بالمخطوطات العربية عدة سنوات .

ثم اتضح القصور في عمل العالم الكبير ، ولم يعد الكتاب شاملاً للتراث العربي المخطوط . فقد ظهرت آلاف المخطوطات التي لم تكن معروفة لبروكلمان وصنفت مجموعات كاملة لم يكن أحد قد سمع بها قبل اكتشافها . وهنا شرع عالم تركي هو فؤاد سزكين في إكمال كتاب بروكلمان ، لكن عمله تجاوز حدود الإكمال والتذييل فأصبح عملاً مستقلاً متكاملًا . وقد أطلق سزكين على كتابه في الأصل الألماني اسم *Geschichte des arabischen Schrifttums* أي : تاريخ التراث العربي^(١) . ويمتاز هذا العمل الكبير عن كتاب بروكلمان بميزات أساسية ، فقد عرف سزكين مخطوطات أكثر ، وعرف عن المخطوطات التي عرفها بروكلمان معلومات أكثر . يمتاز كتاب سزكين عن كتاب بروكلمان بأنه يذكر عند كل مخطوط معلومات هامة عن حالته وعدد أوراقه وتاريخ نسخه . وهو بهذا أفضل عمل ببليوجرافي حديث للتراث العربي .

وينبغي عند دراسة النحويين واللغويين والأخبار الواردة عنهم وعند التعرف على صحة نسبة مؤلفاتهم لهم أن يراعى الباحث الترتيب التاريخي المذكور لكتب

(١) يضم كتاب سزكين في الجزء الأول قائمة تسكاد تكون كاملة بمكتبات المخطوطات العربية في العالم وبمفهرسها . ويتناول الجزء الرابع والجزء الخامس من الترجمة العربية التراث اللغوي العربي ، صدر الجزء الرابع من تاريخ التراث العربي في ١٩٧٤ .

الطبقات والتراجم. فقد أثبتت الدراسة المقارنة لهذه الكتب أن اللاحق منها ينقل عن السابق نقلا ولا يضيف جديدا ، والكتب المتأخرة لا تعنى بالأسانيد مما يجعل من الصعب دراسة مصدر النص ورواته. وإذا افترضنا صحة النقل في أكثر الكتب المتأخرة فلا جدوى من استخدامها إذا كانت المصادر الأقدم متاحة للباحث الحديث . والواجب العلمي يقتضى أن نستخدم أقدم المصادر ، فلا فائدة من النقل عن نقل عن المصدر الأصلي .

الفصل الخامس

المكتبة النحوية

ذكر السيرافي في « أخبار النحويين البصريين » قصة كتابين نسبهما البعض لعيسى ابن عمر (ت ١٤٩ هـ) ، وهما كتاب « الجامع والمكمل » . ثم قال السيرافي بعد ذلك : وهذان الكتابان ما وقعا إلينا ولا رأيت أحدا يذكر أنه رآهما (١) . وأكد ابن النديم هذا بقوله : « وقد فقد الناس هذين الكتابين منذ المدة الطويلة ولم تقع إلى أحد عليهما » ، ولا خبرنا أحد أنه رآهما (٢) .

فاذا افترضنا صحة ما نسب إلى عيسى بن عمر فإن البحث العلمي لا يستطيع القول بشيء في كتابين لم يبق منهما أثر . . . وقد اهتم مؤلفو كتب الطبقات بقصة وضع النحو وحاول ابن النديم بحث هذه القصة ، قال : « ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته ، وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ، ترجمتها هذه : فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود . . . ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فما سمعنا له خبرا » (٣) . والمقصود بذلك الرجل أحد أصحاب غزائن الكتبة ولا يستطيع الباحث أن يخرج بشيء من هذا الخبر عن جهود أبي الأسود الدؤلي في النحو إن كانت له فيه جهود على الإطلاق .

(١) انظر : أخبار النحويين البصريين ص ٢٥ .

(٢) الفهرست لابن النديم (ط فلوجل) ص ٤٢ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٤١ .

١ - كتاب سيبويه والنحاة البصريون :

بعد د الكتاب ، أو د كتاب سيبويه ، أقدم ما وصل إلينا في النحو العربي. يضم كتاب سيبويه إلى جانب آراء مؤلفه أبي بشر ، عمرو بن عثمان - جهود نحويين آخرين تقدموا سيبويه ، وعرف آراءهم فذكرها في كتابه وهؤلاء النحويون هم :

- ١ - عبد الله بن اسحق الحضرمي (ت ١١٧ هـ)
- ٢ - عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ)
- ٣ - أبو عمرو بن الملاء (ت ١٥٤ هـ)
- ٤ - الخليل بن أحمد (ت ١٧٤ هـ)
- ٥ - يونس بن حبيب (ت ١٨٣ هـ)

وأقدم هؤلاء النحاة عبد الله بن اسحق الحضرمي الذي عده ابن سلام صاحب د طبقات الشعراء ، أول من بعج النحو ، ومد القياس ، وشرح المال^(١) . ولا شك أن أهم هؤلاء الخليل بن أحمد ، أستاذ سيبويه وأكثرهم تأثيراً في فكره العلمي .

وقد حدد كتاب سيبويه لأجيال النحويين على مدى القرون معالم البحث النحوي ومنهج معالجة قضايا النحو ، وظل فكرهم في إطاره بغض النظر عن اختلافات جزئية بسيطة قامت عليها المدارس النحوية . وقد كان كتاب سيبويه منذ تأليفه في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري أساس دراسة النحو في كل أنحاء العالم الاسلامي ، قال السيرافي د وكان كتاب سيبويه ، لشهرته وفضله ، علماً عند النحويين ، فكان يقال بالبصرة : قرأ فلان الكتاب ، فيعلم أنه كتاب سيبويه ، وقرأ نصف الكتاب ؛ ولا يشك أنه كتاب سيبويه^(٢) . والمتتبع لتاريخ النحويين

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

وقارن أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٢٠

(٢) طبقات النحويين للسيرافي ص ٣٩ .

العرب يلاحظ أن الكتاب كان عمدة الدراسة النحوية حتى القرن الثامن الهجري ،
وكان طلاب العلم يقرأون كتاب سيبويه على نحويين تخصصوا فيه ، وعرفوا باجادتهم
له وحسن تدريسهم له .

كان الاخفش سعيد بن مسعدة (ت ٣٢١ هـ) أول من قام بتدريس كتاب
سيبويه ، يقول السيرافي : « الطريق إلى كتاب سيبويه الاخفش ، وذلك أن كتاب
سيبويه لا نعلم أحداً قرأه على سيبويه ، ولا قرأه عليه سيبويه ، ولكن لما مات
قرأ الكتاب عل أبي الحسن الاخفش ، وكان ممن قرأه : أبو عمر الجرمي صالح
ابن اسحق ، وأبو عثمان المازني بكر بن محمد ، وغيرهما (١) . وبذلك كان تلاميذ
الاخفش أول مجموعة من النحاة تتلذذت على كتاب سيبويه ، وكان لكل واحد منهم
اهتمام خاص بالكتاب . اهتم أبو عمر الجرمي (ت ٢٢٥ هـ) بدراسة الابنية
الصرفية التي وردت في كتاب سيبويه وصنف في ذلك كتباً كثيرة لا نعرف إلا
أسماءها ، كما ألف أيضاً في « تفسير غريب سيبويه » ، وكتاباً آخر بعنوان « الفرخ
أي : فرخ كتاب سيبويه » لم يبق أي كتاب من كتب الجرمي ، ولكنها كانت من
أهم المصادر التي اعتمدت عليها شروح سيبويه للنالية . أما أبو اسحق الزياتي
(ت ٢٤٩ هـ) فهو أول من ألف كتاباً بعنوان « شرح كتاب سيبويه » ، ولم يبق
من هذا الكتاب إلا بعض النقول في الكتب التي نقلت عنه .

ويعد كتاب « التصريف المازني » الكتاب الثاني الذي وصل إلينا في النحو العربي
بعد كتاب سيبويه . لقد تتلذذ أبو عثمان المازني (ت ٢٤٨ هـ) على الاخفش ، وقرأ
عليه كتاب سيبويه ، واهتم أيضاً بالابنية الصرفية كما فعل زميله الجرمي . وقد وصل
كتاب « التصريف » المازني مشروحاً بقلم أبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)
وكتاب التصريف أقدم كتاب مستقل وصل إلينا حول الابنية الصرفية .

(١) طبقات النحويين للسيرافي ص ٣٩ .

يتفق مؤلفو كتب الطبقات على أن أبا العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ) أهم نخاة المدرسة البصرية في القرن الثالث الهجرى . لقد ألف المبرد مجموعة كبيرة من الكتب اللغوية بالمعنى الشامل ، ولكن أهمها هو كتاب «المقتضب» ، وهو كتاب شامل يضم كل الجوانب النحوية والصرفية والقسوتية التى تناولها كتاب سيبويه وهذا الكتاب هو الكتاب الثانى بعد كتاب سيبويه فى تناوله لكل هذه الجوانب . وهناك قضايا نحوية ولغوية كثيرة تناولها المبرد فى كتبه الأخرى . وخصوصا فى كتابه «الكامل» . وفضلا عن الكتب التى وصلت إلينا للمبرد فله كتاب آخر مفقود ذكرته كتب الطبقات والتراجم باسم «الرد على سيبويه» . ويعنى تأليف المبرد لكتاب بهذا العنوان عدم اتفاهه - وهو البصرى - مع كبير نخاة البصرة سيبويه . أى أن وحدة المدرسة البصرية أمر نسبي . وقد أدى اختلاف وجهات نظر المبرد عن سيبويه فى بعض المسائل إلى ظهور كتاب فى الدفاع عن سيبويه والرد على المبرد . وهو كتاب «الانتصار لسيبويه من المبرد» للنحوى المصرى ابن ولاد (ت ٣٣٢هـ) (١) .

وقد درس على المبرد عدد كبير من النحويين المبرزين الذين كان لهم أثر كبير فى حل التراث النحوى ودراسته والتعليق عليه . وأهم تلاميذ المبرد أبو بكر بن السراج (ت ٣١٦هـ) وأبو اسحق الزجاج (ت ٣١١هـ) وابن درستويه (ت بعد ٣٣٠هـ) .

٢ - النخاة الكوفيون فى القرنين الثانى والثالث :

هناك أسماء كثيرة تذكرها كتب الطبقات وكتاب الفهرست لنحويين ولغويين كوفيين ، وقد خصص لهم ابن النديم فصلا مستقلا يحتوى على «أخبار النحويين

(١) كتاب الانتصار لسيبويه من المبرد لابن ولاد ، يوجد مخطوطا فى : دار الكتب بالقاهرة ، مخطوط ٧٠٥ نحو تيمور .

واللغويين الكوفيين ، . ويعد الكسائي والفراء وتعلب أكثر أسماء الكوفيين شيوعا في كتب النحو العربي . لم يصل إلينا أى كتاب كامل يوضح منهج الكوفيين في التحليل النحوي (١) ، فلا نعرف لهم كتابا يضارع « كتاب سيبويه » أو : كتاب « المقتضب » للمبرد ، ولكن نتعرف على آرائهم اللغوية من كتبهم التي ضمت موضوعات مختلفة من بينها قضايا النحو واللغة .

فالكسائي (ت ١٤٧) نحوي كوفي مشهور عاصر سيبويه ، وكانت بينهما اختلافات ومشاحنات ، لم يبق من مؤلفات الكسائي إلا رسالة صغيرة في « الحن العامة » ، وقد ضاعت باقي كتبه ولا نستطيع التعرف على آرائه إلا من خلال الكتب النحوية التي نقلت هذه الآراء وحفظتها بذلك من الضياع .

وقد ذكر ابن النديم للفراء (ت ٢٠٧ هـ) كتب كثيرة في علوم اللغة منها كتاب « الحدود » في النحو ، وقد ضاع هذا الكتاب ، ولم يبق منه إلا فهرس موضوعاته ، فقد نقله ابن النديم في كتاب الفهرست (٢) . وأهم مصدر نتعرف منه على آراء الفراء النحوية واللغوية هو كتابه « معاني القرآن » ، وهو أهم كتبه التي وصلت إلينا . وليس كتاب معاني القرآن في التفسير بالمعنى المباشر ، بل هو كتاب في اللغة اتخذ القرآن الكريم موضوعا له . وقد وصلت إلينا ثلاثة كتب أخرى للفراء تناولت موضوعات لغوية ، وهي « المذكر والمؤنث » ، و « المنقوص والممدود » ، و « الأيام والليالي والشهور » .

(١) كتاب الموفى في النحو الكوفي تأليف صدر الدين الكنفراوى الاستاذ بربلى ليس من تأليف أحد نخاة الكوفيين المعروفين ، بل هو بحث على لنحوى متأخر حول مذهب الكوفيين في النحو . وقد طبع ضمن مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق .

(٢) نقل ابن النديم فهرست كتاب « أسماء الحدود » في الفهرست ص ٦٧ .

وثالث النحويين الكوفيين المبرزين هو ثعلب (ت ٢٩١ هـ) ، وكثيرا ما كان أبو العباس ثعلب بين معاصريه موضع مقارنة مع أبي العباس المبرد . كان المبرد كبير نخاعة البصرة بينما كان ثعلب أكبر نحوى كوفى فى نفس الفترة . وقد وصلت إلينا عدة كتب لثعلب ، أهمها كتاب الفصيح ، وهو كتاب فى المفردات ، ولكن آراءه النحوية واللغوية موجودة أيضا فى كتاب « مجالس ثعلب » .

وهناك علماء كثيرون تذكروهم كتب الطبقات ، وكان جهدهم فى علوم اللغة مقصورا على جمع المفردات ، وتحديد أبنيتها الصرفية ، وتصنيفها ، وتدوين الملاحظات عليها . ومن هؤلاء أبو عمرو الشيبانى صاحب « كتاب الجيم » وهو معجم لغوى ، وأبو عبيد القاسم بن سلام مؤلف « الغريب المصنف » وهو كتاب فى المفردات ، وابن السكيت مؤلف « إصلاح المنطق » وهو كتاب فى التثقيف اللغوى . وكل هذا يشير إلى أن جهد العلماء الكوفيين كاد ينصرف إلى بحث المفردات وتصنيفها ، ولم يكن اهتمامهم ببنية اللغة إلا اهتماما ثانويا لا يرقى إلى مستوى المدرسة البصرية . ولذا فقد سادت آراء البصريين فى النحو العربى وحدها دون غيرها فى القرون التالية ، وأصبح المنهج النحوى وتعليم النحو يقوم - فى المقام الأول - على آراء البصريين .

٣ - نخاعة القرن الرابع :

عرف القرن الرابع مجموعة من النخاعة أكثرهم فى بغداد ، وأهمهم ابن السراج (ت ٣١٦ هـ) والزجاج (ت ٣١١ هـ) وابن درستويه (توفى بعد ٣٣٠ هـ) ، وأبو سعيد السيرافى (ت ٣٦٨ هـ) وأبو على الفارسى (ت ٣٧٧ هـ) والرمانى (ت ٣٨٥ هـ) وابن جنى (ت ٣٩١ هـ) . وقد وصلت إلينا كتب كثيرة من مؤلفات هؤلاء النخاعة .

اهتم ابن السراج (ت ٣١٦ هـ) بكتاب سيبويه اهتماما كبيرا ، فقد كان يقوم

بتدريس كتاب سيويه ، وقد لاحظ ابن السراج تعدد نسخ كتاب سيويه فقارن النسخ المتداولة في عصره ، وأثبت مجموعة من الفروق والاختلافات بين هذه النسخ . كان كتاب سيويه حتى ذلك الوقت أساس تدريس النحو ، ولذا كثرت نسخه وكثرت معها التصحيقات والاختلافات ، وأحسن ابن السراج الذي ولد بعد وفاة سيويه بأقل من مائة عام بضرورة المقابلة بين نسخ الكتاب المختلفة للتوصل إلى النص الصحيح ، فقام بذلك ، وسجل ملاحظاته حول اختلاف نسخ كتاب سيويه في كتاب « أصول النحو » (١) . ويعد كتاب أصول النحو لابن السراج الكتاب النحوي الثالث بعد كتاب سيويه والمقتضب للمبرد . فإذا كان ابن السراج هو صاحب أول محاولة لتحقيق كتاب سيويه فهو إلى جانب هذا مؤلف : أصول النحو .

وقد وصل إلينا من كتب أبي اسحق الزجاج (ت ٣١١ هـ) أكثر من كتاب ، وأهم مؤلفاته التي بقيت لنا كتاب « سر النحو » . ويتناول هذا الكتاب موضوع الممنوع من الصرف . وقد اتضح من مقارنة هذا الكتاب أنه ألف تيسيراً لفهم كتاب سيويه ، وكان الزجاج أراد أن يشرح كتاب سيويه فألف كتابه « سر النحو » . يدل على ذلك أن ترتيب موضوعات « سر النحو » هو نفس ترتيب أبواب كتاب سيويه في موضوع الممنوع من الصرف ، فالترتيب الداخلي واحد في الكتابين .

وفي منتصف القرن الرابع الهجري عرفت بغداد ثلاث شخصيات مرموقة

(١) وصل إلينا كتاب أصول النحو لابن السراج - بعد أن كان في حكم المفقود - في عدة قطع متكاملة ، وجدت في المتحف البريطاني والمغرب وتركيا . وهناك مواضع كثيرة ، نقل بعضها السيرافي في شرحه لكتاب سيويه ، تشهد بمجهود ابن السراج في تحقيق نص كتاب سيويه .

من اللغويين والنحويين . لقد عرف أبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) بشرحه الكبير لكتاب سيبويه ، كما اشتهر الرماني (ت ٣٨٥ هـ) بشرحه لكتاب سيبويه أيضا . يتفق السيرافي والرماني في إعجابهما بسيبويه والتزامهما بمنهج نحاة البصرة . ولكن شرحيهما يختلفان ، فقد ذكر السيرافي كثيرا من الشواهد والآراء النحوية وعرض في كتابه لمعارفه النحوية واللغوية العميقة . أما شرح الرماني فلا يمسك أى اهتمام بالشواهد أو بآراء النحاة الذين عاشوا بعد سيبويه وكأنه اكتفى بشرح مضمون كتاب سيبويه بطريقة منطقية . ويمتاز شرح السيرافي باهتمامه بموضوعات لم تنل عند معاصريه نفس الاهتمام ، فقد خصص السيرافي في آخر شرحه لسيبويه بابا خاصا لآراء الكوفيين في الدراسات الصوتية ، وهذا الباب هو مصدرنا الوحيد لتعرف على آراء الكوفيين في الأصوات . أما ثالث الثلاثة فهو أبو هلى الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) وقد وصلت إلينا كتب كثيرة له منها : المسائل الشيرازيات ، إلى جانب كتابه في علم القراءات .

لقد تلمذ أبو الفتح عثمان بن جنى (ت ٣٩٢ هـ) على هؤلاء النحاة الاعلام ، فأصبح أهم نحاة بغداد في عصره . ألف ابن جنى كتباً كثيرة في علوم اللغة منها كتاب : الخصائص ، الذى يضم حشدا من القضايا الصرفية والدلالية والنحوية . وكتاب : سر صناعة الإعراب ، لابن جنى ليس في الإعراب النحوى ، بل هو أول كتاب عربى مستقل في الدراسات الصوتية ، فالإعراب عنده الإبانة نطقا .

بدأت علوم اللغة في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجرى امتدادا لجهود علماء بغداد . لقد درس ابن ولاد (ت ٣٣٢ هـ) ، وأبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) النحو في بغداد على الزجاج . وأسس علم النحو في مصر ، فابن ولاد أول نحوى مصرى ، وقد وصلت إلينا بعض كتبه ، مثل : المقصور والممدود ، و : الاتصار

لسيبويه من المبرد ، أما أبو جعفر النحاس فقد اهتم بالقراءات وبكتاب سيبويه وألف فيها .

وبدأت علوم اللغة في الأندلس تأخذ شكلها الواضح بهجرة أبي علي القالي (ت ٣٥٦ هـ) بعد أن درس علوم اللغة في بغداد . وبذلك نقل أبو علي القالي دراسة كتاب سيبويه وتدرّس اللغة والأدب إلى الأندلس ، وبه بدأت المدرسة الأندلسية في علوم اللغة .

٤ - الكتب النحوية التعليمية والمنظومات .

عرف القرن الرابع الهجري انجاءاً جديداً لتأليف كتب تعليمية في النحو . وأول كتاب في هذه المجموعة هو كتاب د الجمل ، للزجاجي (ت ٣٣٧ هـ) وقد ضم الزجاجي في كتابه د الجمل ، كل أبواب النحو والصرف بأسلوب سهل موجز . وألف ابن السراج (ت ٣١٦ هـ) كتاباً تعليمياً بعنوان د الموجز في النحو .

ثم ألف أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) كتابين تعليميين هما د الإيضاح ، في النحو ود التكملة ، في الصرف ، وألف ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) كتاباً تعليمياً هو اللمع . وتختلف هذه الكتب مجتمعة عن الكتب النحوية السابقة عليها ، فالكتب التعليمية كتب موجزة واضحة الشواهد شاملة لسلك الأبواب في عرض سهل وعبرة واضحة . ولذا دارت حولها دروس تعليم النحو عدة قرون ، فكثرت شروحها بتعدد مدرّسي هذه الكتب ، وقد اهتم الأندلسيون بكتاب الجمل للزجاجي ، فألفوا عليه أكثر من عشرين شرحاً .

وزادت الكتب النحوية التعليمية في القرن الخامس الهجري والقرون التالية زيادة ملحوظة . وظهرت محاولات أخرى لوضع منظومات تعليمية تلخص النحو في منظومة أعدت لكي يحفظها التلاميذ . وأشهر هذه المحاولات ألفية ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) . حاول ابن مالك أن ينظم كل قواعد النحو نظماً ، لتكون في

قصيدة ألفية يسهل حفظها . يتركز جهد ابن مالك في الصياغة وترجيح رأى نحوى على آخر ، فلقد كان ابن مالك وأبناء عصره أبعد الناس عن ملاحظة التغير اللغوى وتسجيل مادة جديدة أو النظر إلى المادة القديمة بمنهج جديد . لقد اعجب معاصروه كما اعجبت القرون التالية ببراعة ابن مالك في صياغة ألفيته التى فاقت غيرها من الألفيات ، فاهتم مدرسو النحو بشرحها ، وبتمليق الحواشى على شروحها . واستمرت حركة تأليف الشروح على الألفية دون انقطاع أكثر من خمسة قرون . ومن أشهر هذه الشروح شرح ابن عقيل (ت ٥٧٦٩) والاشموني (ت ٩٢٩هـ) . وقد وضع الصبان (ت ١٢٠٦هـ) حاشية على شرح الاشموني . وما تزال هذه المنظومات والشروح والحواشى تشغل ساعات دراسة النحو فى أكثر المعاهد العلمية المهمة بذلك .

• - الموسوعات النحوية والشروح :

كانت ظاهرة تأليف الموسوعات النحوية موازية لاتجاه تأليف الكتب التعليمية والمنظومات . تقسم الموسوعات النحوية التى بدأت بالمفصل للزحشرى (ت ٥٣٨هـ) بالتركيز الشديد ومحاولة حشد آراء النحاة والاهتمام بالتقسيمات الداخلية للموضوعات . وقد أدت الصياغة المركزة لهذه الكتب إلى ضرورة شرحها كى تفهم ، وكأنها ألقت موجزة لكى تحفظ حفظا . فكتاب المفصل للزحشرى كتاب مركز يضم بين دفتيه كل أبواب النحو العربى ، وقد شرح المفصل عشرات المرات لم يطبع منها إلا شرح ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) .

وبعد أن ألف ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) منتهى التعليميين : « الكافية » ، فى النحو و « الشافية » ، فى الصرف بدأ الشراح فى تناول الكتابين بالتفصيل والتعليق ، فألفت على كل منهما عشرات الشروح العربية والتركية . وأشهر شروح الكافية والشافية شرح الرضى الاسترأباذى (ت ٦٨٨هـ) عليهما . وهناك محاولات كثيرة لتعليق على شرح الاسترأباذى على الكافية وإيضاح شواهد ، أشهرها كتاب « خزنة الادب » ، لعبد القادر البغدادى (ت ١٠٩٣هـ) .

ولا شك أن أفضل جهد موسوعي في هذه الفترة هو كتاب «مغنى اللبيب» لابن هشام (ت ٧٦٢ هـ) ، لقد شارك ابن هشام أبناء عصره في الاهتمام بتأليف المتون التعليمية وشرحها ، فألف متن «شذور الذهب» و«متن قطر الندى» وشرحهما . وكتاب ابن هشام «أوضح المسالك» شرح لافقية ابن مالك ولكن كتابه الأكثر أهمية هو كتاب «مغنى اللبيب» ، فهو أفضل كتاب حول الجملة العربية وتحليلها النحوى .

وشارك السيوطى (ت ٩١١ هـ) فى التأليف الموسوعى فى النحو بعدة مؤلفات ضخمة ضم فيها آراء السابقين عليه . فالسيوطى فى كل كتبه طام على طريقة الجمع والتأليف . كان يجمع ما أمامه فى الكتب المختلفة حول موضوع واحد ، فيؤلف فيه كتاباً ضخماً . ومن أشهر جهوده فى النحو كتاب : «معجم الهوامع» ، وقد ألف السيوطى متناً صغيراً هو جمع الجوامع ، ثم شرحه بكتاب موسوعى هو «معجم الهوامع» . وترجم أهمية معجم الهوامع إلى تسجيله لكثير من الآراء والخلافات النحوية وإلى اهتمامه بالنحاة الأندلسيين والمغاربة المتأخرين ، مثل : ابن عصفور وابن خروف وابن الطراوة والشلوبين ولا نعرف اليوم آراء هؤلاء بقدر ما نعرفها خلال اقتباسات السيوطى من كتبهم . ويضم كتاب «الاشباه والنظائر» للسيوطى نقولات كثيرة من الكتب النحوية المشرقية والمغربية التى أتت السيوطى .

ظلت حركة التأليف فى النحو العربى فى العصر العثمانى فى إطار وضع الشروح على المتون والمنظومات التعليمية . وكانت قيمة أى مؤلف فى النحو تتركز فى إحاطته إن كان يؤلف شرحاً موسوعياً ، أو فى حسن صياغته إن كان يشرح متناً تعليمياً . ويعد عبد القادر البغدادى نموذجاً لشرح الشواهد ، وله كتابان ، الأول «غزاة الأدب» فى شرح شواهد الكافية ، والثانى فى : «شرح شواهد مغنى اللبيب» وكلا الكتابين موسوعة ضخمة تضم كثيراً من المعلومات اللغوية والنحوية والأدبية . وهناك شروح تعليمية كثيرة ألفها مدرسو النحو فى الأزهر مثل الشيخ

حسن المطار . وتناول بعض هؤلاء شواهد الكتب التعليمية فشرحوها مثله شرح شواهد شرح ابن عقيل ، للرجاوى و . شرح شواهد شرح شذور الذهب ، للفيومي .

وظل اهتمام مدرسى النحو فى الأزهر محصورا داخل إطار هذه الشروح العقيمة التى لم تأت بمجديد . وليس مصادقة أن أول من اهتم بكتاب سيبويه فى العصر الحديث وحققه تحقيقا علميا هو المستشرق الفرنسى درنور . وارتبطت حركة التجديد فى عرض النحو العربى فى شكل حديث بكتاب التحفة السكتية لتقريب اللغة العربية ، وقد ألف رفاعه الطهطاوى هذا الكتاب على نمط مؤلفات الفرنسيين فى النحو . لقد أعجب رفاعه الطهطاوى أثناء إقامته فى فرنسا بمنهج الفرنسيين فى عرض النحو ، فخرج على طريقة معاصريه فى الشروح والهوامش والتعليقات والتقريرات ، وألف كتابا بسيط العبارة سهل العرض ، ليس له متن أو شرح ، بل له نص واحد يقرأ فيفهم . وكان الطهطاوى أول من استخدم الجداول الإيضاحية فى كتب النحو العربى^(١) . وبذلك بدأت الكتب التعليمية الحديثة فى النحو العربى . ثم ظهرت بعد ذلك حركة تحقيق التراث النحوى وأخذت الكتب النحوية الأساسية المبكرة تظهر بتحقيق العلماء العرب .

(١) حول الطهطاوى ، انظر : محمود فهمى حجازى : أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى ، عالم الفكر ، أبريل ١٩٧٣ .

الفصل السادس

المكتبة اللغوية

١ - جمع اللغة وتأليف المعاجم :

قامت حركة التأليف في المعاجم العربية على أساس المادة التي جمعها اللغويون في البادية في القرن الثاني الهجري . لقد خرج عدد كبير من اللغويين من البادية ، وأخذ كل منهم يجمع اللغة من أبناء القبائل العربية ، وبذلك تم إنجاز أول عمل لغوي ميداني في الجزيرة العربية . ولاحظ كثير من البدو اهتمام اللغويين بتلقي اللغة عنهم ، فهاجروا إلى جنوب العراق حيث ازدهرت علوم اللغة في البصرة والكوفة ، وأخذوا يبيعون المادة اللغوية التي عندهم لكل من يشتد بها من اللغويين . ولم تكن عملية جمع اللغة محاولة شاملة لتسجيل كل الالفاظ التي عرفتها القبائل العربية ، بل كان اللغويون يصدرون في اختيارهم للقبائل واختيارهم للرواة عن مبدأ أساسي ، وهو تسجيل اللغة الفصحى والابتعاد عن الصنع والالفاظ غير الفصحى . وبهذا المعيار ركز اللغويون عملهم على لغة تلك القبائل التي تقرب كل الاقتراب من العربية الفصحى ، ورفضوا لهجات القبائل البعيدة عن الفصحى ، وبين هذا وذلك صنعت لهجات القبائل المختلفة . وظل هذا الأساس سائداً في عملية جمع اللغة في القرن الثاني الهجري وبذلك حفظت لنا كتب اللغة الاستخدام اللغوي عند مجموعة من القبائل العربية الشمالية .

لقد اهتم اللغويون بقبائل قيس وتيمم وأسد وهذيل وبعض بطون قبيلة كنانة وبعض بطون طيء^(١) . وقد تجنب اللغويون أخذ اللغة عن الحضرة أي عن العرب

(١) انظر نص الفارابي المقتبس في المزهرة للسيوطي ٢١١/١ .

المستقرين وعن القبائل العربية التي عاشت بالقرب من جماعات لغوية من غير عربية، فلم يؤخذ من قبيلة لحم ولا من قبيلة جذام ، « لمجاورتهم أهل مصر والقبط » ، وبالمثل نجد - اللغويون أخذ اللغة عن قضاة وغسان وإياد ، « لمجاورتهم أهل الشام » (١) .

وأعرض جامعو اللغة عن قبائل تغلب لاختلاط هذه القبائل بالجماعات اللغوية غير العربية في الشام والعراق ومصر . أما قبائل العرب في اليمن وشرق الجزيرة العربية ومدن الحجاز فقد خرجت أيضاً عن اهتمام اللغويين . وقد فسروا عدم أخذ اللغة عن أهل اليمن أن لغتهم تغيرت « لمخالطتهم للهند والحبشة » ، ورفضوا أخذ اللغة عن قبائل شرق الجزيرة العربية ومدن الحجاز باعتبار أن لغتهم اختلطت بلغة غير العرب .

والواقع أن اللغويين لم يهتموا في القرن الثاني الهجري بالتنوع اللغوي في الجزيرة العربية ، وقصروا اهتمامهم على تقرير فصاحة لغة القبيلة أو عدم فصاحتها ، فشغلتهم قضية الفصاحة عن باقي القضايا الكثيرة التي يمكن طرحها في العمل اللغوي الميداني فسر اللغويون التغير الذي لاحظوه في لهجات بعض القبائل التي رفضوها بأنه ثمرة الاختلاط بأبناء الجماعات اللغوية غير العربية في مصر والشام والعراق وبأبناء الجماعات اللغوية الهندية والحبشية الذين اختلط بهم نفر من العرب . ولكن جامعي اللغة في القرن الثاني الهجري لم يهتموا بالعربية الجنوبية التي كانت دون شك منتشرة

(١) هناك خطأ وقع فيه الفارابي هنا إذ ذكر أن أكثرهم « نصارى يقرأون بالعبرانية » فمعرفة العبرية في القرون الثاني الهجري / الثامن الميلادي كانت مقصورة على رجال الدين اليهود وقلة من المهتمين بالتراث اليهودي . والصحيح أن أهل الشام كانوا في فجر الاسلام من أبناء الآرامية بلهجاتها المختلفة .

في مناطق من الجنوب العربي آنذاك ، بل عدوا ما وجدوه عند قبائل اليمن من ظواهر لغوية مخالفة ضرباً من الاختلاط الذي أصاب اللغة وجعلها غير نقية وغير سليمة . وبذلك لم يكن العمل اللغوي الميداني في القرن الثاني الهجري محاولة لتسجيل جوانب الحياة اللغوية عند أبناء اللغة العربية أو محاولة لبحث جوانب التنوع اللغوي في الجزيرة العربية ، بل كان محاولة للبحث عن الصيغ الفصيحة والكلمات الفصيحة عند القبائل العربية التي يقترب استخدامها لغة من المستوى اللغوي المنشود .

وقد أثمرت حركة جمع اللغة بمجموعة من الكتب والرسائل اللغوية . لقد جمع اللغويون مآثره القبائل الفصيحة من ألفاظ ، وصفوها في مجموعات دلالية ، وألقوا في هذا مجموعة كبيرة من الكتب . ألف الاصمعي (ت ٨٢١٦) في « خلق الانسان » و « الابل » و « الخيل » و « الوحش » و « النبات » و « الشجر » وألف أبو زيد الانصاري في « اللبن » و « المطر » و « النبات » و « الشجر » . وظلت الرسائل هي الشكل الوحيد الذي اتخذته دراسة الالفاظ العربية من الناحية الدلالية وقتاً طويلاً إلى أن برزت إلى الدوائر العلمية حركة تأليف المعاجم . وقد كان لما ألفه الاصمعي وأبو زيد الانصاري ومن عاصرهما من اللغويين أكبر الأثر في المعاجم العربية وفي نظرية اللغة عند العرب بشكل عام .

لقد أخذ مؤلفو المعاجم المادة التي دونها علماء القرن الثاني واحتفلوا بكل ما سجله الاصمعي وأبو زيد ومعاصرهما كل الاحتفال ، ولذا تكرر أسماء هؤلاء اللغويين في المعاجم العربية الكثيرة التي ظهرت في القرون التالية وإذا كان اللغويون في القرن الثاني قد قصروا جهدهم على جمع الصيغ والدلالات الفصيحة أو القريبة كل القرب من الفصيحة فإن الاكثريّة المطلقة من علماء اللغة في القرون التالية قد لاحظت تغير الاستخدام اللغوي بعد القرن الثاني . ولذا توقفت حركة العمل اللغوي الميداني توقفاً تاماً . لم يكن العمل اللغوي الميداني في القرن الثاني الهجري هادفاً

إلى دراسة التنوع اللغوي والتغير واللغوى فى الجزيرة العربية أو فى البيئات العربية الأخرى ، بل اقتصروا على ما اتفقوا على القول بفصاحته . وظل اللغويون فى القرون التالية يقرون صلاهم على المادة اللغوية التى اعترف علماء القرن الثانى بفصاحتها . وبذلك حددت حركة جمع اللغة فى القرن الثانى الهجرى إطار النظرية العامة للعمل اللغوى فى القرون التالية . وظلت التعبيرات الشائعة فى كتب اللغة مثل لغة الحجاز أو لغة أهل الحجاز أو لغة تميم أو لغة هذيل لا تمنى الاستخدام اللغوى عند هذه القبائل هموما ، بل تعنى الاستخدام اللغوى عند هذه القبائل فى القرن الثانى الهجرى . وبذلك لا تختلف الظواهر التى عالجها السيرافى فى القرن الرابع الهجرى عن الظواهر التى ناقشها السيوطى فى القرن التاسع الهجرى ، فهما يناقشان مثل باقى النحاة العرب ماسجله الباحثون فى القرن الثانى الهجرى . وعندما يذكر ابن منظور (ت ٥٧١١) والزبيدى (ت ١٢٠٥ هـ) فى لسان العرب وتاج المروس مجموعة من الملاحظات حول دلالات الألفاظ ، فانهما لم يسجلا هذه الملاحظات عن الاستخدام اللغوى فى القرن السابع أو القرن الثامن عشر للهجرة ، بل نقلها عن كتب تعود بدورها إلى كتب قام أكثرها على أساس ما جمعه اللغويون فى القرن الثانى الهجرى . وبذلك تعد حركة جمع اللغة فى القرن الثانى الهجرى أساس المادة اللغوية ونظرية اللغة عند أصحاب المعاجم العربية التالية .

بعد نشاط العلماء العرب فى عصر الحضارة الإسلامية لتأليف المعاجم من أبرز مظاهر جهدهم العلمى ، وهم بهذا أهم من ألف المعاجم قبل العصر الحديث على الإطلاق . لقد بدأت حركة تأليف المعاجم العربية موازية لتدوين الرسائل اللغوية فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة .

وفى هذه الفترة أيضا ألف كتاب سيديونة ، وبذلك عرف النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة جمع اللغة وتدوين الرسائل اللغوية وبداية العمل المعجمى وبداية

التأليف النحوى . . . وإذا كان القرن الرابع الهجرى قد عرف بمجموعة كبيرة من أعلام النحاة فإن نفس الفترة الزمنية أخرجت لنا عدداً كبيراً من المعاجم اللغوية التى تمثل انجازات مختلفة فى التأليف المعجمى . وكانت حركة تأليف الموسوعات النحوية موازية لتأليف المعاجم الموسوعية مثل لسان العرب ، كما كانت حركة تأليف الحواشى والشروح النحوية مصحوبة بتأليف حواش على المعاجم وشروح لها ، وكان عبد القادر البغدادى (ت ١٠٩٣) بكتابه « خزائن الأدب » و « شرح شواهد معنى اللبيب » ظاهرة موازية لتأليف مرتضى الزبيدى (ت ١١٤٥ هـ) لتناج العروس شرحاً للقاموس المحيط . وإذا كانت كتب النحو تختلف اختلافاً بسيطاً فى تبويبها الداخلى وترتيبها للموضوعات فإن المعاجم العربية تقسم من ناحية ترتيبها للألفاظ الواردة فيها إلى مدارس مختلفة ، لكل منها منهجها الخاص .

٢ - معاجم الترتيب الصوتى :

يعد « كتاب العين » أقدم المعاجم العربية على الإطلاق ورائد أقدم مدرسة فى التأليف المعجمى . يختلف « كتاب العين » عن الجهود الأخرى المبكرة فى التأليف اللغوى فى أنه أول محاولة لحصر ألفاظ اللغة العربية على نحو شامل وفى إطار نظام منهجى واضح . يتفق الباحثون على أن خطة « كتاب العين » من عمل الخليل بن أحمد ، ولكن مدى إسهامه وإسهام تلميذه الليث بن المظفر فى تنفيذ المعجم ظل موضع خلاف بين الباحثين ، فمنهم من ينسب العمل كله للخليل ، ومنهم من يذكر نسبته للخليل وينسبه لليث بن المظفر (١) . وأغلب الظن أن جهد الخليل

(١) أنظر الفهرست لابن النديم ، ٤٢٠ ، والمعجم العربى لحسين نصارى ٢٥٤/١ وما بعدها ، المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين للخليل بن أحمد ، تأليف عبد الله درويش ، القاهرة ١٩٥٦ .

في كتاب العين هو المقدمة المنهجية^(١) ، وهي أهم ما في الكتاب مع محاولة تطبيقها في الأبواب الأولى أما الليث فهو رواية ما أعده الخليل ومؤلف باقي الكتاب .

يقوم منهج الخليل في ترتيب ألفاظ اللغة العربية على مجموعة أسس عامة :

١ - ترتب الكلمات باعتبار حروفها الاصول فقط ، ومعنى هذا أن الخليل بنى معجمه على أساس التمييز بين الحروف الاصول والحروف الزوائد في الكلمة الواحدة ؛ وهو أساس صرفي لم يكن من الممكن تصوره قبل انضاح ملاحج البحث في بنية الكلمة العربية . من هذا الجانب يختلف كتاب العين عن الرسائل الكثيرة التي ألفت في القرن الثاني الهجري والتي صنفت فيها الالفاظ تصنيفا موضوعيا . وقد ظل المبدأ الذي وضعه الخليل في « كتاب العين » باعتبار الحروف الاصول دون الحروف الزوائد في ترتيب الكلمات أساساً متعارفا عليه في كل المعاجم العربية العامة حتى العصر الحديث ، لم تخرج عنه إلاقلّة من المعاجم الخاصة وبعض المعاجم التعليمية الحديثة .

٢ - ترتب الكلمات المتدرجة في مادة لغوية واحدة ترتيبا داخليا على أساس الابنية ، الثنائي ، الثلاثي (الصحيح والمعتل واللفيف) الرباعي ، الخماسي . والثنائي مثل : قد ، لم ، هل ، والثلاثي مثل : ضرب ، خرج ، والرباعي مثل : دحرج ، قرطس ، والخماسي مثل : اقشعر ، وقد اتبع هذا الاساس في الترتيب الداخلي لعدد من المعاجم العربية التالية التي التزمت بمنهج الخليل ، وهي « البارع » ، للقالى

(١) يقول الأزهري : « ولم أر خلافا بين اللغويين أن التأسيس المجمل في أول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، وأن ابن المظفر أكمل الكتاب عليه بعد تلقفه إياه عن فيه » تهذيب اللغة ١/١ ، وأنظر مقدمة النسخة المطبوعة من الكتاب رواية الليث عن الخليل ، ومعجم مقاييس اللغة ٣/١ - ٤ .

(ت ٤٥٦) و د تهذيب اللغة ، للازهري (ت ٢٧٠ هـ) . و د .
و للصاحب بن عباد ، (ت ٣٨٥) و د الحكم والمحيط الاعظم ، لابن سيده (ت ٤٥٨ هـ) .

٣ - نوضع الكلمة ومقلوباتها في مادة واحدة ، وبذلك ترد الكلمة وقد
جردت من حروفها الزائدة في أول موضع ممكن . فالحروف ك ت ب يمكن أن
تتخذ الترتيبات التالية : (١) كتب ، (٢) كبت ، (٣) تكب ، (٤) تبك ،
(٥) بكت ، (٦) بتك ، وتعد كل هذه المواد بمجموعة واحدة .

ولاشك أن هذه الفروض الرياضية لا تجد لها في اللغة شواهد على كل صيغة
من الصيغ السابقة . وقد أطلق الخليل على الصيغ الموجودة فعلاً مصطلح المستعمل ،
وعلى الصيغ غير الموجودة والممكنة نظرياً الممهل ، . وبغض النظر عن نسبة
المستعمل والممهل من كل مجموعة من الحروف فإن هذه المجموعة تناقش كوحدة
واحدة . وتأتى المجموعة كاملة وفق أحد حروفها ، قد يكون الأول أو الثانى أو
الآخر ، يتحدد ذلك بجدول الخارج ، فكلما كان الحرف سابقاً في جدول الخارج
جاء بمجموعته كاملة إلى مكانه . وبذلك تأتى أى كلمة بها حرف العين في القسم
الخاص بالعين وهو أول أقسام كتاب العين . وبالمثل لا تأتى كلمة بكت تحت الباء
لأن الباء تأتى متأخرة في ترتيب الخارج ولكنها تأتى تحت الكاف لأن الكاف
أسبق من الباء والباء في الترتيب الخارجى .

٤ - رتب الخليل الحروف العربية وفق الخارج ، وبدأ بأصوات الخلق ثم
ذكر باقى الحروف منتبهاً بالحروف الشفوية . وختم ترتيبه بأصوات العلة والهمزة ،
لم يبدأ الخليل بالهمزة أو بالالف لما لاحظته من تغير صوتى يودى بها ، ولكنه
بدأ بمعجمه بكتاب العين باعتبارها الصوت الخلقى الأول الذى لا يتغير في الالبنة
الصرفية ، وقد سمي المعجم باسم أول قسم فيه « كتاب العين » .

وقد احتفظت مجموعة من المعاجم العربية العامة بمنهج الخليل وطبقته من الجوانب المذكورة ، ولكنها اختلفت في ترتيبها للحروف عن ترتيب الخليل اختلافا يسيرا . وهذه المعاجم هي : « البارع » للقالى (ت ٢٥٦ هـ) و « تهذيب اللغة » للأزهري (ت ٣٧٠ هـ) و « المحيط » للصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) و « المحكم والمحيط الأعظم » لابن سيده (٤٥٨ هـ) . وقد ألقت هذه المعاجم في القرنين الرابع والخامس للهجرة في مناطق متباعدة من العالم الاسلامى ، فقد ألف القالى معجمه « البارع » فى الأندلس . وألف ابن سيده معجمه « المحكم والمحيط الأعظم » فى الأندلس أيضا . ولكن « تهذيب اللغة » للأزهري و « المحيط للصاحب بن عباد معجمان مشرقيان ألفا فى خراسان والرى .

وقد اعتمدت كل هذه المعاجم على المادة اللغوية المتاحة فى « كتاب العين » وفى الكتب اللغوية الأخرى ، وتختلف قيمتها باختلاف مصادرها ومدى اعتمادها عليها . فقد اعتمد ابن سيده فى المحكم على مجموعة مصادر منها الكتب اللغوية والنحوية وكتب التفسير والحديث ، وبهذا اختلف المحكم من هذا الجانب عن المعاجم المشابهة . ولكن أهم معاجم الترتيب الصوق التى وصلت إلينا هو « تهذيب اللغة » للأزهري . فقد وصل إلينا هذا المعجم كاملا . بينما لم يصل إلينا من المعاجم التى التزمت بمنهج الخليل إلا قطع منها . ولكن أهم سمة تميز تهذيب اللغة للأزهري عن المعاجم المماثلة أن الأزهري جمع مادة جديدة عن البدو الذين عاش بينهم فترة من الزمن . وقد ذكر الأزهري فى مقدمته أنه وقع أسيرا أثناء ثورة القرامطة . وعاش بين مجموعة من العرب أكثرهم من هوازن وبعضهم من تميم وأسد ، ولا يكاد يقع فى منطقهم لحن أو خطأ فاحش فبقيت فى إسارهم دهرًا طويلا . واستفدت من مخاطباتهم ومحاوره بعضهم بعضا ألفاظا جمّة ونوادير كثيرة ، أوقعت أكثرها فى مواقعها من الكتاب ، (١) وبهذا يعتبر الأزهري اللغوى الوحيد الذى اهتم فى

(١) تهذيب اللغة للأزهري ٧-١ .

القرن الرابع الهجري بالعمل اللغوي الميداني ، وكانت حركة جمع اللغة قد توقفت منذ أكثر من قرن .

٣ - معاجم الترتيب الهجائي :

تنتظم المعاجم العربية ذات الترتيب الهجائي في مجموعتين ، فالمجموعة الأولى بدأت بكتاب الحروف ، أو كتاب الجيم ، للشيباني (ت ٢٠٦ هـ) . وترتب فيها الكلمات وفق الحرف الأول من حروفها الاصول . أما المجموعة الثانية فبدأت بديوان الادب ، للفارابي (ت ٣٥٠ هـ) ود الصلاح ، للجوهري (ت ٣٩٣ هـ) وترتب فيها الكلمات وفق الحرف الاخير من حروفها الاصول . لقد أفادت معاجم الترتيب الهجائي من منهج الخليل بن أحمد ، فكل هذه المعاجم حذت حذوه في ذكر الكلمات باعتبار حروفها الاصول ، وقد ظل هذا المبدأ سائداً في كل المعاجم العربية العامة قبل العصر الحديث ، التزمت به معاجم الترتيب الصوتي كما التزمت به معاجم الترتيب الهجائي .

ولكن معاجم الترتيب الهجائي اتخذت ترتيب الحروف المتعارف عليه عند جمهور المثقفين أساساً لها ، ويرجع هذا الترتيب إلى نصر بن عاصم الذي طوره عن النظام السامي الشمالي المعروف باسم الابهجدية . كان ترتيب الحروف عند الاجريتين والفينيقيين والعبريين والآراميين يتخذ النظام التالي : أ ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت (١) . وعندما استخدم هذا الترتيب الابهجدي عند العرب وضعوا الحروف العربية التي لم ترد فيه في آخر الترتيب وهي ث خ ذ ض ظ غ .

(١) أنظر :

Mayer, Hebraische Grammatik, Berlin 1966, 1/36 — 38.

والأصفهاني ، حمزة : التنبيه على حدوث التصحيف ، ص ١٥ — ١٦ .

ولكن نصر بن عاصم (ت ٨٩٩ هـ) أعاد ترتيب الحروف على أساس شكلي فوضع إلى جانب الباء التاء والتاء ، ووضع إلى جانب الجيم الحاء والخاء وهكذا..

وبذلك ظهر الترتيب الهجائي للحروف العربية وهو الترتيب الذي قامت عليه معاجم الترتيب الهجائي (١) .

يعد كتاب الجيم ، أو كتاب الحروف للشيباني (ت ٢٠٦ هـ) أقدم المعاجم ذات الترتيب الهجائي . لقد رتب الشيباني الكلمات وفق الحروف الأولى من حروفها الأصول . ولم يرتب الشيباني الكلمات الواردة في إطار الجذر الواحد ترتيبا داخليا على نحو ما فعل الخليل . وقد ألف الزحشرى معجمه ، أساس البلاغة ، على هذا النسق . فكتاب الجيم ، و أساس البلاغة ، متفقان من هذا الجانب .

ولكن معاجم الترتيب الهجائي التي ألفت في القرن الرابع الهجري احتفظت بفكرة الترتيب الداخلي وفق الأبجدية . والمعاجم المقصودة هي : دجهرة اللغة ، لابن دريد (ت ٣٢١ هـ) و د معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) و د المجمل ، لابن فارس أيضا . تتفق هذه المعاجم في اتخاذها للترتيب الهجائي أساس الترتيب العام للجذور ، ثم في مراعاتها للأبجدية باعتبارها أساس الترتيب الداخلي . ولكن ثمة خلافا بين هذه المعاجم .

لجهرة اللغة لابن دريد وهو أقربها زمنًا إلى عصر الخليل بن أحمد احتفظ بنظام ذكر الكلمة ومقلوباتها في أقرب موضع ممكن . أي أن ابن دريد أفاد من الخليل من عدة جوانب ، ولكنه عدل ترتيب الحروف .

أما د معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، فقد رتب الجذور وفق نظام الدائرة ،

(١) انظر : المعجم العربي بين الماضي والحاضر لعدنان الخطيب - القاهرة

فمنذما تأتى الكلمات التى تبدأ بالباء تنتظم الجذور فيها على النحو التالى : ب ب ، ب ت ، ب ث . . . ويكون آخر هذه الحروف ب أ . وعندما تأتى الكلمات التى تبدأ بالتاء تنتظم فيها الجذور على النحو التالى : ث ث ، ث ج ، ث ح . . . ويكون آخر هذه الجذور ث أ ، ث ت . أى أن ابن فارس يبدأ من الحرف نفسه ، ثم يأتى الحرف مع الحرف الذى يليه فى الترتيب الهجائى ، إلى أن تنتهى حروف الترتيب الهجائى ، ثم تأتى الحروف الأخرى السابقة على ذلك الحرف فى الترتيب الهجائى .

أما معاجم الترتيب الهجائى التى رتب الجذور فيها وفق الحرف الأخير فقد بدأت بديوان الأدب للفارابى (ت ٣٥٠ هـ) ود الصلاح ، للجوهري (ت ٥٢٩٣ هـ) . أقام الفارابى معجمه على أساس تقسيم الكلمات العربية وفق أبنيتهما ، ويقوم الترتيب الداخلى فى كل قسم من أقسام ديوان الأدب على أساس الترتيب الهجائى . أى أن ديوان الأدب معجم للابنية مرتب داخليا على أساس الترتيب الهجائى للحروف (١) . أما د الصلاح ، للجوهري فهو معجم عام اتبع نظام الباب والفصل ، والمقصود بهذا أن الكلمات ترتب بمراعاة حروفها الأصول وفق الحرف الأخير ، ثم ترتب الجذور المتفقة فى الحرف الأخير وفق الحرف الأول . وقد ظل هذا النظام سائدا فى المعاجم العربية التى ألفت فى القرون التالية ، وأهمها د العباب ، للصاغاني (ت ٥٧٧ هـ) ود لسان العرب ، لابن منظور (ت ٧١١ هـ) ود القاموس المحيط ، للفيروز ابادى (ت ٨١٧ هـ) ود تاج العروس ، للزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) ، والمعاجم الثلاثة الأخيرة هى أكثر المعاجم العربية شهرة وانتشارا .

(١) انظر : البحث اللغوى عند العرب لاحمد مختار عمر ، القاهرة ١٩٧١ .

٤ - مصادر المعاجم الموسوعية العامة :

يعد « لسان العرب » لابن منظور (ت ٧١١ هـ) أول معجم موسوعي ضخم. كان مؤلفو المعاجم قبل « لسان العرب » ينزعون إلى الاختيار والانتقاء من المادة اللغوية المتاحة لهم في مصادرهم . ومن ثم سميت المعاجم بأسماء تعبر عن هذا الاتجاه الانتقائي : وعبر مؤلفو « جهرة اللغة » و « تهذيب اللغة » ، و « صحاح اللغة » ، في مقدمات معاجمهم عن هذا . أما ابن منظور فقا، أراد تأليف معجم موسوعي كبير ولكنه لم يلجأ إلى جمع المادة جمعاً مباشراً كما فعل اللغويون في القرن الثاني وكما فعل الأزهري في القرن الرابع ، بل اعتمد على خمسة معاجم اعتماداً كاملاً ، فأخذ مادتها وحشدها في كتابه . يقول ابن منظور : « وأنا مع ذلك لا أدعى فيه دعوى ، فأقول شافيت أو سمعت أو فعلت أو صنعت أو شددت أو رحلت أو نقلت عن العرب العرباء أو حملت ... فكل هذه الذعاوى لم يترك الأزهري وابن سيده لقائل مقالاً ولم يخلها فيه لأحد مجالاً »^(١) . وقد صرح ابن منظور بعد ذلك بمصادره التي اعتمد عليها . وهي :

- ١ - تهذيب اللغة للأزهري . (ت ٣٧٠ هـ)
- ٢ - المحكم لابن سيده . (ت ٤٥٨ هـ)
- ٣ - الصحاح للجوهري . (ت ٣٩٣ هـ)
- ٤ - حواشي ابن بري . (٥٨٣ هـ) على الصحاح
- ٥ - النهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري (ت ٦٠٦ هـ)

أخذ ابن منظور ما وجدته في هذه المعاجم ونقله نقلاً . قال ابن منظور « ليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمت بها ، ولا وسيلة أتمسك بسبيلها ، سوى أني جمعت حفيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم ... ونقلت من كل أصل مضمونه ، ولم

(١) مقدمة لسان العرب ، المقدمة ٣/١ .

أبدل منه شيئاً . . . بل أدبت الأمانة في نقل الأصول بالنص ، وما تصرفت فيه بكلام غير ما فيها من النص ، (١) . وبذلك اعتمد ابن منظور على مصادر تعود بدورها إلى المادة التي جمع أكثرها في القرن الثاني الهجري ، بالإضافة إلى نقله المادة الموجودة في معجم متخصص هو النهاية في غريب الحديث لابن الأثير .

ولكن ضخامة حجم « لسان العرب » ، أتاح « للقاموس المحيط » ، للفيروزابادي (ت ٨١٦ هـ) أن ينتشر ويصبح عنوانه بعد ذلك علماً على كل معجم عربي حديث .

وتقابل كلمة قاموس التي فسرهما الفيروزابادي بأنها البحر الأعظم إلى الكلمة اليونانية Oceanos واللاتينية Oceanus وتعني المحيط ، وكان الفيروزابادي قد عرف كلمة القاموس بهذا المعنى في البيئته اللغوية الفارسية التي نشأ فيها (٢) . اعتمد الفيروزابادي على معجمين موسوعيين هما المحكم لابن سيده ، والعياب للصاغاني ويعتمد كل منهما على معاجم أخرى سبقتهما . فالمحكم يضم ما جاء في كتاب العين وجمهرة اللغة والبارع . أما العباب فيضم مادة معجم مقاييس اللغة والصحاح والمعاجم المؤلفة حول الصحاح . وبذلك يقوم عمل الفيروزابادي على كل هذه الجهود . ولكنه لم ينسج ما أخذه من مصادره ، بل كان يأخذ خلاصة ما فيها ، ويحذف الشواهد ،

(١) لسان العرب ٤/١ .

(٢) هناك عدة معاجم عربية اتخذت أسماء البحر أو صفاته ، منها :

المحيط للصاحب بن عباد .

المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده . العباب للصاغاني .

انظر : المعجم العربي لعدنان الخطيب ص ٤٨ .

وقد وردت كلمة القاموس بمعنى ماء البحر — قبل الفيروزابادي — عند

المقدسيت ٣٧٥ في : أحسن التقاسيم ص ١٢٤ .

ويضيف إلى هذه المادة معلومات جديدة خاصة بالأعلام وبالنباتات . وبذلك
ضم القاموس المحيط مادة لغوية متنوعة ، قد شرحت شرحاً بسيطاً ، محذوف
الشواهد مطروح الزوائد .

ويعد تاج العروس للزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) أكبر المعاجم العربية على الإطلاق .
لقد ألف الزبيدي تاج العروس شرحاً للقاموس المحيط ، ولكن عمله تجاوز حدود
الشرح اللغوي البسيط ، فأصبح تاج العروس أضخم المعاجم العربية وأكثرها مادة
وشرحاً . اعتمد الزبيدي على المعاجم العربية الكثيرة التي أتت له منها الصحاح
للجوهرى وتهذيب اللغة للأزهري والمحكم لابن سيده ولسان العرب لابن منظور
وأساس البلاغة للزمخشري والمجمل لابن فارس والمعاجم الكثيرة التي ألفت إكمالاً
لهذه المعاجم أو تلخيصاً لها .

ولكن الزبيدي لم يكتف بهذه المعاجم - كما فعل كثير من سبقوه في التأليف
المعجمي - بل اعتمد على المعاجم القرآنية والحديثية ، والكتب اللغوية ، وكتب
الطبقات ، وشروح اللغويين على النصوص الأدبية . اعتمد الزبيدي على مجموعة من
معاجم ألفاظ القرآن والحديث مثل : كتاب الغريبين لابن عبيد الهروى ، والنهاية
في غريب الحديث لابن الأثير الجزرى ، المفردات للراغب الأصفهاني ، ومشكل
القرآن لابن قتيبة ، إلى جانب كتب القراءات ، مثل : الحجة في قراءات الأئمة
السبعة لابن خالويه . واعتمد الزبيدي على مجموعة كبيرة من كتب الدراسات اللغوية
والتنقيف اللغوى ، مثل : فصح ثعلب ، وإصلاح المنطق لابن السكيت ، والخصائص
لابن جنى ، وسر صناعة الإعراب لابن جنى ، والمقصود والممدود للقال ، والاضداد
لابن الطيب اللغوى ، وتهذيب الأبنية والأفعال لابن القطائع . واعتمد الزبيدي
أيضاً على كتب كثيرة في الطبقات والأعلام والتراجم ، مثل جمهرة الأنساب لابن
حزم ، وطبقات الشافعية للسبكي ، والوفاء بالوفيات للصفدى
واعتمد الزبيدي أيضاً على شروح الدواوين والمجموعات الشعرية مثل شرح ديوان

المهذلين للسكري وشرح المملقات السبع لابن الانباري الخ (١١).
ولكن الزبيدي أخذ ما أخذه من المصادر المتنوعة دون تعديل أو تعليق أو
إضافة . وكان شرحه لما جاء في القاموس المحيط نقولا من هذه المصادر التي
اعتمد عليها . وفي هذا يقول الزبيدي : « عن كل كتاب نقلت مضمونه ، فلم أبدل
شيئا ، فيقال فإنما إثمة على الذين يبدلونه ، بل أدبت الأمانة في شرح العبارة بالنص ،
وأوردت ما زدت على المؤلف بالنص » . وإذا كان الزبيدي قد شرح القاموس
بالنقل من الكتب فإن مقدمته أيضاً تتكاد في بعض فقراتها أن تكون منقولة من
مقدمة لسان العرب (١٢) .

الجديد عند الزبيدي أنه عاد إلى الكتب المبكرة وأخذ عنها مباشراً في عصر
عزت فيه معرفة التراث العربي القديم . كان معاصرو الزبيدي ومن سبقوه بقرون
يعتمدون على الكتب التي نقلت بدورها ما جاء في التراث الأقدم . ولكن الزبيدي
عاد إلى هذه الكتب الأقدم ، قال : « نقلت بالمباشرة لا بالوسائط عنها » (١٣) . ولذا
يعد معجم تاج العروس جامعاً لجهود مؤلفي المعاجم واللغويين والشراح في أكبر
موسوعة معجمية باللغة العربية .

• المعاجم الدلالية الخاصة ذات الترتيب الهجائي :

هناك عدد كبير من الكتب رتب فيها الالفاظ وفق الحروف الاصول ، أو
حروف السكلة كاملة ، أو وفق الموضوعات ، أو وفق الأبجدية وقد تناولت المعاجم

- (١) صرح الزبيدي بأسماء الكتب التي عليها في مقدمة تاج العروس ٥/١ - ٩ .
- (٢) قارن عبارة اللسان (٣/١) « وأنا مع ذلك . . . لا أجد مجالا » ،
وقد نقلها الزبيدي (١٠/١ عمود أ) ، كذلك عبارة اللسان (٣/١ - ٤) « وليس
لي في هذا الكتاب . . . ما فيها من النص » ، نقلها تاج العروس (١٠/١ عمود ب) .
- (٣) تاج العروس ٤/١ .

الدلالية الخاصة مستوى بعينه من مستويات اللغة ، فهناك معاجم لألفاظ القرآن الكريم ، ومعاجم لألفاظ الحديث ، ومعاجم للمصطلحات العلمية العربية ، وإلى جانب هذا فهناك معاجم تبحث الألفاظ الدخيلة في العربية من الناحيتين الاشتقاقية والدلالية . وهذه المعاجم الدلالية الخاصة تختلف عن المعاجم العامة في أنها لم تهدف إلى ألفاظ اللغة عموماً أو إلى جمهرة هذه الألفاظ ، بل كانت تتناول مجموعة محدودة من الألفاظ وتبحثها من النواحي الدلالية وتصنفها هجائياً .

ومن أهم المعاجم الدلالية المؤلفة لألفاظ القرآن الكريم : « المفردات في غريب القرآن » ، الراغب الإصفهاني (ت ٥٥٢ هـ) . يختلف كتاب المفردات عن الجهود السابقة عليه في نفس الموضوع من ناحية الترتيب ، فكتاب « مجاز القرآن » ، لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ أو ٢٠٣ هـ) يضم بعد مقدمة عامة عن قضايا المجاز تفسيراً للألفاظ القرآنية من الجوانب الدلالية والصرفية مستشهداً على ذلك بشواهد من الشعر والأحاديث والأمثال ولكن مجاز القرآن لم يرتب موضوعاته أو ألفاظه ترتيباً معجباً ، بل جاء بها وفق السور ، وشرح أبو عبيدة في إطار كل سورة ما ورد بها من قضايا . وقد ظل هذا النهج سائداً عند كثير من المؤلفين الذين بحثوا القضايا الدلالية لألفاظ القرآن الكريم في إطار تفسيرهم للسور ، ولذا لا يعتبر جهدهم معجباً . نجد هذا أيضاً في كتاب : « تفسير غريب القرآن » ، لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) . لقد ذكر ابن قتيبة في أول كتابه أسماء الله الحسنى ثم الألفاظ الشائعة في القرآن الكريم وأخذ يشرح بعد ذلك الكلمات الغريبة مرتبة وفق السور يذكر الآية القرآنية ويشرح ما بها من غريب شرحاً مختصراً دون إفادة في تفصيلات صرفية أو نحوية أو دلالية . لا يعد مجاز القرآن لأبي عبيدة ولا تفسير غريب القرآن لابن قتيبة من معاجم مفردات القرآن الكريم . فإنها وإن تضمنتا قضايا دلالية كثيرة ، إلا أن الكتابين لم يتخذا منها معجماً في ترتيب الألفاظ التي شرحت فيها . وبذلك يختلف هذان الكتابان وغيرهما من الكتب عن كتاب

المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني وقد رتب الراغب الاصفهاني مفردات القرآن باعتبار حروفها الاصول ترتيبا هجائياً . واتبع بذلك ما جرت عليه المعاجم العربية العامة من ترتيب الكلمات وفق حروفها الاصول .

ويعد كتاب : « النهاية في غريب الحديث » لابن الاثير الجزري (ت ٦٠٦ هـ) ثمرة كتب كثيرة تناولت موضوع غريب الحديث ، وقد أشار ابن الاثير إلى هذه الجهود في مقدمة كتابه . ويرجع الاهتمام بالفاظ الحديث إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى والاصمعي وأبي عبيد القاسم بن سلام وابن قتيبة . ولكن هؤلاء لم يرتبوا الالفاظ التي شرحوا ترتيبا معجميا ، بل كانت تشرح وفق الاحاديث . وقد اعتمد ابن الاثير الجزري في معجمه « النهاية في غريب الحديث » على معجمين ألفا قبله في هذا الموضوع . ففي القرن الرابع الهجري ألف أبو عبيد الهروي أول معجم لالفاظ الحديث ، ثم ألف أبو موسى الاصفهاني معجما مكتملا لمعجم الهروي وقام ابن الاثير الجزري بالجمع بين معجمي الهروي والاصفهاني في معجم واحد خاص بالفاظ الحديث وحدها . وقد رتب ابن الاثير معجمه مثل ترتيب الهروي والاصفهاني وفق الحروف الاوائل . ولكن منهج ابن الاثير اختلف عن معجمي الهروي والاصفهاني والمعاجم العربية العامة من ناحية أساسية . فقد وجد أنه من الصعب الالتزام بفكرة ترتيب الكلمات وفق حروفها الاصول وعدم مراعاة باقي حروف الكلمة . وإذا كانت المعاجم العربية من كتاب العين إلى تاج العروس قد رتبت الكلمات وفق حروفها الاصول فقط ، فإن ابن الاثير كان قد وجد في هذا صعوبة عملية . فرتب الكلمات بمراعاة كل حروفها دون تمييز بين الاصول والزوائد ، وفي هذا يقول ابن الاثير : « وجدت في الحديث كلمات كثيرة في أوائلها حروف زائدة ، قد بنيت

الكلمة عليها حتى صارت كأنها من نفسها فرأيت أن أثبتها في باب الحرف الذي هو في أولها وإن لم يكن أصليا ، ونهيت عند ذكره على زيادته لئلا يراها أحد في غير بابها فيظن أني وضعتها فيه للجهل بها ، (١) . ومن هذا الجانب أيضا يختلف كتاب النهاية في غريب الحديث عن المعاجم العربية العامة .

وأهم المعاجم العربية الخاصة بالالفاظ الدخيلة هو كتاب « المعرب من الكلام الأعجمي » للجواليقي (ت ٥٤٠ هـ) . وقد حدد الجواليقي موضوع كتابه بالبحث في الالفاظ الدخيلة من اللغات الاجنبية المختلفة ، والتي استخدمت في القرآن المجيد وأخبار الرسول والصحابة وفي أشعار العرب وأخبارها . وقد أثبت الجواليقي أن هذه الالفاظ الدخيلة من لغات مختلفة ، مثل : الفارسية ، والآرامية التي تسمى عنده بالنبطية . ولذا لم يكن ترتيب هذه الالفاظ باعتبار حروفها الاصول أمراً مقبولا فإجراء الالفاظ غير العربية وغير السامية على النمط الصرفي للغة العربية نوع من التعسف غير المقبول عليها . ولذا رتب الجواليقي الالفاظ التي ناقشها في كتابه من الجانبين الدلالي والاشتقاقي ترتيبا معجميا يراعى كل حروف الكلمة ، وبذلك خرج الجواليقي على المبدأ السائد في المعاجم العربية العامة .

وهناك عدد من المعاجم الخاصة بالمصطلحات العلمية ، منها التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (المؤلف ١١٥٨ هـ) . وبعد كتاب التهانوي أكبر معجم عربي للمصطلحات العلمية ، والتهانوي مؤلف هندي وجد المصطلحات المتداولة في التراث العربي في العلوم المختلفة بحاجة إلى معجم دلالي يوضح معانيها . فإذا كانت المعاجم العربية العامة قد اعتمدت على حركة جمع اللغة والشعر القديم في القرن الثاني الهجري ، فإن المصطلحات العلمية لم تنشأ في البداية عند القبائل التي اعتمد عليها اللغويون . لقد كثرت المصطلحات العلمية العربية مع تنوع جوانب المعرفة العربية واتساع الافق العلمي في القرن الثالث والقرون التالية .

ولذا كانت المصطلحات خارج إطار اهتمام المعاجم العربية العامة ، وليس مصادفة أن يكون الاهتمام بهذه المصطلحات واضحا عند عدد من العلماء غير العرب فهو لاء وجدوا صعوبة في فهم هذه المصطلحات ، فأثارت اهتمامهم . وكانت ثمرة هذا الاهتمام معجما كبيرا ، مثل : كشف اصطلاحات الفنون للتهانوى . وفي هذا يقول التهانوى : « ولم أجد كتابا حاويا لاصطلاحات جميع العلوم المتداولة بين الناس وغيرها ، وقد كان يحتاج في صدرى أو ان التحصيل أن أؤلف كتابا وافيا لاصطلاحات جميع العلوم ، كافيا للمتعلم من الرجوع إلى الاساتذة العالمين بها » (١) .

قدم التهانوى لكتابه بعرض عام حول العلوم وتصنيفها ، أما المصطلحات العلمية فقد جاءت عنده مرتبة ترتيبا معجميا وفق الحرف الاول من حروفها الاصول ، وبهذا نهج التهانوى نهج بعض المعاجم العربية مثل أساس البلاغة للزمخشري .

٦ - المعاجم الموضوعية :

توجد عدة أنواع من المعاجم الموضوعية في التراث العربى ، فهناك معاجم اهتمت بالالفاظ الغريبة ، مثل : الغريب المصنف لأبى عبيد القاسم بن سلام (ت ٥٢٢٤هـ) . وهناك مجموعة كبيرة من الكتب التعليمية التى كانت تهدف إلى تقريب الالفاظ لمن أراد حصيلة لغوية تعينه على الكتابة العربية الفصيحة ، وتصنف هذه الكتب ألقاظها في موضوعات وتذكر الالفاظ الخاصة بكل موضوع بغض النظر عن حروفها الاصول أو الزائد . وأهم هذه الكتب التعليمية الدلالة ذات التصنيف الموضوعى « كتاب الالفاظ » لابن السكيت (ت ٥٢٤هـ) وكتاب « جواهر الالفاظ » لقدامة بن جعفر (ت ٣٢٧) و « متخير الالفاظ » لاحمد بن فارس (ت ٥٢٩هـ)

(١) كشف اصطلاحات الفنون ١/١ .

و د الالفاظ الكتابية ، لعبد الرحمن الهمذاني (ت ٣٢٧ هـ) و د وفقة اللغة ،
للشعالبي (ت ٤٢٩ هـ) . وهذه الكتب التعليمية لا تهتم بالالفاظ الغريبة بل تهتم
بالالفاظ التي ارتضتها الدوائر الثقافية التي كانت تنفر من التفرع كما تنفر من العامة .

ولكن أكبر معجم موضوعي باللغة العربية هو « المختص » لابن سيده
(ت ٤٥٨ هـ) ، تناول ابن سيده — بعد مقدمة عامة في قضايا اللغة — المفردات
العربية وصنفها تصنيفا موضوعيا . فعندما ذكر الالفاظ الخاصة بخلق الإنسان
أورد ما يتعلق بجسم الإنسان وحياته الاجتماعية ، ثم جاءت بعد ذلك الأقسام
الخاصة بالابنية والسلاح والحيل والابل والغنم . . . الخ والانواء . . والماء . .
والمشاورة . . . والاستعداد . : . والغناء والرقص واللعب . . الخ وأفراد ابن سيده
قسما كبيرا في آخر كتابه لمجموعة من القضايا الصرفية شغلت السدس الأخير من
كتاب المختص .

٧ - كتب الابنية الصرفية :

هناك مجموعات من الكتب في موضوعات صرفية تناوأت الكلمات في إطار
الوزن الصرفي أو الظاهرة الصرفية . وأهم هذه الكتب مجموعة من الكتب الخاصة
بأبنية الأفعال ، ومجموعة أخرى خاصة بالمقصود والممدود ، ومجموعة ثالثة خاصة
بالمذكر والمؤنث .

تناولت كتب الأفعال موضوعا خاصا بصيغتي فعل وأفعل . وألف عدد من
اللغويين كتباً بعنوان « فعلت وأفعلت » ، وأهم هؤلاء أبو حاتم السجستاني
(ت ٢٥٥ هـ) والزجاج (ت ٣١١ هـ) . وضمت مجموعة أخرى — من كتب
الابنية — الأفعال في اللغة العربية ، وقد رتببت بمراعاة بنيتها وحروفها الأصول
ومن هذه الكتب « كتاب الأفعال » لابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ) و « كتاب الأفعال »
للسرقسطي (ت بعد ٤٠٠ هـ) و « كتابات الأفعال » لابن القطاع (ت ٥١٥ هـ) .

واهتمت الكتب الخاصة بأبنية الاسماء بموضوع المقصود والممدود ، ويسدو أن القراء (ت ٢٠٧ هـ) كان أول من ألف من ألف هذا الموضوع . وفي القرن الرابع الهجري ألف كتابان هاما في هذا الموضوع هما : كتاب القالي (ت ٣٥٦ هـ) وابن ولاد (ت ٣٣٢ هـ) .

وهناك مجموعة أخرى من كتب الأبنية الخاصة بالاسماء تناولت موضوع التذكير والتأنيث . وأهم من ألف كتباً بعنوان المذكر والمؤنث : القراء (ت ٢٠٧ هـ) وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) — والمفضل بن سلمة (ت بعد ٢٩٠ هـ) والانبأري (ت ٢٢٨ هـ) والتستري (ت بعد ٣٦٠ هـ) وابن جني (ت ٣٩٢ هـ) وابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) ، وابن الانباري (ت ٥٧٧ هـ) .

وقد خصصت كتب التنقيف اللغوي ولحن العامة فصولاً للأبنية الصرفة للأفعال والاسماء ، واهتمت ببيان الأبنية في الفصحى ومدى اختلافات اللهجات العربية من الفصحى من هذا الجانب .

٨- كتب التنقيف اللغوي ولحن العامة :

بدأ الاهتمام بتأليف الكتب اللغوية الهادفة إلى تعليم الفصحى والابتعاد عن التأثيرات العامية في الاستخدام اللغوي في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (١) . كان

(١) حول التطور الدلالي لكلمة « لحن » ، أنظر :

العربية ليوهان فلك . ترجمة : عبد الحليم النجار ٢٣٥ - ٢٤٦ ، القاهرة ١٩٥١

لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة لعبد العزيز مطر .

لحن العامة والتطور لرمضان عبد التواب ٩ - ٣٣ ، القاهرة ١٩٦٧ .

اللغويون قد اعتبروا اللهجات صوراً فاسدة من الاستخدام اللغوى ، فسيطروا بعض ظواهر اللهجات إيماناً بخطئها وأشاروا إلى ما ينبغى أن يقال بدلاً منها فى الفصحى ، ولكن البحث اللغوى الحديث يتناول تراث لحن العامة والتثقيف اللغوى باعتباره من مصادر التاريخ اللغوى .

وهناك مجموعة من الكتب التى ألفت فى العراق من القرن الثانى إلى القرن السادس الهجرى وتدخل فى هذا الإطار . وأهم هذه الكتب ، ما تلحن فيه العامة للكسائى (ت ١٨٩ هـ) ، وإصلاح المنطق لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) ، وأدب السكاك لابن قتيبة (ت ٢١٦ هـ) ، ودرة الغواص للحريرى (ت ٥١٦ هـ) ، والتكملة للجوالقى (ت ٥٢٩ هـ) ، وتقويم اللسان لابن الجوزى (ت ٥٧٩ هـ) ويرجع قسم كبير من المادة المسجلة فى كل كتاب من هذه الكتب إلى مؤلف كل كتاب منها ، ولذا يمكن التعرف منها على جوانب الاستخدام اللغوى فى جنوب العراق من القرن الثانى حتى القرن السادس الهجرى .

وقد وصلت إلينا من المغرب والاندلس وصقلية مجموعة كتب فى لحن العامة والتثقيف اللغوى . وأقدم هذه الكتب « لحن العوام » لآبى بكر الزيدى (ت ٣٧٩ هـ) وهو كتاب أندلسى ، ولكن أكبر هذه الكتب هو كتاب « تثقيف اللسان » لابن مكى الصقلى (ت ٥٥١ هـ) الذى يصور لهجة صقلية العربية آنذاك . وقد وصل من تونس كتاب بعنوان « الجمانة فى إزالة الرطانة » منسوباً لابن الامام (ت بعد ٨٢٧ هـ) .

وأما مصر والشام فلا نعرف عنهما كتاباً فى لحن العامة والتثقيف اللغوى إلا من القرنين التاسع والعاشر للهجرة . فسكتب ابن العنبل (ت ٩٧١ هـ) قد تكون المصدر الوحيد للتعرف على لهجة الشام فى العصر الإسلامى وما تزال أكثر هذه الكتب مخطوطة (١) . والآثر المصرى الوحيد الذى وصل إلينا فى لحن العامة

(١) المرجع السابق ص ٢٩٣ وما بعدها .

هو « كتاب دفع الأصر على كلام أهل مصر » ليوسف المغربي (ت ١٠١٩ هـ) .
وقد حاول ابن الخنبلي والمغربي أن يبحثا جوانب من لهجة الشام ومصر بهدف
إثبات عروبتها والدفاع عنها ، وبذلك تختلف هذه الكتب عن مجموعة كتب لحن
العامة المؤلفة في العراق والاندلس .

٩ - كتب الموضوعات الصوتية :

اهتم اللغويون العرب بتأليف الكتب والرسائل في القلب والإبدال من جانب ،
وفي الضاد والظاء من الجانب الآخر . ويرجع التركيز على كلا الموضوعين إلى كون
اللهجات العربية كانت تمتد للغويين بمادة ثرية فيهما .

فهناك عدة مئات من الكلمات العربية ، عرفت اللهجات العربية القديمة كل
كلمة منها في عدة صيغ ، كل صيغة منها في صوت بعينه ، وذلك مثل : هتن/هتل .
وقد ألفت عدة كتب تناول هذه الصيغ ، وأهم هذه الكتب : القلب والإبدال
لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) ، والإبدال والمعاقبة والنظائر الزجاجي (ت ٣٣٧ هـ) ،
كتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) .

وقد أدى الخلط بين الضاد والظاء في اللهجات العربية الوسيطة إلى اهتمام كثير
من اللغويين بتأليف رسائل لغوية تضم الالفاظ التي يرد فيها أحد الصوتين . ومن
أهم من ألف في الفرق بين الضاد والظاء : أبو عمر الزاهد (ت ٥٣٤ هـ) ، والصاحب
بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) ، وأبو الحسن الصقلي (ق ٥٥٠ هـ) . وأبو القاسم الزنجاني
(ق ٥٥٠ هـ) ، والحريري (ت ٥٥٦ هـ) وغيرهم .

الفصل السابع

المنهج المقارن وتصنيف اللغات

١ - تصنيف اللغات :

قسم اللغويون الأوروبيون في القرن التاسع عشر اللغات المختلفة إلى مجموعات فهناك أسرة اللغات الهندية - الأوروبية التي تضم عدداً كبيراً من اللغات المنتشرة في منطقة شاسعة من الهند وإيران إلى أوروبا ، وهناك أسرة اللغات السامية التي تنتهي إليها اللغة العربية ، وإلى جانب هاتين الأسرتين الكبيرتين هناك أسر لغوية كثيرة أخرى . ويقوم تصنيف اللغات إلى أسر على أساس أوجه الشبه بين هذه اللغات من الجوانب الصوتية ، والصرفية والنحوية والمعجمية^(١) . قد يحدث تغير في المكونات الصوتية يجعل لغة من اللغات تختلف في مرحلة من مراحل تطورها عن اللغة الأم التي انحدرت عنها ، وهنا يحاول اللغويون تسجيل

(١) حول المنهج المقارن وتصنيف اللغات ، انظر :

R. H. Robins, A short History of Linguistics. London 1967.

وقد خصص المؤلف روبنز الفصل السابع من الكتاب المذكور لبيان تطور

المنهج المقارن :

Comparative and historical Linguistics in the nineteenth Century.

S. Potter, Language in the Modern World. Pelican 1969. 10,
144 — 162.

B. E. Vidos, Handbuch der romanischen Sprachwissenschaft.
München 1968 s. 37 — 56.

هذا التغير الصوتي ويطلق عليها اسم « القوانين الصوتية » ، وقد تنمو الصيغ الصرفية وتغير أشكالها وتنشأ من العناصر القديمة كلمات جديدة ، وهذا يبحث اللغويون مدى الاتفاق والتشابه في الصيغ الصرفية بين اللغات المندرجة في أسرة لغوية واحدة بهدف إثبات اتجاهات التغير الصرفي . ومثل هذا يقال بالنسبة للتغير الدلالي فإن دلالة الكلمات تتغير وتختلف بشكل ما في اللغات المختلفة التي خرجت عن أصل واحد مشترك ، وهنا تكون مقارنة الكلمات المشتركة بدلالاتها المتغيرة في لغات الأسرة الواحدة موضوعاً من موضوعات البحث المقارن .

إن تصنيف اللغات إلى أسرات يعني أن اللغات المندرجة في أسرة لغوية واحدة ترجع إلى لغة واحدة ، هي الأصل الذي تفرعت عنه لغات الأسرة كلها . فعندما يقال بأن العربية والآرامية لغتان ساميتان ، فالمقصود أن اللغتين من أصل واحد ، وأنها تطورتا عن لغة واحدة هي اللغة السامية الأولى وقد افترض العلماء وجود هذه اللغة في عصور مفرقة في القدم لتفسير انتهاء اللغات العربية والآرامية والحبشية إلخ . إلى أسرة لغوية واحدة وعندما يذكر الباحثون أن اللغتين العربية والفارسية من أصلين مختلفين : العربية سامية والفارسية هندية أوروبية ، فالمقصود أن كليهما تطورت عن أصل مستقل وأنها بذلك من أسرتين لغويتين مختلفتين . وتكون الفارسية مع عدد من اللغات في الهند وأوروبا أسرة لغوية كبيرة ، هي الأسرة الهندية - الأوروبية . لقد أدت الدراسة اللغوية المقارنة في القرن التاسع عشر إلى تصنيف اللغات على أساس أوجه الشبه بينها . وكلما زادت أوجه الشبه بين لغتين أو أكثر ، عدت هذه اللغات الأكثر تشابهاً فرعاً لغوياً في إطار الأسرة اللغوية الواحدة . وبهذا المعنى يذكر الباحثون العربية الشمالية والعربية الجنوبية واللغات السامية في الحبشة باعتبارها تكون الفرع الجنوبي من أسرة اللغات السامية ، لأن هذه اللغات أكثر تشابهاً ، وتشارك في صفات أكثر من الصفات التي تشارك فيها مع باقي اللغات السامية . وتنقسم الأسرة الهندية - الأوروبية بدورها إلى عدة أفرع ، فإذا قارن أحد الباحثين اللغة الأردية باللغة الفرنسية مثلاً لم يستطع أن

يتبين أوجه شبه تذكر، ولكن أوجه الشبه تتضح بمقارنة اللغات الفرنسية والإيطالية والاسبانية والرومانية ترجع هذه اللغات إلى أصل واحد هو اللاتينية ، ولذا تكون هذه اللغات فرعاً واحداً من أفرع الأسرة الهندية - الأوروبية وهو الفرع الروماني وهناك أوجه شبه كبيرة بين الإنجليزية والألمانية وغيرهما من لغات الفرع الجرمانى من الأسرة الهندية الأوروبية. تتضح أوجه الشبه بصورة متزايدة كلما كانت النصوص موضع البحث قديمة ، ولذا فقد أمكن عن طريق مقارنة اللغات الأقدم فى كل فرع من أفرع الأسرة الهندية - الأوروبية إثبات أن هذه اللغات من أصل واحد هو اللغة الهندية - الأوروبية الأولى . وكانت مهمة البحث بعد ذلك بيان أوجه الاختلاف بين هذه اللغات وتفسير ذلك بقوانين تاريخية^(١) .

يقوم علم اللغة المقارن على دراسة مجموعة اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة وليس المقصود بذلك القدرة على التحدث بهذه اللغات القديمة والحديثة أو القدرة على الكتابة بهذه اللغات ، بل المقصود ببحث هذه اللغات . فعلى الرغم من ضرورة معرفة الباحث المقارن بكل اللغات موضع المقارنة فعليه أن يبحث بشية ومعمج هذه اللغات بهدف إيضاح العلاقات التاريخية التى تربط لغات الأسرة الواحدة وأن يفسر هذه العلاقات بقوانين ثابتة مطردة . لقد أثبت تاريخ الحضارة فى الشرق والغرب أن مجرد المعرفة باللغات المتشابهة والمختلفة لا يعنى بالضرورة قياس بحث مقارن فيها ، فلم تؤد معرفة كثير من العلماء على مدى القرون بعدة لغات إلى قيام

(١) حول ملاحم واتجاهات التغير اللغوى :

H. Paul, *Prinzipien der Sprachgeschichte*. 1886, Tübingen 1960.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية :

Principals of the History of Language. London 1899.

دراسات مقارنة بالمعنى الذى حدث فى القرن التاسع عشر . فى العصور الوسطى كان كثير من العلماء يؤلفون بلغات ويتحدثون فى حياتهم اليومية بلغات أخرى .

٢ - العرب واللغات الأجنبية

فى إطار الحضارة العربية الإسلامية كان كثير من النحويين واللغويين يؤلفون بالعربية ويعرفون الفارسية أو التركية . فسبويه صاحب أقدم كتاب وصل إلينا فى النحو العربى كان يعرف الفارسية^(١) ، والسيرافى مؤلف أقدم شرح وصل إلينا على كتاب سبويه نشأ أيضاً فى بيئة لغوية فارسية^(٢) ، أما أبو الفرج بن العبرى (المتوفى ١٢٨٦ م) فكان يعرف العبرية وألف بالسريانية والعربية . كان ابن العبرى مؤرخاً ولغوياً اهتم بمجهود النحاة العرب ودرس المفضل^(٣) ، للزحشرى ، وألف فى النحو السريانى على غرار المفضل^(٤) . أما النحاة اليهود فى الأندلس

(١) حول سبويه ومعرفة الفارسية ، الكتاب ٣/٢٤٢ .

(٢) لشأ السيرافى فى منطقة جنوب غرب إيران المواجهة لدولة عمان الحالية وكانت المنطقة التى نشأ بها تستخدم الفارسية كما تتعامل مع باقى أنحاء الدولة الإسلامية بالعربية . ولم يكن السيرافى من العرب الذين هاجروا إلى هذه المنطقة بل كان أبوه فارسياً بجوسياً أسلم وتغير اسمه . وتدل القرائن ونصوص الرحالة الجغرافيين على أن سكان هذه المنطقة كانوا يعيشون فى بيئة ثنائية اللغة ، حول سيرافى انظر كتاب المسالك للاصطخرى (ليدن ١٨٧٠) ص ١٤٨ ، أحسن التقاسيم للمقدسى (ليدن ١٩٠٠) ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٤٢٢ .

(٣) حول الجهود النحوية لأبى الفرج بن العبرى ، انظر :

Oeuvres grammaticales d'Abou 'L faradj dit Bar Hebraeus
épitées par M. L'abbé Martin. Paris 1872.

Barhebraeus Buch der Strahlen.

=

الإسلامية فقد درسوا النحو العربي ، وألفوا نحو للأمبرية على أساس معرفتهم بمنهج التحليل النحوي عند العرب^(١) . وإلى جانب هؤلاء جميعاً كان النحوي العربي أثير الدين بن حيان رائد التأليف في النحو التركي ، وربما كان أيضاً أول مؤلف في النحو الحبشي^(٢) .

= ويضم هذا الكتاب ترجمة لكتاب اللمع إلى اللغة الألمانية أعدها A. Moberg وآخر تحقيق للنص السرياني لهذا الكتاب .

Le Livre des Splendeurs la grande grammaire de Grégoire Barhebraeus, texte Syriaque éd. et notés par Axel Moberg, Lund 1922.

(١) حول النحاة العبريين في العصور الوسطى ، انظر :

H. Hirschfeld, Literary history of Hebrew grammarians and lexicographers.

London 1926, 7.

P. Wechter, Ibn Baran's Arabic works on Hebrew grammar and lexicography, Philadelphia, 1964.

(٢) حول أبي حيان النحوي ومؤلفاته :

أبو حيان النحوي للنديجة الحديثي ، بغداد ١٩٦٦ .

ومنهج السالك في الكلام على الفية ابن مالك ، تحقيق : سدي جليزر :

S. Glaser. New Haven 1946.

وقد ألف أبو حيان في نحو عدد من اللغات غير العربية :

١ - الأفعال في لسان الترك (ذكره في الادراك) .

٢ - الادراك لسان الأتراك (موجود في مخطوط بالقاهرة ، وطبع بتركيا

١٣٠٩) .

= ٣ - زهر الملك في نحو الترك (مفقود) .

وفوق هذا فقد عرف ابن حزم القرابة اللغوية بين العربية والعبرية والسريانية وشبه هذه القرابة بقرابة لهجات اللغة الواحدة . قال ابن حزم : « الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لالغة حمير لغة واحدة تبدلت مساكن أهلها ، تحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نعمة أهل القيروان ومن القيرواني إذا رام نعمة الأندلسي . ونحن نجد من سمع لغة أهل لحس البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كأد يقول إنها لغة أخرى غير أهل قرطبة . وهكذا في كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله . . . وإذا تعرب الجليلي أبدل من العين والحاءاء فيقول مهيدا إذا أراد أن يقول محمدا . ومثل هذا كثير . فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل ،^(١) وهكذا أتبع لبعض النحاة والمفسرين في الدولة الإسلامية أن يعرفوا لغات متناهية ، ومن أصل واحد مثل العربية والعبرية والسريانية ، وأن يعرف بعضهم إلى جانب العربية لغات أخرى تختلف ببنيتها عن بقية اللغات السامية

== ٤ — منطق الخرس في لسان الفرس (مفقود) .

٥ — نور الغبش في لسان الحبش = جلاء الغبش عن لسان الحبش

(مفقود) قارن البحر المحيط ١٦٢/٤ — ١٦٣ .

٦ — المخبور في لسان البشمور = المخبور في لسان البحمور (مفقود) ولم

نستطع التعرف على تلك اللغة التي أشار إليها أبو حيان بكتابه هذا . انظر : خديجة الحديثي ١٧٦ — ١٨٧ . وانظر كذلك النص الهام : « وقد اطلعت على جملة من اللسان كلسان الترك ولسان الفرس ولسان الحبش وغيرهم وصنفت فيها كتباً في لغتها ونحوها وتصريفها » ، منهج السالك ٢٣٠ .

(١) الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم (ط القاهرة د . ت) راجعه :

أحمد شاكر ٣٠/١ .

مثل اللغة الفارسية ، وهى لغة هندية أوروبية ، واللغة التركية وهى لغة تنتمى إلى مجموعة لغوية أخرى .

٣ - الاوربيون والمقارنات

وفى إطار العصور الوسطى اللاتينية كان النحو أحد الفنون السبعة أى العلوم التى تناولها التدريس والشرح والتعليق فى كل أنحاء غرب أوروبا^(١) . وكان كثير من أبناء المنطقة الحضارية اللاتينية منتمين أيضاً إلى بيئات لغوية تختلف لغاتها عن اللاتينية اختلافاً بعيداً ، ولانتم إليها إلا بصلة قرابة بعيدة . اهتم عدد من المؤلفين المنتمين للبيئات اللغوية الإنجليزية والإيسلندية والألمانية إبتداء من القرنين السابع والثامن للميلاد بتأليف المعاجم البسيطة للغة اللاتينية مع الالفاظ المقابلة بلغة أخرى مثل الإنجليزية القديمة ، كما اهتموا بالتأليف فى النحو اللاتينى^(٢) .

(١) الفنون السبعة : Seven Liberal Arts ، هى النحو والجدل والبلاغة من جانب والموسيقى والحساب والهندسة والفلك من الجانب الآخر . وقد أطلق علماء العصور الوسطى اللاتينية على العلوم الثلاثة الأولى trivium وعلى العلوم الاربعة الأخيرة quadrivium ، ويرجع المصطلحان كما يرجع التصنيف إلى العالم السياسى الرومانى Boethius فى أواخر القرن الخامس الميلادى أنظر أيضاً :

R.H. Robins, A short History of Linguistics. p. 69.

J. Koch (ed.), Artes liberales. Leiden 1946.

(٢) من أقدم الجهود فى النحو اللاتينى فى أواخر القرن العاشر الميلادى :

Aelfric's, latin grammar and colloquium .

وقد كان المؤلف أحد رجال الدين الذين اهتموا بتعليم اللاتينية للتلاميذ الانجليز من أبناء اللغة الانجليزية القديمة (الانجلو - سكسونية) ، انظر المرجع المذكور ص ٧٠ . وكذلك تحقيق هذا الكتاب مع المعجم :

J. Supitza (ed.) , Aelfrics Grammatik and Glosser, Berlin 1880 (Sammlung englischer Denkmäler I) .

وقد ذكر روبنز فى كتابه المذكور كتاباً لنحوى ايسلندى غير معروف ، انظر

ص ٧٢ وما كتبه حول : First grammatical treatise

كان هؤلاء المؤلفون يتعاملون في حياتهم اليومية بلغات تختلف عن اللاتينية اختلافا بعيدا ولكنها تمت إليها بصلته قرابة بعيدة . وعلى الرغم من هذا فلم تؤد معرفتهم بهذه اللغات إلى بحث بنيتها وبينان أوجه الشبه والخلاف أو العلاقات التاريخية بينها . وكل ما عرفه أولئك العلماء بمجموعة ملاحظات عابرة لا تنظم في إطار نظرية علمية . وبدأت أقدم محاولات الباحثين الأوروبيين للتعرف على علاقات القرابة بين اللغات في القرن الرابع عشر الميلادي ، فقد أدرك دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) ببحث عدد من المفردات في اللغات الأسبانية والبرفسالية والفرنسية والإيطالية أن هذه اللغات ترجع إلى أصل واحد . ولكن دانتي لم يجعل هذه اللغات متفرعة عن اللاتينية ، لأنها في رأيه لغة مصنوعة صنعها العلماء ليتعاملوا بها وأنها لم تكن لغة حية طبيعية في وقت من الأوقات . وإذا كان البحث العلمي قد أثبت خطأ هذا الرأي وأوضح أن اللغات الرومانية المختلفة إنما تطورت عن أصل واحد هو اللاتينية الشعبية ، أي اللاتينية في صورتها المنظورة ، فإن أهمية رأي دانتي ترجع إلى تصنيفه لهذه اللغات في إطار واحد^(١) . وهناك محاولات كثيرة تالية لتصنيف اللغات الأوروبية المختلفة في مجموعات ، ولكن قصور هذه المحاولات يرجع إلى كونها قامت على دراسة المفردات ولم تقم على دراسة البنية الصوتية والصرفية والنحوية . وقد صنف سكاليجر Scaliger (١٥٤٠ - ١٦٠٩) اللغات الأوروبية إلى أربع مجموعات رئيسية . وهي المجموعة الرومانية والمجموعة اليونانية والمجموعة الجرمانية والمجموعة السلافية . وأضاف إلى هذه المجموعات سبع مجموعات فرعية تدخل فيها باقي لغات القارة الأوروبية . وتدخل الفنلندية والمجرية وهما من غير اللغات الهندية - الأوروبية

(١) جاء هذا في بحث دانتي :

Dante, De Vulgari Elequentia l 8.

وكذلك -

B. E. Vidos, Handbuch der romanischen Sprachwissenschaft, 23.24

Munchen 1968.

في هذه المجموعات الفرعية^(١) . ولكن نجاخ سكاليجر ومؤلفي المعاجم المتعددة اللغات في القرن السابع لم يتجاوز مجرد التصنيف ، فلم يتجاوز هؤلاء تصنيف المفردات ولم يبحثوا المراحل الاقدم لهذه اللغات من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية . ولذا كان عملهم مجرد ملاحظات جزئية كثيرة لم يخرجوا منها بقواعد هامة أو بقوانين توضح الفروق بين اللغات الاقدم واللغات الاحداث وتفسر مسار التغير اللغوي . لم يحاولوا أبدا استنتاج العلاقات القديمة ، ثم المفارقة في القدم بين هذه اللغات . وظل هؤلاء المؤلفون أمروى الفكرة الموروثة عن العهد القديم القائلة بأن العبرية هي أصل لغات الارض . وهكذا كان الاطمئنان إلى صحة هذه الفكرة معوقا أمام جهـد هؤلاء العلماء في النظر إلى المراحل الموعلة في القدم تاريخ اللغات .

٤ - نشوء علم اللغة المقارن :

لقد بدأ التقدم الحقيقي في علم اللغة المقارن في القرن التاسع عشر بعد أن اكتشف الأوروبيون اللغة السنسكريتية^(٢) ، وهي لغة تراث الهند القديم . إن السنسكريتية لم تمت ، وما يزال بعض العلماء الهنود يقرأون نصوصها ويؤلفون بها . لاحظ

(١) أنظر روبنز : R.H. Robins, p. 167.

وقد أطلق سكاليجر على كل مجموعة من هذه المجموعات مصطلح Muttersprache أي اللغة الأم باعتبار أنها اللغة التي خرجت منها لغات أخرى .

(٢) يطلق الباحثون الأوروبيون على معرفة الغرب لأول مرة للغة السنسكريتية إعادة اكتشاف اللغة السنسكريتية ، رغم أنها كانت معروفة بصورة مطردة عند عدد من العلماء الهنود .

وأول أوربي ذكر في العصر الحديث السنسكريتية هو Sir William Jones وكان قاضيا انجليزيا في البنغال . (1746.94)

اللغويون الآوريون الشبه الواضح السنسكريتية باللغات الآورية القديمة . ولا تقتصر أوجه الشبه على طائفة من المفردات المتشابهة ، فالألفاظ تنتقل في يسر من لغة إلى أخرى . ولكن الباحثين ركزوا جهدهم على إيضاح جوانب الشبه في بنية اللغة السنسكريتية واللغات الآورية القديمة من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية .

ومر البحث اللغوي المقارن بعد بدايته الموفقة مع اكتشاف السنسكريتية بعدة مراحل مضى فيها شياً فشيئاً نحو استخراج القوانين التاريخية للتغير اللغوي . كان شليجل F. Schlegel أول من طالب بدراسة البنية اللغوية للغة السنسكريتية باعتبارها منطلقاً للمقارنات اللغوية (١) ، لقد درس شليجل اللغة السنسكريتية . وكان إعجابه بها على نحو إعجاب الرومانتيكيين الألمان بكل شيء قديم وغريب ، ورأى اللغات الآورية القديمة مثل الإغريقية واللاتينية والجرمانية من أصل سنسكريتي . كان شليجل سعيه كل السعادة باللغة السنسكريتية وكأنه قد توصل بها إلى طفولة البشرية وإلى اللغة القديمة النقية والاصيلة . وقد أحرز علم اللغة المقارن في الأجيال التالية لشليجل تقدماً مطرداً حقق للبحث اللغوي درجة من الدقة والعلمية ، وخفت نشوة الوهم بالهند والسنسكريتية وبوم أنها هي الأصل النقي القديم . كان فرانتس بوب F. Bopp أول من ألف كتاباً جاداً في علم اللغة المقارن ، فصدر كتابه النحو المقارن ١٨٣٣ - ١٨٥١ . كان فرانتس بوب يرى الهدف من النحو المقارن إعادة تكوين اللغة الهندية - الآورية الأولى ، ولم يكن يرى رأى شليجل أن السنسكريتية أصل كل اللغات الهندية الآورية . فحاول بوب أن يستخرج ملامح اللغة الهندية - الآورية الأولى اعتماداً على مقارنة اللغات الآورية المختلفة والمضى من المراحل القديمة إلى المراحل الأقدم في محاولة للتعرف على اللغة الأقدم

(١) أنظر كتاب فردريخ شليجل .

F. Schlegel, Über die Sprache und Weisheit per Indier.

Heidelberg 1808.

في محاولة للتعرف على اللغة الأقدم التي خرجت عنها كل هذه اللغات (١) . وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر كان هدف البحث المقارن التوصل إلى اللغة الأقدم ، ولذا كان البحث مرتبطاً بالنصوص المدونة ، حاولوا بحث النصوص المختلفة التي وصلت إليهم باللغات الهندية الأوروبية عبر التاريخ محاولين الوصول عبر أقدم هذه النصوص إلى اللغة الهندية الأوروبية الأولى . ولم يكن هناك اهتمام جاد بدراسة اللهجات الحية — أول الأمر — ولكن الباحثين تبينوا بعد ذلك أهمية بحث اللهجات الحديثة في إطار علم اللغة المقارن . أى أنهم بحثوا اللهجات لا باعتبارها هدفاً في ذاتها أو موضوعاً متكاملاً في ذاته ، بل باعتبارها أداة توضح جوانب من التاريخ اللغوي القديم أى أنها كانت وسيلة لفهم الماضي (٢) .

ودخل علم اللغة المقارن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مرحلة جديدة ، خبث فيها الروح الرومانتيكية ، ونزع فيها البحث اللغوي إلى العلمية وتطوير المناهج الدقيقة في التصنيف والتفسير واستخراج القوانين الدقيقة ، على نحو ما فعل الباحثون في العلوم الطبيعية . تأثر علم اللغة في هذه المرحلة بالداروينية تأثراً بعيداً . كان اللغوي شلايشر متخصصاً أيضاً في العلوم البيولوجية ، أعجب بأراء دارول في تطور الكائنات ، وألف في محاولة نقل فكرة التفسير التطوري التاريخي في علم اللغة كتاباً بعنوان : نظرية دارون وعلم اللغة (٣) . وقد عد شلايشر نفسه عالماً طبيعياً يبحث اللغة لا بوصف

(١) من أهم مؤلفات فرائنس بوب المبكرة :

F. Bopp Über das Conjugationssystem der Sanskritsprache in Vergleichung mit jenem der griechischen, lateinischen, persischen und germanischen Sprache. Frankfurt 1816.

(٢) أنظر B. E. Vidos Handbuch, S. 26

وكذلك ص ٣٠ وبها إشارة إلى جهود الباحث الإيطالي G. I. Ascoli (1873)

(٣) أم كتب شلايشر

A. Schleicher, Die Darwinische Theorie und die Sprachwissenschaft. Weimar 1863.

مظهرها الخارجى ، بل بتاريخ جزئيات ظواهرها وتعليل نشوء هذه الجزئيات بقوانين ثابتة . وإذا كان علماء النبات قد نجحوا فى تصنيف النباتات إلى أسرات اعتماداً على بنيتها ومكوناتها ، ووضعوا بذلك مجموعة من قوانين التغير التاريخى - فإن شلايشر حاول أن يتوصل بهذا المنهج فى بحث اللغات . ويعد كتاب شلايشر فى النحو المقارن للغات الهندية - الأوربية^(١) من أهم الكتب التى جمعت من علم اللغة علماً دقيقاً يحاول تفسير التغير بقوانين واضحة . وكان لهذا الكتاب أثر مباشر فى قيام مدرسة النحاة الشبان Junggrammatiker^(٢) . وينتمى إلى هذه المدرسة أهم اللغويين الألمان فى الثالث الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . وأعلام هذه المدرسة لسكين A. Leskien وأوستهوف H. Osthoff وبروجمان K. Brugmann فى مجال علم اللغات الهندية - الأوربية، وبيهم نولدكه^(٣) The Noldeke وبروكلمان^(٤) C. Brockelmann فى مجال علم اللغات السامية .

إن مدرسة النحويين الشبان أفادت من التقدم المتجهى فى العلوم الطبيعية وحاولت

(١) عنوان هذا الكتاب .

Compendium der vergleichenden Grammatik der indogermnischen Sprachen. kurzer Abriss seiner Laut- und Formenlehre der indogermnischen Ursprache. Weimar 1861.

(٢) أطلقت هذه التسمية على هؤلاء النحاة عندما كانوا فى فجر شبابهم ثم كما عليهم ثم أعجب بها هؤلاء الشبان فأطلقوها على أنفسهم ، وأكثر هؤلاء النحاة ولدوا فى منتصف القرن التاسع عشر مثل (ولد أوستهوف ١٨٤٧ ، وبروجمان ١٨٤٩) .

(٣) أنظر : J. Fuck, Die arabischen Studien in Europa, Leipzig 1955, s. 217-220

(٤) أنظر : محمود فهمى حجازى فى مقاله المنشور فى مجلة الكتاب العربى - القاهرة، إبريل ١٩٦٩ بعنوان : كارل بروكلمان بين التراث العربى وعلم اللغة المقارن .

استخراج القوانين المفسرة للذخير اللغوى ، وعرفت بالتزامها الصارم بفكرة القوانين الصوتية . وأفادت مدرسة التحويين الشبان فى مجال اللغات الشرقية أيضا من الكشف الأثرية الكثيرة التى تمت فى القرن التاسع عشر وأماطت اللثام عن لغات قديمة بائدة . ويكفى أن نذكر اللغات المصرية القديمة والآكادية والفينيقية والعربية الجنوبية باعتبارها أوضح الأمثلة فى الشرق . وبالإضافة إلى هذا وذلك فقد كانت حركة تحقيق النصوص القديمة ذات نتائج مباشرة . فأتاحت للغويين نصوصا كثيرة اعتمدوا عليها وعلى غيرها فى بحث اللغات . وتوسلوا فى هذا البحث بمنهج دقيق يهدف عن طريق القوانين التاريخية إلى تفسير العلاقات بين اللغات والمستويات اللغوية المختلفة القديمة والحديثة فى إطار الأسرة اللغوية الواحدة ، وفى ظل هذه الظروف نشأ علم اللغة المقارن فى اللغات الهندية الأوروبية ، ثم فى باقى الأسرات اللغوية .

الفصل الثامن

اللغات السامية بين اللغات الأفرو آسيوية

١ - اللغات الأفرو آسيوية :

يطلق مصطلح اللغات الأفرو آسيوية على مجموعة كبيرة من اللغات في غرب آسيا وشمال وشرق أفريقيا ، ومنها اللغات السامية^(١) . ويعني تصنيف مجموعة من اللغات في أسرة لغوية واحدة اشتراك هذه اللغات في عدد من الخصائص النحوية باعتبار هذه اللغات ترجع إلى أصل واحد تفرعت عنه ، ثم تباعدت خصائصها بعد ذلك على مدى التاريخ . ومعنى هذا أن اللغات العربية والآرامية والكنعانية والآرامية والحيتية

(١) انظر حول العلاقات بين اللغات الأفرو آسيوية في مفهوم جرينبرج :

J H. Greenberg, Languages of Africa. Indiana University 1966, pp. 42-65.

وحول توزيع اللغات السامية وخصائصها المشتركة ، انظر :

E. Renan, Histoire générale des langues sémitiques, Paris 1855.

Th. Noldeke, Die semitischen Sprachen, eine Skizze 1887.

(ترجمة : رمضان عبد التواب بعنوان : اللغات السامية ، القاهرة ٦٢) وقد

اعتمد على كتاب رينان المذكور على عبد الواحد وافي في كتابه : فقه اللغة (انظر مثلاً الطبعة الخامسة ١٩٢٢) .

Handbuch der Orientalistik, III, Semitistik.

وكتب مواد هذا الكتاب نخبة من المستشرقين منهم كارل بروكلمان واينوليمان

E. Littmann

تشكل فرعاً من أسرة لغوية كبيرة ، تضم أيضاً اللغات المصرية القديمة والبربرية والنشادية والكوشية . ويقوم تصنيف هذه اللغات في أسرة لغوية واحدة على أساس الخصائص المشتركة ، وكلما تقاربت هذه الخصائص بين لغتين أو أكثر كونهن اللغتان فرعاً لغوياً داخل الأسرة اللغوية ، وتقل الخصائص المشتركة بالضرورة كلما بحثنا العلاقات بين فرع لغوي وآخر ، ولكن وجود قدر مشترك من الخصائص بين هذه اللغات الباحثين المعاصرين يميلون إلى اعتبار اللغات السامية جزءاً من الأسرة اللغوية الأفرو آسيوية .

٢ - اللغات السامية

كان كثير من الباحثين الأوروبيين قد لاحظوا منذ قرون أوجه الشبه بين العربية والعبرية ، وكان العارفون بها وبالسريانية في عصر الحضارة الإسلامية قد أدركوا أن هذه اللغات متقاربة ، بل وعرف ابن حزم أنها من أصل لغوي واحد . وعندما بدأ بحث اللغة العربية في أوروبا في القرن السادس عشر بهدف قراءة العهد القديم في نصه العبري أفاد علماء اللاهوت من اللغة العربية لفهم بعض الجوانب الغامضة في النص العبري للعهد القديم . وهكذا ارتبطت بداية الاهتمام الأوروبي باللغة العبرية القديمة بحركة الإصلاح الديني التي نادت في هذا الصدد بضرورة بحث العهد القديم في نصه العبري لا في ترجماته اللاتينية . إن العهد القديم نص عبري ، ولكن به سفرين بالآرامية ، ولذا كان الاهتمام المبكر بالآرامية متوازناً بقدر هذه الصفحات الآرامية القليلة في العهد القديم . وبذلك تركز البحث في اللغات السامية القديمة في أوروبا على لغتي الاسفار الدينية وهما العبرية والآرامية . وتوسلوا في فهمها باللغة العربية التي كانت معروفة عند بعض الباحثين الأوروبيين بصورة مستمرة .

واتسعت دائرة الاهتمام باللغات السامية في القرن السابع عشر عندما بدأ البحث اللغوي في لغة الجوز ، أي الحبشية القديمة . بينما استمر الاهتمام بالعبرية والآرامية والعربية .

ولا شك أن العارفين بهذه اللغات قد لاحظوا أوجه شبه كثيرة بينها . فحاول
شلوتر Schlozer (١٧٩٨) تسمية هذه اللغات : العبرية والعربية والآرامية
والحبشية - باسم عام يجمعها ، ووجد في العهد القديم تقسيما للشعوب إلى أبناء
حام وأبناء سام وأبناء يافث .

لاحظ شلوتر أن أسماء هذه اللغات ينطبق إلى حد كبير على أسماء أولاد سام ،
فسمى هذه اللغات باسم اللغات السامية ^(١) .

(١) انظر رأى شلوتر في :

Aug. Ludwig Schlozer, Von Jen Chaldäern.

وقد ظهر هذا البحث سنة ١٧٨١ في :

J.G. Eichhorn, Repetorium für biblische und morgenländische
Litteratur VIII, Leipzig 1781, 161.

والواقع أن لغات الأرض لا يمكن أن تقسم على نحو ما جاء في الإصحاح
العاشر من سفر التكوين هذا التقسيم البسيط إلى ثلاث أسر لغوية فقط، فهناك
أسرات لغوية متعددة، وليس هناك دليل على قرابة هذه الأسرات الكثيرة .
لقد وجد شلوتر مصطلح اللغات السامية مناسباً ، واستقر هذا المصطلح بعد ذلك
على الرغم من اختلاف دلالة مصطلح اللغات السامية في البحث اللغوي عما جاء
حول أبناء سام في سفر التكوين . فكاتب سفر التكوين كان يقسم الشعوب
لاعتبارات سياسية ، فن صادقهم اليهود جعلهم من غير الساميين ، ولذا ذكر سفر
التكوين كنهان من غير أبناء سام في حين أن البحث الحديث يثبت أن الكنعانية
فرع من أفرع اللغات السامية . وذكر التكوين أن عيلام من أبناء سام ، وأثبت
البحث الحديث أن اللغة المعيلامية ليست من اللغات السامية . انظر عن العيلاميين
ولنتهم :

W. Hinz, Das Reich Elam. Stuttgart 1964.

ولكن إدراك العلاقات التاريخية بين هذه اللغات لم ينتظم على أساس منهجي واضح وفي إطار نظرية شاملة إلا بعد تصنيف اللغات الهندية الأوروبية . ففي القرن التاسع عشر نجح العلماء في تصنيف اللغات الهندية - الأوروبية بمنهج علمي واضح . وكان لهذا المنهج أثره المباشر عند الباحثين في اللغات السامية ، فحاولوا التوصل بنفس المنهج لتصنيف اللغات السامية . وفي نفس الفترة زاد الاهتمام بالأبحاث التاريخية والآثرية واكتشفت آلاف النقوش في أنحاء مختلفة من الشرق ، وكشفت هذه النقوش عن لغات قديمة بأدلة منها العربية الجنوبية والآرامية والفينيقية . وثبت أثناء بحث هذه اللغات القديمة أنها تشابه أيضا مع اللغات السامية المعروفة حتى ذلك الوقت . ويتضح اللقاء بين البحث في اللغات السامية المختلفة في عدة شخصيات فاللغوي الألماني جيزينيس Gosenois (١٧٧٦ - ١٨٤٢) ألف للعبرية نحواً ومعجماً ، واهتم أيضاً بالآرامية . وكان جيزينيس أول من نجح في فك أكثر رموز الخط المسند ، أي الخط الذي كتبت به النقوش اليمنية القديمة ، وقد أفاد الباحثون في القرن التاسع عشر من معرفتهم باللغات العربية والعبرية والآرامية والحبشية في فهم اللغات المكتشفة في النقوش . ولم تقتصر الأبحاث على لغات الكتب الدينية ولغات النقوش القديمة ، بل اهتم عدد من الأوروبيين - ولأسباب عملية غالباً - بدراسة عدد من اللهجات العربية الحديثة ، وبتدوين عدد من اللهجات الآرامية الحديثة واللغات السامية الحديثة في الحبشة . وبكل هذه الأدوات أتيح لعلماء القرن التاسع عشر ما لم يتح لمن سبقهم ، ففي منتصف القرن التاسع عشر كانت اللغات العربية والعبرية والآرامية والحبشية والعربية الجنوبية والفينيقية والآرامية معروفة للباحثين الأوروبيين ، وكان المنهج المقارن الذي صقلته أبحاث اللغات الهندية الأوروبية معروفاً لهم أيضاً . ومعنى هذا أن البحث المقارن في اللغات السامية بدأ بعد أن اتضحت لهم ملامح هذه اللغات وبعد أن اتضح لهم أيضاً منهج علمي لتصنيفها ومقارنتها .

٣ - اللغات السامية واللغة المصرية القديمة

كانت القرابة اللغوية بين اللغات السامية واللغات الأخرى القديمة والحديثة أحد

موضوعات البحث المقارن. لم يتم بهذا الموضوع لصعوبته إلا عدد قليل من العلماء، ورغم هذا فقد طرحت فيه منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر عدة فروض، تتفق في جمل اللغات السامية فرعا من أسرة لغوية أكبر. كان بعض الباحثين قد لاحظوا أن اللغات السامية — بالمعنى الضيق للكلمة — ليست مختلفة كل الاختلاف عن لغة مصر القديمة، وقد افترض بروجش (١٨٦٧)^(١) أن اللغة المصرية القديمة لغة سامية وفسر إرمان أوجه الشبه بين اللغات السامية واللغة المصرية القديمة بأن هذه اللغة قد انفصلت في وقت مبكر عن الأسرة السامية، وشقت طريقها وحدها عدة آلاف من السنين^(٢) وشيبه بهذا أمر العلاقة بين اللغات السامية وتلك اللغات المسماة بالحامية. كان البعض يجعل: لغات البربر، والنوبة، ولغة الهوسا، والفلوبيا، واللغات الكوشية، مثل: لغات البشارية، والبيجه، والماهو، والجالالا، والصومالية وغيرها ضمن أسرة لغوية واحدة، أطلقوا عليها اسم الأسرة الحامية. وقد أدت دراسة أوجه الشبه بين هذه اللغات واللغات السامية إلى افتراض أنها جميعا تكون أسرة لغوية كبرى واحدة، وأن اللغات الحامية قد انفصلت عن اللغات السامية^(٣) في وقت مفرق في القدم، فشق كل فرع لغوي طريقه المستقل في التغير اللغوي. ويقول هذا الرأي أيضا بأن اللغة المصرية القديمة قد انفصلت عن الأسرة

(١) انظر :

Brugsch, Hieroglyph - demot. Wörterbuch 1, 1867, IX.

(٢) انظر بحث إرمان Erman المنشور في : ZDMC 46, 125 ff.

(٣) انظر الدراسات التالية :

Prätorius. Über die hamitischen Sprachen Ostafrikas, Beiträge zur Assyriologie, II 312-41.

A. Meillet, M. Cohen, les langues du Mond. Paris 1928.

وفي هذا الكتاب عرض مفصل للغات الحامية السامية :

M Cohen, Essai Comparatif du chamitosemitique. Paris 1947.

الكبرى في مرحلة تالية ، واحتفظت لذلك بقدر أكبر من الملامح المشتركة مع اللغات السامية .

٤ - اللغات السامية واللغة الليبية القديمة

وفي السنوات الأخيرة اهتم اللغوي الألماني روسلر ببحث لغة النقوش الليبية القديمة المسماة بالنقوش النوميديّة^(١) . وأثبت روسلر بما لا يقبل الشك أن اللغة النوميديّة لغة سامية انفصلت عن اللغات السامية في الشرق في مرحلة معرفة في القدم، ثم تطورت بعد ذلك في اتجاه خاص جعلها تختلف إلى حد كبير عن باقي اللغات السامية^(٢) . واستطاع روسلر أن يفسر كثيرا من الجوانب الصوتية والصرفية والمعجمية في اللغة النوميديّة القديمة ، باعتبارها تغيرات حدثت فيها بعد انفصالها عن الأصل القديم المشترك . لاحظ روسلر عدم وجود أصوات حلق في اللغة النوميديّة ، ولكنه فسر هذا باعتبار أن النوميديّة عرفت أصوات الحلق قديما بدليل وجودها في اللغة الصومالية التي تمت بصلة قرابة مباشرة للغة الليبية القديمة . فوجود أصوات الحلق في الصومالية دليل على أنها كانت موجودة في اللغة النوميديّة في أقدم مراحلها . وقد أوضح روسلر اشتقاق كثير من الكلمات النوميديّة على أساس المقارنة باللغات السامية في المشرق ، فكلمة « بن » بكسر الباء أو ضمها تعني في النوميديّة واللغات البربرية التي تطورت عنها ما يعبر عنه في اللغات السامية المشرقية

(١) حول خصائص اللغة النوميديّة ، انظر :

O. Rösler, Die Sprache Numidiens. Festschrift Hans Krahe.

(٢) انظر كذلك بحث روسلر Rösler عن الطابع السامي للغة الليبية :

Der Semitische Charakter der libyschen sprache.

المنشور في : Zeitschrift für Assyriologie العدد ٥٠ .

كذلك البحث التالي : Libisch — Hamitisch — Semitisch :

المنشور في : Oriens Vol. 17, 1964, S. 199-216.

بكلمة « بيت » ، ومعنى هذا أن اللغة النوميديّة اشتقت من المادة اللغوية الخاصّة بالبناء كلمة تدل على البيت ، بينما اشتقت اللغات السامية المشرقية من نفس المادة اللغوية كلمات تدل على الاتصال الجنسي بالمرأة والإنجاب منها . ونجد كلا المعنيين في المادة العربية « بنى » : بنى البيت ، بنى بالمرأة ، فكأى الفعل العرفى « بنى » ضم المعنيين : بناء البيت ، والبناء بالمرأة أى الدخول بها والإنجاب . أما الكلمة العربية « بيت » فترتبط بالفعل « بات » أى قضى الليل ، أى أنها من مادة لغوية مخالفة . وثبتت المواد اللغوية النوميديّة التى بحثها روسلر أن اللغة النومية لغة سامية قديمة ، ولسكنها خضعت لمؤثرات إفريقية جعلتها تتخذ طابعها الخاص المتميز .

وهكذا أوضحت الأبحاث حول اللغات السامية بالمعنى الضيق ، واللغة المصرية القديمة ، واللغة النوميديّة أو الليبية القديمة أوجه الشبه بين كل هذه اللغات وترجع صعوبة البحث فى هذا الموضوع إلى طبيعة المادة المدونة المتاحة ، فالمادة المتاحة باللغة المصرية القديمة مدونة فى أكثر الأحوال بخط صورى لا يعكس الخصائص الصوتية ، والنقوش النوميديّة قليلة جداً . وتزيد هذه الصعوبة إذا أدخلنا فى مجال المقارنة اللغات الأخرى فى الأسرة الأفرو آسيوية ، ومنها اللغات التشادية (١) ومشكلة هذه المقارنات أنها لا يمكن أن تقارن بالمنهج التاريخى المقارن المتعارف عليه فى بحث اللغات القديمة ، فكثير من هذه اللغات لم يدون إلا منذ سنوات معدودة . ومن الطبيعى ألا يجد الباحث أوجه شبه كثيرة بين هذه اللغات القديمة البائدة والحديثة التى لم تكد تدون ، شأن هذا البحث شأن من يقارن اللغة الفرنسية واللغة الروسية المعاصرة باللغة السنسكريتيّة . وهذه مشكلة عامة فى تصنيف اللغات الإفريقية وغيرها من اللغات التى ليست لها نصوص قديمة مدونة . وقد أثبت اللغوى الأمريكى

(١) : انظر :

J.H. Greenberg, Languages of Africa. Indiana University 1066.
p 42-65.

جريتيرج وجود سمات بنيوية مشتركة في كل أفرع الأسرة الأفروآسيوية : السامية والبربرية ، والمصرية القديمة ، والكوشية ، والتشادية . وأهم هذه السمات : التمييز بين المذكر والمؤنث باستخدام التاء للتأنيث ، واستخدام التون الربط بين وحدتين صرفيتين ، مثل نون الوقاية في العربية ، ووجود الضمائر المتصلة ، واستخدام الواو كمصوت علة يسقط كثيرا ، وتكوين عددا من المشتقات بأبنية تبدأ بالميم مثل اسم المسكان واسم المفعول في العربية (١) . وكل هذه الدراسات الصعبة توضح أن اللغات السامية ليست أسرة لغوية مستقلة كل الاستقلال ، وأغلب الظن أنها تشكل فرعا من الأفرع الخمسة للأسرة الأفروآسيوية (٢) .

(١) المرجع المذكور ص ٤٦ - ٤٨ .

(٢) لا يدل مصطلح الأفروآسيوية عند جريتيرج على ما كان غيره يصفه بمصطلح الحامية السامية ، فهناك ، اختلافات بين رأيه في تصنيف اللغات ورأي الباحثين السابقين عليه . فاللغة الفولانية لا تدخل في تصنيف جريتيرج ضمن اللغات الأفروآسيوية ، بينما جعلها باحثون آخرون من اللغات الحامية . ولم يكن ثمة يقين حول انتماء لغة الهوسا إلى السامية - الحامية ، وقد أثبت جريتيرج أن لغة الهوسا وباقي اللغات التشادية تكون فرعا من أفرع المجموعة اللغوية الكبرى «الأفروآسيوية» . انظر المرجع السابق ص ٤٥ .

الفصل التاسع

الخصائص المشتركة بين اللغات السامية

١ - الاصوات :

اهتمت كتب النحو المقارن في اللغات السامية — وكما كتب أوربية — ببيان الخصائص التي تنسبها اللغات السامية . ومن الطبيعي أن تتناول هذه الدراسات الجوانب الصوتية — والصرفية والنحوية والمجمعية^(١) . وهناك أصوات لا تكاد تخلو منها أية لغة ، مثل : الاصوات الشفوية كالباء ، والميم ، والاصوات الانسانية : كالتاء والذال ، إلى جانب أصوات أخرى توجد في لغات ولا توجد في لغات أخرى .

وقد لاحظ الباحثون الآوريون أن اللغات السامية تضم مجموعة أصوات لا توجد في اللغات الآورية ، ولذا أبرزوا وجود هذه الاصوات في حديثهم عن الخصائص العامة للغات السامية ، والمقصود بهذه الاصوات مجموعة أصوات الحلق ومجموعة أصوات الاطباق .

(١) انظر :

C. Brockelmann, Grundriss 1 | 5

R. Meyer. Hebräische Grammatik, I, s. 17 ff Berlin 1966

B. Spuler, Der sem. Sprachtypus, in : Handbuch der Orientalistik, Band III.

I, s. 3-25 Von Soden Grundriss der Akkaischen Grammatik. Roma

19 69. s. 1-2 G. Bergsträsser, Einführung, s. 3-19.

أصوات الحلق مثل الغين والحاء والعين والحاء والهاء والهمزة في اللغة العربية. وهي تلك الأصوات التي تخرج من الحلق. وأصوات الاطباق مثل القاف والصاد والطاء وهي أصوات تشترك في سمّة واحدة تتلخص في اتخاذ اللسان شكلاً مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى ويرجع إلى الوراء قليلاً^(١)، والواقع أن هاتين المجموعتين موجودتان بدرجات متفاوتة في اللغات السامية المختلفة، فليست كل لغة سامية تضم كل الأصوات الحلقية والمطبقة الموجودة في العربية، فالعربية مثلاً تضم عدداً أكثر من أصوات الحلق وأصوات الاطباق بالمقارنة مع باقى اللغات السامية، وليست هناك لغة سامية واحدة تخلو من عدد من أصوات الحلق والاطباق. والمقصود هنا بوجود أصوات الحلق والاطباق كونها في اللغات السامية تكون وحدات صوتية متميزة، وتظهر هذه الحقيقة إذا قارنا ولو بصورة شكلية مباشرة أبة لغة سامية، ولتكن العربية مثلاً بأية لغة أوروبية. فنلاحظ عدم وجود هذه الأصوات الحلقية والمطبقة في اللغات الأوروبية كرموز صوتية متميزة، ولكن بعضها مثل الهمزة قد يسمع بصورة ما في بعض اللغات الأوروبية في اللغة الألمانية نسمع نوعاً من الهمز قبل نطق صوتي (a) في كلمة Abart، ورغم هذا فلا تشكل الهمزة هنا وحدة صوتية متميزة بل هي مجرد وسيلة نطقية لإبراز نطق الحركة. ولكن اللغات السامية تعرف الهمزة باعتبارها وحدة صوتية متميزة، ففي العربية مثلاً هناك فرق دلالي بين «سأل» و«سال». وشبهه بهذا أمر أصوات الاطباق التي ربما تسمع في كلمات معينة في اللغات الأوروبية ولكنها لا تشكل فيها أصواتاً متميزة وظيفياً.

ويميل أكثر الباحثين إلى اعتبار أصوات الحلق في اللغات السامية موروثاً عن اللغة السامية الأولى. واللغة العربية تعد بصفة عامة أصدق تعبيراً عن اللغة السامية

(١) إبراهيم انيس: الأصوات اللغوية ص ٥١.

الأولى . وتضم كل من العربية الشمالية والعربية الجنوبية ستة أصوات حلقية ، وتضم اللغات السامية الأخرى أصواتا حلقية بعدد أقل . فاللغة السامية الوحيدة التي تضم كل أصوات الحلق المعروفة في العربية الشمالية هي اللغة العربية الجنوبية القديمة أى لغة النقوش اليمنية ، ففي العربية الشمالية والعربية الجنوبية نجد نفس أصوات الحلق كاملة غير منقوصة . أما في المهرية ، وهي امتداد حديث للعربية الجنوبية القديمة ، فإننا نجد هذه الأصوات عدا صوتا واحداً لأن المهرية تخلو من العين كصوت متميز . ويقل عدد أصوات الحلق في اللغات السامية التي عرفت منطقة الشام قبل الإسلام ، فأصبحت الحاء في العبرية مثلاً تمثل الحاء العربية والحاء العربية معا ، وبذلك أصبح الصوتان المتميزان الحاء والحاء في اللغة السامية الأولى صوتاً واحداً هو الحاء في اللغة العبرية . وهكذا قلت أصوات الحلق في اللغات السامية في الشام قبل الإسلام وهناك لغة سامية فقدت أكثر أصوات الحلق ، وهي اللغة الأكادية في العراق القديم ، ولذا لم يبق في اللغة الأكادية من أصوات الحلق إلا صرتان حلقيتان هما : الهمزة والحاء . فقد حدثت في هذه اللغات تغيرات قللت عدد أصوات الحلق ، أما اللغة العربية فقد احتفظت بالمجموعة كاملة ، ولذا تعد العربية من هذا الجانب امتداداً مباشراً للغة السامية الأم .

أما أصوات الاطباق وهي في العربية : القاف ، والصاد ، والطاء ، والضاد ، والظاء ، فقد قل عددها أيضاً في اللغات السامية الأخرى ، وتوجد هذه المجموعة كاملة غير منقوصة في اللغة الجنوبية القديمة . وتضم كل اللغات السامية الأخرى عدداً أقل من أصوات الاطباق ، وأكثر هذه الأصواب ثباتاً الصاد والقاف والطاء ، فهذه الأصوات الثلاثة موجودة في كل اللغات السامية القديمة ، ولكن الضاد قد تعرضنا للتغير الصوتي في عدد من اللغات السامية ، فكل ضاد وكل ظاء وكل صاد عربية يقابلها مثلاً صاد في العبرية وبذلك حل صوت واحد في العبرية محل ثلاثة أصوات في العربية . ويلاحظ نفس الشيء في الأكادية فالصاد الأكادية تقابل ثلاثة أصوات عربية هي الصاد والطاء والضاد . أما اللغة الآرامية فقد كان

موقفها من الضاد جديراً بالملاحظة ، فقد تحولت الضاد الموروثة عن اللغة السامية الأولى في اللغة الآرامية مرة إلى قاف ثم إلى عين . وبعد هذا التحول من أصعب التحولات الصوتية تفسيرا . ولكن مقارنة أصوات الاطباق الموجودة في اللغات السامية المختلفة أثبتت أن أصوات الاطباق الموجودة في العربية تعد امتداداً مباشراً لأصوات الاطباق الموجودة في اللغة السامية الأولى . ويطلق على تلك التحولات القياسية التي طرأت على بعض الأصوات في اللغات السامية مصطلح « القوانين الصوتية » ، والمقصود بهذا المصطلح أن هذه التغيرات قياسية مطردة تسرى على كل الكلمات دون استثناء . وتعني كلمة قانون إظهار علم اللغة نفس معناها في العلوم الطبيعية ، فالقانون تفسير للظاهرة ، وليس وسيلة التحكم فيها ، فالقوانين الصوتية تفسر التغيرات الصوتية التي حدثت فعلاً ، فليس هناك قوانين تفرض على اللغات بل هناك قوانين تفسر ظواهرها .

٢ - بناء الكلمة

ويقوم بناء الكلمة في اللغات السامية على أساس الصوامت ويرتبط معنى المادة اللغوية في اللغات السامية بمجموع الصوامت التي تتكون كل مادة، وأكثر الكلمات في اللغات السامية تتكون من مادة ثلاثية . وقد عبر النحاة العرب عن هذه الصوامت بالفاء والعين واللام ، وتقوم فكرة الميزان الصرفي على أساس التمييز بين الحروف الاصول الممثلة في الميزان الصرفي بالفاء والعين واللام وبين ما يطرأ على الكلمة المفردة من تغيير بالإضافة أو الحذف^(١) ويرتبط معنى الكلمات الكثيرة المشتقة من المادة اللغوية الواحدة في اللغات السامية بالصوامت ، فالكلمات : كتب ، كنب ، كتاب ، مكتب ، مكتبة ، مكتبات ، تكون أسرة واحدة تقوم وحدتها

(١) انظر مثلاً: الممتع في التصريف لابن عصفور ، ط حلب ١٩٧٠ - تحقيق: غفر الدين قباوة ، « باب تبيين الحروف الزوائد والأدلة التي يتوصل بها معرفة زيادتها من أصلاتها ٣٩/١ - ٥٩ .

على أساس وجود هذه الأصوات الصامتة الثلاثة : السكاف والتاء والباء بهذا الترتيب . ويؤدي وجود هذه الأصوات الصامتة الثلاثة إلى تحديد المعنى الأساسي الذي تدور حوله كل معاني الكلمات المختلفة المكونة من تنابع هذه الصوامت . ويتحدد المعنى الخاص لكل كلمة من هذه الكلمات المشتركة في الحروف الاصول بمعايير أخرى ، فالمحركات المختلفة من ضم وفتح وكسر تشكل الصيغ المختلفة داخل الإطار الدلالي الذي حددته الصوامت ، وبذلك تختلف كلمة « كَتَبَ » عن كلمة « كُتِبَ » ، رغم اتحاد الحروف الاصول ، لأن الأولى بوزن قَعَلَ المبنى للمعلوم والثانية فُعِلَ المبنى للمجهول . وتتكون صيغة صرفية كثيرة بإضافة سوابق مثل الميم ، نجد هذا مثلاً في الكلمات مكتب ، مكتبة . وتتكون صيغة صرفية أخرى عن طريق إلحاق نهاية تؤدي معنى محدد ، وذلك مثل نهاية جمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم بالنسبة للاسماء . وهكذا يقوم بناء الكلمة في اللغات السامية على أساسين متكاملين : المادة اللغوية ، والوزن .

وتصنف الأسماء في اللغات السامية وفق معايير ثابتة يمكن تطبيقها على كل اللغات السامية لأنها مستخرجة منها . هذه المعايير ليست انعكاساً لمنطق عقلي عام ليس له وجود ، ولكن واقع اللغات السامية جعل من الممكن تحديد معايير لتغيرات الصيغ في الأسماء فيها وفق ثلاثة جوانب ، هي : العدد number والحالة الإعرابية case والجنس gender .

والمقصود هنا بالعدد كل ما يتعلق بالافراد والثنائية والجمع . فاللغات السامية تقسم الأسماء وفق هذا التقسيم الثلاثي ، فكل اسم في اللغات السامية لابد أن يعبّر عن مفرد أو عن مثنى أو عن جمع . وليست هذه دائماً حال اللغات الأخرى ، فاللغات الأوروبية الحديثة مثلاً تقسم الأسماء من هذا الجانب تقسيماً ثنائياً ، فهناك صيغة للمفرد تسمى singular وصيغة لغير المفرد تسمى plural . وبهذا تختلف اللغات السامية عن اللغات الأوروبية المعاصرة . فالاسم الدال على اثنين أو اثنتين

له في اللغات السامية صيغة متميزة هي صيغة المثني القياسية في العربية . ويبدو أن صيغة المثني كانت هكذا في اللغة السامية الأولى ، ولكن استخدام هذه الصيغة قل في بعض اللغات السامية مثل العربية ، فلم تعد صيغة المثني تستخدم فيها إلا في الأشياء التي توجد في الواقع الخارجي مثنى مثنى مثل : البدين والرجلين .

أما الحالة الإعرابية للاسماء في اللغات السامية فذات تنوع ثلاثي . وقد أطلق النحاة العرب على هذه الحالات الإعرابية مصطلحات : الرفع ، والنصب ، والجر . ويعد الإعراب على هذا النحو الثلاثي في العربية امتدادا للغة السامية الأولى . وقد احتفظت اللغة الأكادية بظاهرة الإعراب على هذا النحو أيضا ، فالخط الأكادي يثبت الحركات دائما ، ولذا أمكن التعرف من رموزه المدونة على حقيقة أن الاسم في الأكادية كان يتخذ ثلاثة أشكال ، ينتهي أحدها بالضممة والثاني بالفتحة والثالث بالكسرة . وتطابق هذه الأشكال الثلاثة للاسم الأكادي الأشكال المقابلة في العربية رفعا ونصبا وجرا . لم تحتفظ أكثر اللغات السامية بالنهايات الإعرابية ، وفقدت اللهجات العربية التمييز بين الحالات الإعرابية للاسم أيضا . ولكن الباحثين يرون الإعراب على نحو ما تعرفه العربية وما عرفته الأكادية ظاهرة أصيلة في اللغات السامية الأولى . ولا يعكس التنوع الإعرابي على هذا النحو المعروف في العربية منطقا عقليا عاما يمسرى على كل اللغات ، فهناك لغات كثيرة لا تصنف الأسماء أي تصنيف وفق هذا المعيار ، وهناك لغات تصنف الأسماء من هذا الجانب إلى أربع صيغ ، فاللغة الألمانية تميز في إعراب الاسم بين المرفوع *Nominativ* والمنصوب *Akkusativ* والمجرور *Dativ* والمضاف إليه *Genitiv* . ولا تسكد التقسيمات العربية تطابق التقسيمات الألمانية إلا في حالات معدودة ، فلكل لغة نطقها الخاص في ذلك (١) . وتعرف اللغة اللاتينية عددا أكبر من الحالات الإعرابية،

(١) يتضح الاختلاف مثلا بين العربية والألمانية تجاه الاسم التالي لحرف =

منها مثلاً حالة النداء Vocative ، وفي بعض اللغات السلافية توجد حالة الاداة Instrumental ، وفي اللغة التركية توجد حالة مكانية Locative . وكل هذه الحالات يعبر عنها في العربية بأداة أو بحرف مع الاسم التالي ، فاللغات المختلفة تتباين من هذا الجانب وتختلف اختلافاً كبيراً . وبمعكس هذا الاختلاف اختلاف الطرق التي تميز بها اللغات المختلفة بين صيغ الاسماء .

وتصنف اللغات السامية الاسماء أيضاً من ناحية الجنس إلى ما يطلق عليه المذكر وما يطلق عليه المؤنث . ولا علاقة هنا بين الواقع الخارجى والصيغ اللغوية ، وإنما تعارف النحويون على وصف صيغة الاسم بأنها من المذكر أو المؤنث على سبيل الاصطلاح والتقريب فقط . وتوضح نسيئة هذا التقسيم بالنظر في الاشياء التي ليس لها بحكم طبيعتها أى نصيب من التذكير والتأنيث مثل : الكتاب ، والشمس ، والمنضدة . ولكن كل اسم في اللغة العربية أو في اللغات السامية الاخرى ينبغي أن يصنف من ناحية الجنس ، وهنا تصبح بعض هذه الاشياء من المذكر ، وبعضها من المؤنث لاعتبارات شكلية أحيانا ، وربما يعكس بعضها رواسب من فكر إنسانى قديم . فكل الاسماء الدالة على جماد والتي تنتهى بتاء التأنيث تصنف في العربية باعتبارها مؤنثة ، وبهذا الاعتبار تصنف كلمة المنضدة ، وعلى العكس منها تصنف كلمة نضد . وقد لوحظ في عدد كبير من اللغات التي تميز الاسماء إلى مذكر ومؤنث أن الكلمتين الدالتين على الشمس والقمر في كل لغة من هذه اللغات لا تتفقان بل تتسكاملان من ناحية الجنس ، فالشمس في العربية من المؤنث والقمر من المذكر ، وكذلك كلمة die Sonne

= الجر لجميع حروف الجر العربية يأتي الاسم بعدها بجرورا، ولكن حروف الجر الالمانية أنواع ، بعضها يأتي الاسم بعدها بحالة النصب Akkusativ ، وبعضها بحالة الجر Dativ ، وبعضها باحدى الحالتين المذكورتين، وبعضها بحالة الاضافة Genitiv

وكلمة der Mond في الألمانية ، أما في اللغة اللاتينية واللغات المنفرعة عنها فإننا نلاحظ العكس ولكن مع الاحتفاظ بالتكامل ، ففي اللاتينية كلمة sol تصنف من المذكر وتدل على الشمس وكلمة luna تصنف من المؤنث وتدل على القمر . ومعروف أنه لا علاقة طبيعية بين الشمس والقمر والتذكير والتأنيث في الواقع الخارجي . وليس من الضروري أن تقسم اللغات الاسماء هذا التقسيم الثنائي ، فهناك لغات مثل التركية لا تصنف الاسماء وفق هذا الاعتبار ، وهناك لغات أخرى تصنف الاسماء من هذا الجانب تصنيفاً ثلاثياً . ففي اللغات الجرمانية يوجد إلى جانب المذكر والمؤنث صيغة ثالثة يطلق عليها neutrum ، ويترجم هذا المصطلح بالمحايد ، ولا علاقة هنا بين الكلمة كصيغة لغوية وما تدل عليه في واقع الحياة . فكل كلمة تنتمي في الألمانية بالنهاية -chen أو بالنهاية -lein . تمد من المحايد ، بغض النظر عن مدلولها في واقع الحياة ، ومن هذا النوع في اللغة الألمانية كلمة Fräulein ومعناها آتسة ، وكلمة Mädchen ومعناها بنت وكلمة Häuschen ومعناها بيت صغير . فكل هذه الاسماء تصنف في اللغة الألمانية من المحايد وذلك وفق الصيغة اللغوية لا وفقاً لما تدل عليه الكلمة في الواقع الخارجي . وكل هذه الامثلة توضح أن تصنيف اللغات للاسماء من هذا الجانب يختلف من لغة لأخرى ، ولكنه في كل حالة لا يخرج عن كونه مجرد تصنيف للكلمات . وقد صنفت اللغات السامية الاسماء من هذا الجانب تصنيفاً ثنائياً ، وهو تصنيف للاسماء لا للأشياء .

وتصنف اللغات السامية الفعل فيها إلى عدة صيغ ، ويطلق على هذه الصيغ الموجودة في العربية : المضارع والماضي والامر . وهكذا حال الفعل أيضاً في اللغات السامية القديمة في الشام والحديثة ، ولكن اللغة الأكادية طورت لنفسها نظاماً مخاففاً إلى حد ما ، ففيها نجد صيغاً أكثر ، وأغلب الظن أن نظام الافعال في اللغات السامية المختلفة لا يعكس ظاهرة موروثية على نحو مباشر من اللغة السامية الأولى ، فالاختلاف كبير بين نظام الفعل الأكادي ونظام الفعل في اللغات السامية الأخرى . وليس من الصحيح أن نتصور أن قدرة اللغة العربية على التعبير عن الزمن غير متنوعة لعدم

تنوع صيغ الأفعال فيها ، فالمضارع لا يعبر بالضرورة عن الحال أو الاستقبال ، بل قد يعبر أيضاً بالصيغ المركبة عن الحدث الذي استمر في الماضي : كان يكتب . وبالمثل فإن الماضي لا يعبر بالضرورة عن الزمن الماضي ، فيمكن أن يستخدم الفعل الماضي في اللغة العربية للتعبير عن الحاضر أو المستقبل . الجملة الشرطية يمكن أن تتكون بفعلين ماضيين دون أية دلالة عن الماضي : إن كتب كتبت . فالصيغتان الفعليتان الماضي والمضارع في العربية تعبران عن أشياء كثيرة ، ويتحدد معنى الصيغة المستخدمة وفق بنية الجملة .

٣ - بناء الجملة :

أما من ناحية بناء الجملة فالاختلاف كبير بين اللغات السامية في حضورها القديمة واللغات السامية في العصور التالية . ويبدو أن اللغة السامية الأولى لم تكن ذات جمل طويلة ، بل كانت تسودها ظاهرة التوازي Parataxe أى أن الجمل كانت قصيرة وترتبط بالجملة الأخرى عن طريق الواو ، فهذه الجمل القصيرة تتوازي الواحدة بجانب الأخرى (١) . ونجد في اللغة العبرية القديمة ظاهرة التوازي ونجدها أيضاً في اللغة العربية في نصوصها القديمة إلى حد كبير . فالجمل قصيرة ، والواو تربط بين جملة قصيرة وأخرى . ولكننا نلاحظ بعض الوقت أن اللغات السامية أخذت تكون شيئاً فشيئاً جملاً طويلة معقدة ، فالجملة العربية تعقدت مع تطور الفكر ورفقه تمقداً كبيراً ، حتى أننا نجد صيغ الاستثناء والقصر في العربية على نحو لا نجد في اللغات السامية التي دونت قبل العربية . فكلما تقدم الزمن تعقدت الجملة ولم تعد على بساطتها الأولى ظهر نمط جديد يطلق عليه التركيب Hypotaxe . ومن الممكن أن نلاحظ إلى اليوم سيادة ظاهرة التوازي في اللهجات العربية ولا سيما عند المتحدثين الذين هم

(١) أنظر ماير : R. Meyer, Hebräische Grammatik, I, s. 22.

يتأثروا بالفصحى كثيراً ، ونلاحظ نفس الظاهرة في اللغة المهرية ، فالجملـة فيها قصيرة تتكون مع بضع كلمات لاتزيد ، وسرعان ما تنتهى الجملة وتبدأ أخرى . فالكلام العادى يتكون من وحدات صغيرة متراسة الواحدة بجانب الأخرى . وهذا شأن اللغات التى لم تدخل بعد إلى مرحلة التعبير عن الفكر المعقد المتنوع . فما أشبه بساطة الجملة المهرية بالجملة التى كتبت فى النقوش العربية القديمة ، وما أبعد هذه الجمـل البسيطة عما نقرأه فى الشر العربى الحديث . فالجملة تـتمـقـد كـلـما دخلت إلى مجال التعبير عن الأفكار الكثيرة المتميزة والمتنوعة . وتـعـقـد أنـمـاط الجملة وتنوعها على مستوى التأليف بعد سمة عامة ، تقابلها سمة التوازى على مستوى اللغة المنطوقة . فعندما يكون الحديث باللغة الفصحى فى أحد المواقف الكلامية التى يحدث فيها ذلك نلاحظ رغم هذا أن الجمل المنطوقة أقل تركيباً من الجمل المكتوبة . ففي اللغة الألمانية يمكن أن تتكون الجملة المكتوبة الواحدة من خمسة أسطر ، ولكن الجملة المنطوقة الفصيحة لا يمكن فى الأحوال الكلامية العادية أن تبلغ نصف هذا الطول . ليست الجملة المكتوبة طويلة لمجرد أن وحداتها كثيرة متوازية ، ولكنها طويلة لأن بها وحدات كثيرة متكاملة فى نظام محكم يضمها جميعاً فى إطار جملة واحدة مركبة ، ولم تكن الجملة السامية الأولى تعرف مثل هذا التركيب ، فأقدم النصوص السامية تسودها الجمل الصغيرة المتراسة . ما أشبه هذه الجمل الصغيرة المتوازية بالاستخدام اللغوى عند الطفل ، فالطفل يستخدم أيضاً فى حديثه العادى جملاً صغيرة كثيرة . وكلما ارتقى فكره تعمقت جملة شيئاً فشيئاً .

٤ — الالفاظ الاساسية :

وهناك ألفاظ أساسية تشترك فيها اللغات السامية . وليس المقصود بذلك أن هذه الالفاظ موجودة بنفس دلالاتها فى كل اللغات السامية ، فكثيراً ما تتغير الدلالات ، ولكن المقصود أن هذه الالفاظ ترجع إلى أصل اشتقاقى واحد فى

اللغة السامية الأولى (١) . فكلمة « هلك » في اللغة العربية يقابلها في اللغة العبرية الفعل « هالخ » . ومعنى هذا أن كلا الفعلين يرجع إلى المادة السامية المشتركة (ه ل ك) ولكن ثمة خلافا بين معنى « هلك » في العربية و « هالخ » في العبرية ، إذ تدل « هلك » في العربية على الذهاب ، ومنه الذهاب إلى المدرسة والذهاب إلى العمل ... إلخ . فالمقارنات الاشتقاقية بين الألفاظ في اللغات السامية لا تعنى بالضرورة أن معنى الكلمتين أو الكلمات موضع المقارنة هو نفس المعنى ، بل تعنى أن الكلمتين أو الكلمات المقصودة من أصل اشتقاقى واحد . فكلمة « لحم » تدل في العربية على معنى يخالف كلمة « لحيم » في العبرية ، لأن الكلمة العبرية تدل على الخبز وتعد الكلمتان من أصل واحد باعتبار الاشتقاق رغم اختلاف المعنى . وإذا ما اختلف معنى الكلمتين المشتقتين من أصل واحد كان السؤال عن الدلالة الأقدم موضوع بحث . وهذا البحث يمكن برابط هذه الدلالات المتفرعة ، فيمكن أن تكون كلمة « لحم » قد أدت في اللغة السامية الأولى معنى الطعام اليابس ، أى غير السائل فيكون معنى هذه الكلمة في العبرية ضربا من تخصيص الدلالة ، ويكون المعنى الموجود للكلمة العربية المقابلة ضربا آخر من تخصيص الدلالة . وهكذا ينطلق علم اللغة المقارن في مجال المفردات من الأصول الاشتقاقية ثم ينظر بعد ذلك في الدلالة ومدى اتفاقها وتغيرها .

وقد صنف كثير من الباحثين الألفاظ المشتركة في كل اللغات السامية . وتضم هذه الألفاظ المشتركة عدة كلمات تدخل في مجالات : الأسرة ، وجسم الإنسان

(١) أنظر قائمة الألفاظ الأساسية المشتركة في اللغات السامية ، وقد أعد هذه القائمة برجسترأسر :

G. Bergsträsser. Einführung in die semitischen Sprachen, s. 182-ff2. München 1963

وتسمية الحيوان والنبات ، والأعداد ، وتضم أيضا بعض الأفعال . تضم كل اللغات السامية عدة كلمات متشابهة في كل هذه اللغات ، منها الألفاظ الدالة على العلاقات الأساسية في الأسرة . وهذه الألفاظ مثل : أب ، أم ، أخ ، أخت ، حم ، وتوجد هذه الكلمات في اللغات السامية القديمة مما يدل على كونها موروثة من اللغة السامية الأولى . ويلاحظ مثلا في هذه المجموعة المشتركة أن العم والحال لم يتخذا مكانهما ضمن الألفاظ المشتركة في اللغات السامية الخاصة بالأسرة . غير أن كلمة « عم » توجد في أكثر اللغات السامية بدلالات أخرى ، فكلمة « عم » في العبرية تعني الشعب ، وقد وصف الإله الكبير في التين القديم بأنه « عم » ، وكأن هذه الكلمة دلت في اللغة السامية الأولى على الأب الكبير ، وتغيرت دلالاتها بعد ذلك في اللغات السامية . وهناك كلمات مشتركة في كل اللغات السامية ، وتدل على أجزاء من جسم الإنسان . وليس من المتوقع أن نجد ألفاظا تعبر عن تفصيلات تشريحية كثيرة في جسم الإنسان ، بل هي ألفاظ عامة ، فالكلمات : عين ، رجل ، يد ، شعر ، أذن ، رأس مشتركة في كل اللغات السامية . أما أسماء الحيوانات في اللغات السامية فتشترك في كلمات معدودة منها مثلا : لث و كلب وعجل . وقد لوحظ أن كثيراً من اللغات السامية تتخذ للحيوان الذكر إسماء وللحيوان الأنثى إسماء آخر لا تمت للأول بصلة ، ومثال ذلك في العربية : حمار وأمان ، أسد ولبوة . وهناك عدة أسماء للنباتات تشترك فيها اللغات السامية منها : كمون ، سنبله ، قمح ، نوم . وتشترك اللغات السامية أيضا في الأعداد الأساسية . وتتفق اللغات السامية كلها اتفاقا شبه كامل في الأعداد من ٢ إلى ١٠ ، ولكن الكلمة الخاصة بالعدد واحد تختلف في الأسر كادية والمهرية عنها في باقي اللغات السامية^(١) . ويبدو أن اللغة السامية

(١) انظر حول هذا في الأسر كادية :

Ungnad-Matous, Grammatik des Akkadischen, München, 1964, s.59.

أما في المهرية فكلمة واحد يعبر عنها بكلمة « طاد » للمذكر و « وطيط »

لل مؤنث .

الأولى عرفت هذه الأعداد إلى العشرة ، ثم عرفت كلتين أخريين للعشرة والالف .

إن المنهج المقارن يفترض أن الظواهر المشتركة في كل اللغات السامية ، أو في أكثر اللغات السامية ظواهر موروثية عن اللغة السامية الأولى . يصدق هذا على الأصوات وعلى الأبنية الصرفية وعلى أبنية الجمل وعلى المفردات أيضاً . فتلک الظواهر المشتركة ميراث سامي قديم ، أضافت إليه كل لغة من اللغات السامية على مر الزمن . وليس من المفيد أن يسكثر الجدل حول مهد هذه اللغة السامية الأولى التي سبقت اللغات السامية المختلفة في الوجود^(١) . وأغلب الظن أن أبناء اللغة السامية الأولى كانوا في بيئة تعرف قدرأ من الزراعة وقدرأ من الرعي ، فهناك قدر كبير من الألفاظ الزراعية والرعية المشتركة في اللغات السامية ، وإذا صح لنا أن نفترض أن الجماعة اللغوية السامية الأولى قد عاشت في شمال الجزيرة العربية وبادية الشام والعراق فإن الهجرات التي خرجت من مهد الساميين قد اتجهت في موجات تاريخية متتالية إلى منطقة الرافدين وإلى أرض الشام وإلى اليمن والحبشة ، وفي هذه المناطق تكونت اللغات السامية المختلفة .

(١) أنظر حول مهد الساميين والآراء الكثيرة التي قبلت في ذلك :

C. Brockelmann, Grundriss. I/2.

H. Fleisch, Introduction, pp, 22-32.

وتتناقص هذه الآراء في افتراض أن الساميين عاشوا في اليمن أو في شمال جزيرة العرب أو في العراق أو في الحبشة .

الفصل العاشر

التوزيع الجغرافي والتاريخي للغات السامية

١ - الفرع الأكادي :

يضم الفرع الأكادي من اللغات السامية^(١) كل اللغات واللهجات التي نشأت عن اللغة السامية الأولى التي دخلت أرض العراق مع الوافدين إليها حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م. وقد سميت هذه اللغات واللهجات باسم شامل لها يميزها عن سواها ، وتنسب الأكادية إلى أكيد وهي أول مدينة سكنها الساميون الوافدون في شمال بابل ، وقد أطلق هؤلاء اسم الأكادية على لغتهم تمييزا لها عن اللغة السائدة في جنوب أرض الرافدين آنذاك ، وهي اللغة السومرية^(٢) . لقد وجد الساميون المهاجرون إلى أرض العراق شعبا ذا حضارة زراعية سبقهم إلى الإقامة في هذه المنطقة ، وهو الشعب السومري .

وقد أظهرت الاكتشافات الحديثة عددا كبيرا من النقوش السومرية واتضحت

(١) انظر المراجع المذكورة في هامش (١) من هذا الباب .

(٢) أنظر : Von Soden, Grundriss der akkadischen

Grammatik, Analecta Orientalia 33/47, Roma 1969. s. 2.

ملاح اللغة السومرية^(١) . وملاح الحضارة التي سجلها السومريون بلغتهم . ولكن اتناء اللغة السومرية لا يزال مشكلة لم تحل ، فالسومرية من أقدم اللغات التي دونت ، وربما تكون أقدم لغة دونت في العالم . ولم تكن الكتابة في التاريخ القديم أمرا شائعا ، بل ولا تزال آلاف اللغات في عالمنا المعاصر منطوقة لا يكتبها أهلها . ولذا لا يستطيع البحث المقارن التعرف على القرابة اللغوية للسومرية ، وربما كانت السومرية متممة إلى أسرة لغوية بادت كل لغاتها ولم يكتبها أهلها . لقد النقي الساميون المهاجرون إلى أرض العراق بالسومريين . كان السومريون أكثر حضارة . كان الأكاديون فيما يبدو لا يقلون عن السومريين عددا . ولذا لم تستطع الأكادية أول الأمر أن تقضى على السومرية ولم تستطع السومرية أن تقضى على الأكادية ، فساد ازدواج لغوي استمر أكثر من ستة قرون (٢٥٠٠ - ١٠٠٠ ق م) . وفي هذه الفترة اختلط الساميون البسطاء بالسومريين الأكثر حضارة . واندج السومريون شيئا فشيئا مع الساميين الأكاديين ، لم يحدث هذا عند دخول السومريين أرض العراق وإنما حدث بعد ذلك وزاد بعض الوقت ، وأدى في النهاية إلى سيادة اللغة الأكادية في كل مناطق العراق وانتهاء استخدام اللغة السومرية . هناك عدد كبير من النقوش السومرية والنقوش الأكادية وصلت إلينا من هذه الفترة التي ساد فيها الازدواج اللغوي . ويطلق على اللغة الأكادية في هذه الفترة اسم الأكادية القديمة تمييزا لها عن المراحل اللغوية التي جاءت بعد ذلك ، وهي البابلية القديمة ، والوسيطه ، والجديدة والحديثة ، والمتأخرة ، والآشورية القديمة ، والوسيطه ، والجديدة^(٢) .

(١) حول السومريين وحضاراتهم أنظر :

H.Schmökel,Somer et la civilisation sumerienne, Paris 1964. p 192

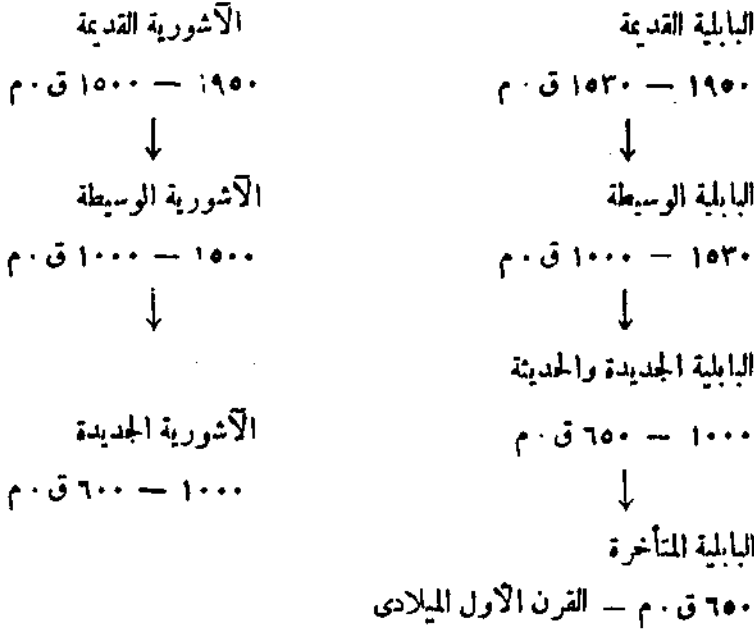
Biblio. théque historique.

S.N. Kamer. The Sumerians ,Chicago 1970.

Von Soden, Grundriss, s. 23.

(٢) انظر :

الأكادية القديمة



كانت فترة الازدواج اللغوي بين السومرية والأكادية القديمة فترة هامة تركت آثارها في حياة الأكاديين . لقد تعلم الأكاديون الكتابة عن السومريين ، ولم يكن الأكاديون يعرفون قبل ذلك أن لغتهم المنطوقة يمكن أن تدون وتتحول إن ظاهرة مرئية . لقد كتب السومريون لغتهم بالخط المسماوي ، ويطاق على هذا الخط اسم المسماوي لأنه يشبه المسامير ، أي أن وصفه بهذه الكلمة لا يدل طبيعته ، بل يشير إلى شكله الخارجى فقط ، وقد كتبت شعوب كثيرة بعد السومريين والأكاديين بالخط المسماوي ومن أشهر اللغات القديمة التي كتبت بالخط المسماوي ، اللغة الحيثية وهي لغة هندية — أوربية . فالخط المسماوي إذن وسيلة من وسائل التدوين ابتكرها السومريون وقدم غيرهم ، فكتبوا بها لغاتهم المتباينة المختلفة ، فالسومرية لا تربطها علاقة قرابة بالأكادية ، ولا علاقة بين تلك اللغة والغة الحيثية ، فهذه لغات مختلفة الانتماء تكتب بخط واحد .

تقوم الكتابة المسبارية - عموماً - على أساس صوتي ، فالكلمة تقسم إلى مقاطع ولكل مقطع رمز يكتب به^(١) . وبذلك يختلف أساس الخط المسباري عن الأساس الذي يقوم عليه الخط الهيروغليفي الذي كتبت به في نفس الفترة الزمنية اللغة المصرية القديمة . فالخط الهيروغليفي لا يقوم - في أساسه - على تدوين الصوت المنطوق بل على أساس الكتابة بالصور . ومن هذا الجانب يوضح الخط المسباري ، كما دونت به اللغة الأكادية ، جوانب كثيرة من طبيعة اللغة الأكادية ، وهو من هذا الجانب أكثر تمبيراً عن واقع اللغة من خطوط كثيرة أخرى لم تكن تدون الحركات بأية صورة مثل الخط العربي الجنوبي القديم . ويمكن إيضاح هذا الأمر ببيان قضية النهايات الإعرابية وقضية أصوات الحلق^(٢) في ضوء النقوش الأكادية التي تدون المقاطع بالرموز المسبارية .

إعراب الاسم في الأكادية

كلمة : « كلب »

المرحلة اللغوية	الأكادية القديمة	الأكادية الوسيطة والجديدة والمتأخرة
الحالة الإعرابية		
الرفع	Kalum	Kalbu
النصب	Kalham	Kalba
الجر	Kalbim	Kalbi

(١) حول نظام الكتابة الأكادية :

von Soden, Das akadische Syllabar. Roma 1948

(٢) انظر الفصول الخاصة بإعراب الاسم والأصوات في كتاب فون زودن ،

هامش (٢٢) .

فالاسم الأكادي يظهر في النقوش المختلفة على ثلاثة أشكال ، تتحدد بوظيفة الاسم في الجملة ، ويتطابق أحد هذه الأشكال حالة الرفع في العربية ، ويتطابق الشكل الثاني حالة النصب في العربية ، والشكل الثالث حالة الجر . فقد عرفت الأكادية إعراب الاسم على نحو ما عرفت في العربية ، أى بالرفع والنصب والجر ، أما الميم التي تفتى بها الصيغة المذكورة في الـ"أكادية القديمة" (انظر الجدول) فيقابلها نون التنوين في العربية ، أى أن التميم في الـ"أكادية" يقابل التنوين في العربية .

ولذا كان وجود أصوات الحلق يعد من السمات المميزة للغات السامية عموماً فأغلب الظن أن اللغة السامية الأولى عرفت مجموعة أصوات الحلق بالتنوع الموجود في العربية . أما اللغة السومرية فقد عرفت صوتين حلقيين ، هما الهمزة والخاء ، ولذا لم تكن هناك مشكلة تجاه هذين الصوتين . فقد كان السومريون والـ"أكاديون" ينطقون الصوتين ، ولكن الـ"أكاديين" قلدوا السومريين في عدم نطقهم لصوت العين والحاء . ولا يمكننا تصور هذا التأثير إلا إذا لاحظنا الازدواج اللغوي الذي ساد عدة قرون ، فكان كثير من السومريين يعرفون الـ"أكادية" وينطقونها ، وربما كان بعض الـ"أكاديين" يعرفون السومرية . ومعنى هذا أن نطق اللغة الـ"أكادية" تأثر بكيفية نطق السومريين لها ، وبذلك اختفت العين والحاء من الـ"أكادية" ، بينما ظلت الهمزة والخاء موجودتين .

اختفاء العين والحاء والهاء في الـ"أكادية"

الصيغة السامية	الصيغة الـ"أكادية"	الصوت المفقود	التعويض
والعربية	دون النهاية الإعرابية		
بعل	be:l	العين	مد الحركة
قمح	qe:m	الحاء	مد الحركة
نهر	n:ar	الهاء	مد الحركة

ومثل هذا التغير الصوتي يفسر في إطار أثر الأسس اللغوية ، والمقصود تأثير اللغة الآرامية في اللغة الوافدة (١) . وقد كان للغة السومرية تأثيرات كثيرة في اللغة الآرامية . لقد انتقلت عدة كلمات من السومرية إلى الآرامية كادية ، وانتقل بعضها من الآرامية إلى العبرية والعربية بعد ذلك ، وأشهر هذه الكلمات كلمة « هيكلك » . وأصل هذه الكلمة في السومرية okallum (دون هاء) ، بمعنى البيت الكبير ثم انتقلت بالمعنى الآرامي إلى العبرية (مع إضافة الهاء) ومنها إلى الآرامية والعربية . أي أن الصيغة العربية لهذه الكلمة فتبتداً بالهاء التي أضيفت إليها في اللغة العبرية .

وامتد التأثير السومري أيضاً إلى بناء الجملة الآرامية . فقد كان الفعل السومري يتخذ مكانه في آخر الجملة ، بينما يكون الفعل في الجملة السامية في أول الجملة لتكوين الجملة الفعلية أو في وسط الجملة في بعض أنواع الجملة الإسمية . ولكن النصوص النثرية الآرامية تأثرت باللغة السومرية ، فتحرك الفعل إلى آخر الجملة الآرامية كادية . وكان الشعر الآرامي كادياً محافظاً فاحتفظ بالنمط السامي لبناء الجملة ، وبذلك ظل في مكانه في أول أو وسط الجملة الآرامية كادية .

واللغة الآرامية كادية من أهم اللغات السامية لغويًا وحضاريًا . فالآرامية كادية أقدم لغة سامية دونت ، ولذا يعد وجود أية ظاهرة لغوية في الآرامية كادية والعربية دليلًا على كون الظاهرة موروثًا عن اللغة السامية الأولى ، وبذلك نستطيع التراجع لأقدم الظواهر في العربية عن طريق المقارنة بالآرامية كادية .

(١) يطلق على هذا النوع من التأثير Substrat (sub ومعناها تحت strata ومعناها طبقة) . والمقصود بهذا تأثير اللغة الأقدم مثل السومرية في اللغة التي جاءت بعدها في نفس المنطقة وهي الآرامية كادية ، وهذا مثل تأثير الآرامية في اللهجات العربية في الشام والعراق وتأثير القبطية في عربية مصر وتأثير السكتية في اللاتينية الشعبية في فرنسا... الخ.

عاشت الأكادية أكثر من خمسة وعشرين قرناً، وبعد انهيار الاستقلال السياسي للمنطقة اللغوية الأكادية ودخول العراق في الإمبراطورية الفارسية ظلت اللغة الأكادية تستخدم في بعض النقوش. لقد ظلت الأكادية لغة الحياة والدولة حتى القرن السابع قبل الميلاد. وبسقوط الدولة الآشورية في القرن السابع قبل الميلاد بدأ احتضار اللغة الأكادية، فقد كانت الآرامية تواصل انتشارها كلغة حديث لغة تعامل، ولكن التغير اللغوي حدث ببطء شديد، فظل الازدواج اللغوي قائماً عدة قرون انتهت بأن تركت الأكادية الحياة مختلفة وراثتها أدبياً، مثل ملحمة جلجامش^(١)، وتراثاً قانونياً مثل شريعة حمورابي^(٢) وعدداً كبيراً من النقوش ذات المضمون السياسي والاجتماعي.

٢- الفرع الكنعاني

يضم الفرع الكنعاني من اللغات السامية عدة لغات كانت في منطقة الشام^(٣) وأهم هذه اللغات واللهجات الكنعانية: الآرامية، والعبرية، والسريانية والبولسية،

(١) حول ملحمة جلجامش انظر ترجمة أعدها Schott ونقحها von Soden

وطبعت بعنوان: Das Gilgamech - Epos, Stuttgart 1970.

The Gilgamesh epic and Old Testament Parallels Chicago and London, 6th. impr. 1967.

(٢) حول تاريخ حمورابي أنظر:

R. F. Harper, The code of Hammurabi. Chicago, 1904

(٣) حول الكنعانية ولهجاتها والعلاقات اللغوية بينها، انظر:

R. Meyer, Hebräische Grammatik, I, s. 22-27.

Z.S Harris, Development of the Canaanite Dialects, New Haven 1939 (= American Oriental Series 16).

والمؤابية ، وقد اعتدت بعض هذا اللغات إلى مناطق أخرى خارج أرضها الأولى . ويمكن تقسيم اللغات والألهجات الكنعانية من الناحية الجغرافية إلى : الكنعانية الشمالية وتمثلها الآجريتية ، والكنعانية المتوسطة وتمثلها الفينيقية ، والكنعانية الجنوبية وتمثلها العبرية والمؤابية .

الآجريتية :

تعد الآجريتية اللغة الوحيدة التي نعرفها من لغات الفرع الكنعاني الشمالي ، وأغلب الظن أن الآجريتية لم تكن وحدها في منطقة شمال الشام . فهناك لغات أخرى شمل العمورية بادت متتذ من بعيد ولم تنون في نقوش ، ولذا فليست لها صورة واضحة بين اللغات القديمة ^(١) . وتنسب اللغة الآجريتية إلى اسم مدينة عميقة هي مدينة أجريت ، وقد جاء اسم هذه المدينة الساحلية في مراسلات وجدت بالعراق ومصر من القرنين الثامن عشر والرابع عشر قبل الميلاد . واللغة الآجريتية هي آخر لغة سامية اكتشفت . وهي اللغة السامية الوحيدة التي اكتشفت في القرن العشرين . وقد بدأت الكشف بالقرب من مدينة رأس شمراء على الساحل السوري سنة ١٩٢٩ ، فكشف عن مجموعة كبيرة من النقوش الآجريتية . ولم تكن اللغة الآجريتية معروفة قبل هذا التاريخ ، ولذا تخلو كتب اللغات وكتب النحو المقارن في اللغات السامية المؤلفة قبل هذا التاريخ من أية إشارة إلى اللغة الآجريتية ^(٢) .

(١) هناك أيضا بضع أسماء من لغة أولهجة كنعانية شمالية وصلت إلينا من عهد حموراني (١٧٢٨ - ١٦٣٦ ق . م) وكذلك من القرن الخامس عشر قبل الميلاد . إن هذه الأسماء يتضح منها أنها تؤدي إلى لغة كنعانية شمالية .

(٢) حول الآجريتية انظر : C.H. Gordon, Ugaritic Manual

Analecta Orientalia 35, Roma 1955.

والطبعة الموسعة المعدلة بعنوان :

C. H. Gordon, Ugaritic textbook. 3 vols (Grammar; glossary and indices, text in transliteration. Analecta orientalia 38). Reprinted: Roma 1965 . 67.

J. Aistleitner, Wörterbuch der ugaritischen Sprache. المعاجم وأهم المعاجم
Berlin 1963.

لقد كشفت هذه الحفريات عن عدد كبير من النقوش المدونة على ألواح طينية مكتوبة بخط مسباري ، أى أن هذا الخط يشبه من ناحية الشكل ذلك الخط الذى كتبت به من قبل اللغات السومرية والآكادية والحيثية . ولكن عدد الرموز التى تتكرر فى هذه النقوش الآجريتية الكثيرة يقل كثيراً عن عدد الرموز المستخدمة فى الخط المسباري الآكادي . ويرجع هذا إلى سبب يتعلق بطبيعة الكتابة الآكادية واختلافها عن الكتابة الآجريتية . لقد كتب الآكاديون رموز مسبارية يدل كل منها بصفة عامة على مقطع ، ولذا كانت هناك حاجة إلى استخدام مئات الرموز . ولكن الآجريتيين كتبوا رموز قليلة لا يتجاوز عددها الثلاثين . ومعنى هذا أن الآجريتيين بسطوا نظام الكتابة فلم تعد هناك حاجة لتعلم مئات الرموز ، بل بسط الآجريتيون الرموز المكتوبة إلى عدد قليل . لقد عبر الآجريتيون عن كل صوت من أصوات اللغة بحرف واحد ، ولذا كانت الحروف بعدد الوحدات الصوتية الموجودة فى لغتهم ، غير أنهم جعلوا الهمزة المفتوحة ثم الهمزة المضمونة ثم المكسورة رموزاً مختلفة ، وهذا القصور فى تدوين الهمزة أصبح ميراناً تناقلته كل الكتابات السامية الأبجدية بعد ذلك . وبذلك كان الآجريتيون أول من دون أية لغة من اللغات تدويناً صوتياً يقوم على أساس استخدام الحرف الواحد دائماً للوحدة الصوتية الواحدة . وكانت الكتابة قبلهم إما صورية مثل الكتابة الهيروغليفية ، أو مقطعية مثل الكتابة السومرية والآكادية ، ولم تكن الكتابة الهيروغليفية صورية مئة فى المائة كما لم تسلم الكتابة الآكادية من تأثيرات الكتابة بالمعنى بأن يؤخذ الرمز الدال على الكلمة السومرية ويستخدم بمعنىاً فى النقوش الآكادية . وابتكار الآجريتيين للأبجدية وهى نظام سهل يقوم على أساس صوتى منتظم مكن الإنسانية أن تمضى فى ركب الحضارة وأن تصبح المعرفة شيئاً متاحاً لعدد كبير من البشر ، بعد أن كانت فى الحضارات الأقدم وفقاً على نخبة من كبار رجال الدولة .

ولكن الكتابة الآجريتية تعد من جانب بعينه متخلفة عن الكتابة الآكادية ،

وقد امتد هذا القصور إلى الكتابات السامية الأبجدية عدة قرون بعد ذلك . كان الأكاديون يدونون الحركات ، فالرمز المقطع كان يدل على الصامت مع الحركة ، وبذلك اختلف الرمز الخاص بالباء المفتوحة عن الرمز الخاص بالباء المنكسورة عن الرمز الخاص بالباء المضمومة . ولنا يمكن التعرف على البنية الصوتية للحركات الأجرية . فالأجريتيون لم يدونوا الحركات على الإطلاق ، وأقوم كتابتهم على تدوين الصوامت فقط . وقد ظلت الكتابات السامية تدون الصوامت فقط على نحو ما فعل الأجريتيون ولا تدون الحركات عدة قرون بعد الميلاد .

لقد اتبع الأجريتيون لأول مرة في التاريخ النظام الأبجدي في تدوين اللغة وترجم كلمة الأبجدية ، إلى ترتيبهم للحروف التي كتبوا بها لغتهم^(١) . فالحروف انتظمت عندهم وفق الترتيب التالي : أ ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت . وهذا الترتيب هو الأبجدية لأنه يبدأ بالالف والباء والجيم والذال وقد ظل الترتيب الأبجدي للحروف سائدا عند كل الشعوب التي تعلمت الخط من الأجريتيين بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وأكثر النظم المعروفة في ترتيب الحروف ترجع بشكل مباشر إلى الترتيب الأبجدي الأجرى ، أخذته كما هو أو عدلت فيه قليلا . فترتيب الحروف على النحو الأبجدي هو ترتيبها في العبرية وفي كل اللهجات الآرامية إلى اليوم .

النقوش الأجرية تلي الأكادية من الناحية الزمنية ، فالأكادية أول لغة سامية دونت ، وكان هذا حوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م ، ثم دونت بمد ذلك اللغة الأجرية حوالي سنة ١٤٠٠ ق . م . ولذا تحمل اللغة الأجرية سمات قديمة كثيرة ، بل إنها تختلف — من هذا الجانب عن باقي لغات الفرع الكنعاني وتقترب بذلك من العربية . فالعربية احتفظت بصفة عامة بالأصوات السامية الأولى ، نجد في العربية مثلا تمييزا واضحا بين الحاء والخاء ، وهذه هي الحال أيضا في الأجرية ، أما في

(١) انظر ما كتبه ماير: R. Meyer, Hebraische Grammatik, I, s. 37-39.

العبرية والفينيقية فقد تحولت كل حا. وكل خاء إلى صوت واحد هو الحاء. وهناك تمييز بين العين والعين في العربية وكانت الاجريقية تميز بينهما أيضا، ولكن العربية جعلت منهما صوتا واحدا هو العين. ويوضح تمييز الاجريقية بين أصوات اختلطت بعد ذلك في العربية والفينيقية أنها — من هذا الجانب — أقرب إلى اللغة السامية الأولى. ولذا تعد دراسة الاجريقية أداة هامة لدراسة عبرية العهد القديم والفينيقية كما جاءتنا في النقوش. ويعتمد الباحثون الماصرون على الاجريقية لبيان المرحلة التاريخية السابقة على العربية والفينيقية، فالاجريقية أقدم لغة وصلت إلينا من المجموعة الكنعانية.

الفينيقية

الفينيقية هي إحدى لغات المجموعة الكنعانية (١)، وقد وصلت إلينا الفينيقية في مجموعة من النقوش، فلا نعرف الفينيقية إلا من هذه النقوش. وأقدم ما وصل إلينا من اللغة الفينيقية بضع جمل وجدت في مجموعة رسائل تل العمارنة بصعيد مصر. وتمثل هذه العبارات الموجزة لهجة منطقة جبيل في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. ولكن أكثر النقوش الفينيقية ترجع إلى الفترة بين سنة ١٠٠٠ ق.م. وسنة ١٠٠ م.

(١) حول الفينيقية :

J. Friedrich. W. Rölling, Phönizisch — Punische Grammatik. Roma 1970.

Z. S. Harris , A Grammar of the Phoenician Language . New Haven 1936.

v. den Branden, Grammaire phénicienne Beyrouth 1969.

ولا يوجد معجم مستقل للفينيقية بل يوجد معجم للنقوش السامية الغربية يفيد بصورة مباشرة في فهم النقوش الفينيقية وهو معجم :

Ch. F. Jean-J. Hoftijer, Dictionaire des inscriptions sémitiques d'ouest Leiden 1965.

كانت الفينيقية لغة الساحل الفلسطيني والسوري واللبناني ، وفي هذه المنطقة وجدت مجموعة كبيرة من النقوش . وقد وجدت نقوش فينيقية كثيرة خارج منطقة الشام ، فقد كان الفينيقيون مهتمين بالتجارة البحرية فكانت لهم محطات تجارية وجزائريتهم في مناطق مختلفة من جزر البحر المتوسط ، ولذا هناك نقوش فينيقية كثيرة من قبرص . وقد انتشرت المحطات التجارية الفينيقية في كل أنحاء حوض البحر المتوسط ، فهناك نقوش فينيقية وجدت في المنطقة الساحلية لآسيا الصغرى وعلى الساحل الاوربي للبحر المتوسط وخصوصا في جنوب اسبانيا (١) .

ويطلق على اللغة الفينيقية في امتدادها في المغرب لاسم اللغة البونية وتقع المنطقة اللغوية البونية على الساحل التونسي ، وأهم المدن التي أسسها الفينيقيون هناك مدينة وقوت حذشت ، أي القرية الحديثة ، بمعنى المدينة الحديثة (٢) . ويقسم تاريخ اللغة الفينيقية

(١) انظر حول توزيع النقوش الفينيقية وغيرها جغرافيا وتاريخيا كتاب :
H. Donner, W. Rölling, Kanaanäische und aramäische Inschriften
Wiesbaden 1966 .

ويضم هذا الكتاب المختار ثلاثة مجلدات ، أولها للنصوص والثاني للتعليق والثالث معجم لغوي وفهارس ، وبهذا تصبح هذه المجلدات أفضل أداة لدراسة النقوش الفينيقية وغيرها من النقوش التي تناولها الكتاب

(٢) تدل كلمة « قوت » هنا على المعنى القديم للكلمة كما جاء في القرآن الكريم فالقرية تعني ما نعتبر عنه اليوم بكلمة مدينة ، انظر المواضع التي وردت فيها الكلمة في القرآن الكريم .

واشارة القرآن الكريم إلى (رجل من القريتين) تدل على أن القريتين وهما مكة والطائف لم تكونا قريتين بالمعنى الحديث بل هما مدينتان . وهناك مدن كثيرة =

في هذه المنطقة الأفريقية إلى مرحلتين : البونية والبونوية الحديثة . تبدأ اللغة البونية بانتشار الفينيقيين في منطقة الساحل التونسي حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ، وتنتهي بسقوط الكيان الساسي للدولة البونية سنة ١٤٦ ، فقد قضى الرومان الذين نازعوا الفينيقيين السيادة البحرية ودخلوا معهم في حروب متصلة على مدينة قرطاجنة واحتلوا المنطقة اللغوية البونية . وبعد سقوط قرطاجنة تبدأ الفترة الثانية في حياة اللغة البونية . لقد خصم البونيون للرومان ، وكان الرومان في مركز السيادة ولذا تأثرت اللغة البونية الجديدة باللغة اللاتينية من أكثر من جانب لقد دخلت ألفاظ لاتينية كثيرة إلى اللغة البونية في هذه الفترة ، ويبدو أن الازدواج اللغوي الحادث مع إقامة عدد من أبناء اللغة اللاتينية إلى جوار المتحدثين بالبونوية قد أدى إلى ضعف النطق بأصوات الحلق في اللغة البونية الجديدة . وقد أمكن التعرف على هذه الظاهرة من النقوش البونية الجديدة . فكتبها يخلطون في التدوين بين السكيات التي ينبغي أن تكتب بحرف العين والسكيات التي يجب أن تكتب بالهمزة ، كما يخلطون بين السكيات التي ينبغي أن تكتب بالحاء والسكيات التي ينبغي أن تكتب بالهاء ، ويرجع هذا الخطأ في الكتابة إلى أنهم في النطق لم يكونوا يميزون بين العين والهمزة وبين الحاء والهاء . وفي عدد من النقوش البونية الجديدة نلاحظ مزيدا من الخلط بين الهاء والألف وفي مرحلة متأخرة من تاريخ البونية الحديثة نجد الحروف التي كانت تستخدم قديماً للتعبير عن أصوات الحلق تصبح وسيلة لكتابة الحركات القصيرة ولا بد أن هذا حدث في فترة لم يعد أحد يحس فيها بأن هذه الحروف تعبر عن أصوات تنطق فعلا ، فوجدوها بلا وظيفة فأفادوا منها لتدوين الحركات ونلاحظ

== يوازي اسمها اشفاقيا مدينة قرت حدثت فمدينة نابولي تكون اسمها من الكلمتين Neo+Polis وتعني كلمة Neo جديد أو حديث ، وكلمة Polis تعني المدينة . أما تسمية قرت حدثت باسم قرتاج أو قرطاجنة . . الخ ، فمعكس هدم نطق صوت الحاء وهو صوت حلق كان النطق قد ضعف به في البونية الحديثة .

في هذه المحاولة التأثير المباشر لليونان واللاتين فقد قلدهم البولونيون الخاصه وذل لرومان
في كتابة الحركات داخل الكلمة على نحو ما فعل اليونان والرومان .

كان اليونان قد تعلموا أثناء احتكاكهم بالفينيقيين حوالي القرن التاسع قبل الميلاد
الكتابة الأبجدية والكتابة الأبجدية الفينيقية امتداد مباشر للأبجدية الأجرينية . كان
الأجريتونيون قد بسطوا نظام الكتابة وجعلوها أبجدية . احتفظ الفينيقيون بفكرة
النظام الأبجدي ، غير أنهم عدلوا أشكال الحروف لتصبح سهلة في الكتابة واحتفظ
الفينيقيون في نفس الوقت بترتيب الحروف كارتبها الأجريتونيون . وعندما تعلم
اليونان الكتابة من الفينيقيين بدأت أوروبا حضارتها الراقية القديمة . ففي القرن
التاسع قبل الميلاد كان عمر الحضارة في الشرق بضع آلاف من السنين وكان تاريخ
الكتابة قد مر بمراحل متتابعة ، ثم أخذ اليونان عن الفينيقيين فكرة التدوين
الصوتي بالحروف ، أي أنهم أخذوا الأبجدية ، واحتفظوا أيضاً بترتيب الحروف
كما عرفه الفينيقيون . ولكن اليونان وجدوا مجموعة حروف عبرت عند الفينيقيين
عن أصوات الحلق وأصبحت بالنسبة لليونان دون فائدة ، وهنا أدخل اليونان
تجديداً منهجياً على الخط بأن استخدموا مجموعة الحروف المذكورة للدلالة على
الحركات في سياق الكلمة . ويعد هذا التجديد مرحلة هامة في تاريخ الخط بصفة
عامة . وقد حدث في الكتابة اليونانية تعديل آخر جعلها تختلف عن الكتابة
الفينيقية ، فقد جعل اليونان اتجاه الكتابة من اليسار إلى اليمين ، بعد أن كانت
بخلاف ذلك عند الفينيقيين . وهذان التعديلان : تدوين الحركات وتعديل اتجاه
الكتابة ظلا سمتين أساسيتين في كل الخطوط المأخوذة عن الخط اليوناني ، وأهمها
الخط الكريل الذي انتشر مع انتشار المسيحية الأرثوذكسية في شرق أوروبا ،
والخط الروماني الذي انتشر مع الكاثوليكية في غرب أوروبا . وبذلك كان للأجريتيين
ثم للفينيقيين دور كبير في تبسيط نظام الكتابة ، وهو ما أتاح تحول المعرفة
الإنسانية إلى ظاهرة ذات بعد اجتماعي عريض .

اللهجات الكنعانية الجنوبية :

أقدم ما وصل إلينا بالكنعانية الجنوبية مجموعة هوامش مدونة على رسائل أكادية أرسلها بعض أمراء فلسطين إلى حكام مصر ، وترجع هذه النصوص إلى عهد امنحتب الثالث (١٤١٣ - ١٣٧٧ ق م) وامنحتب الرابع (اخنتاتون) (١٣٧٧ - ١٣٥٨ ق م) . وتعد لغة هذه الهوامش صورة قديمة من اللهجات الكنعانية الجنوبية (١) .

وهناك نقش يعرف باسم الملك ميشع ، ويعبر عن لهجة خاصة به تختلف في بعض الخصائص عن الفينيقية ، كما تختلف في خصائص أخرى عن العبرية (٢) . إن هذا النقش الذي يقع في ٣٤ سطرأ يؤرخ بمنتصف القرن التاسع قبل الميلاد . وهو الأثر الوحيد الباقي من تلك اللهجة الكنعانية الجنوبية : المؤابية .

ولكن أهم اللهجات الكنعانية الجنوبية هي العبرية ، وترجع أهميتها إلى أنها دونت في أسفار العهد القديم ، ومرت بازدهار في الأندلس الإسلامية ، وعادت للحياة مرة أخرى في العصر الحديث .

العبرية

تبدأ الألفا العبرية تاريخها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد عندما دخلت قبيلة إسرائيل أرض فلسطين . وقد تعلم أبناء القبيلة الوافدة لهجة المنطقة التي حلوا فيها من فلسطين ، وهي إحدى اللهجات الكنعانية الجنوبية . ويكاد العهد القديم يكون المصدر الوحيد للتعرف على تاريخ العبرية مدة ألف عام، تبدأ بدخول قبيلة إسرائيل

Meyer, Hebräische Grammatik, I,

(١)

(٢) انظر حول نقش الملك ميشع كتاب : H, Donner, W, Rölling,

Kanaanäische und aramäische Inschriften, Wiesbaden, 1964, 1/33

وحول الملك ميشع انظر سفر الملوك الثاني ٢٤/٣ - ٢٧ .

لأرض فلسطين وتمتد إلى القرن الثاني قبل الميلاد . وقد أوضحت السكشوف الأثرية في القرن العشرين عددا من النقوش العبرية ، وهو عدد قليل لا يقارن على الإطلاق بعدد النقوش الفينيقية فضلا عن الآرامية أو الأكادية . وفي السنوات الأخيرة ظهرت مجموعة نصوص دينية وأدبية مكتوبة على البردى وعلى الجلد سميت باسم لفائف البحر الميت Dead sea scrolls وترجع هذه الكتابات إلى الفترة ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي . وتحاول السلطات الحاكمة في إسرائيل تدعيم ارتباطها بالأرض بالاهتمام بالسكشوف الأثرية ولكن هذه السكشوف لا تؤكد تظهر إلا القليل . وفي سنة ١٩٦٠ وجدت مجموعة رسائل عبرية أرخبها أحد المؤلفين بالقرن الثاني للميلاد^(١) .

اللغة العبرية القديمة هي لغة العهد القديم وهو الكتاب المقدس عند اليهود ، وأحد الكتابين المقدسين عند المسيحيين^(٢) يطلق عليه اليهود (تنخ) اختصارا للمعناوين العبرية لأقسامه الثلاثة : التوراة والأنبياء والمكتوبات . ويطلق عليه المسيحيون اسم العهد القديم The Old Testament باعتبار أن الأناجيل هي العهد الجديد The New Testament ، ويسكون الكتابان معا الكتاب المقدس عند المسيحيين The Bible . أما التسمية الشائعة في العربية و التوراة ، فتمكس ضربا من إطلاق

Moyer, I, (١)

Introduction to the Old Testament. حول العهد القديم. (٢) أنظر :

G Fohrer, Das Alte Testament. Gutersloh 1969-70.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية بعنوان :

Introduction to the Old Testament.

وهناك كتب كثيرة بنفس العنوان لمؤلفين متعددين منهم :

R K. Harrison, Pfeiffer.

D. Kaiser, Einleitung in das Alte Testament. أنظر كذلك :

Gutersloh 1969.

اسم الجزء على السكل ، فالتوراة هي الثلث الأول من العهد القديم . ولذلك يمكن اعتبار كلمة التوراة تسمية لهذا القسم وحده ، أو للعهد القديم كله . وليس العهد القديم كله باللغة العبرية ، ففيه عدة صفحات بالآرامية وهي سفر عزرا ٨/٤ - ١٨ و ١٦ ، ١٢/٧ - ٢٦ سفر دانيال ٤/٢ - ٢٨ ، ٧ وسفر إرميا ١٠/١١ ، وهناك كلمتان آراميتان في سفر التكوين ٣١ ، ٤٧ ويطلق على العبرية كما نعرفها في العهد القديم اسم العبرية القديمة أو العبرية السكلاسيكية^(١) تميزا لها عن المراحل التالية في تاريخ العبرية : ومن المعروف أن العبرية المستخدمة في العصر الحديث هي العبرية الحديثة . ولكن هناك خلافا بين الباحثين في تصنيف المراحل التي مرت بها اللغة العبرية بعد العهد القديم وقبل العصر الحديث ، يجعلها البعض فترة واحدة باسم العبرية الوسيطة ، ويقسم بعض الباحثين هذه الفترة إلى مراحل مختلفة .

(١) أهم أدوات البحث في اللغة العبرية القديمة :

W. Gesenius, Hebräisches und aramäisches Handwörterbuch über das Alte Testament. Berlin.

وقد ترجم هذا المعجم إلى اللغة الانجليزية :

L. Koehler und W. Baumgartner, Hebraisches und aramaisches Lexikon zum Alten Testament. Leiden, 1967.

وقد أهتم المعجمان المذكوران ببيان المقابلات السامية لعدد من الكلمات .

H. Baurer und P. Leander, Historische Grammatik der hebräischen Sprache I. Halle 1922.

وقد طبع الكتاب مرة ثانية سنة ١٩٦٥ ضمن سلسلة Olms paperbacks

W. Gesenius-E. kautzsch, Hebräische Grammatik. Leipzig 1910.

وقد ترجم إلى الإنجليزية ، وطبع بالألمانية عدة طبعات أهمها بعناية برجشتراسر

Bergsträsser في ليبزج ١٩١٨ .

لم تكن اللغة العبرية حية تستخدم في التعامل اليومي في كل هذه الفترة الطويلة ، بل كانت لغة التعامل اليومي حتى سقوط سامريا سنة ٧٢١ ق . م . ثم سقوط القدس سنة ٥٨٧ ق . م ، أى أن الحياة الحقيقية للغة العبرية بدأت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ثم أخذت اللغة العبرية في الانكماش في القرن السادس قبل الميلاد . وكانت اللغة الآرامية قد أخذت تسود منطقة الشام شيئا فشيئا قبل هذا التاريخ ، وما نكاد نصل إلى القرن السادس قبل الميلاد حتى نجد اليهود يتعاملون باللغة الآرامية في حياتهم اليومية . وأوضح مثل لذلك أن المرتوقة اليهود الذين تركوا فلسطين في القرن السادس قبل الميلاد تقريبا كانوا يتعاملون مع سلطات القدس ، كما ثبتت كتاباتهم البردية باللغة الآرامية . ولم يكن تعاملهم باللغة العبرية (١) . وعلى الرغم من أن اللغة العبرية قد انكمشت بعد القرن السادس قبل الميلاد كلغة تعامل فقد ظلت لغة الدين اليهودي . اهتم بها رجال الدين ، وكتبت بها بعض الكتب الدينية اليهودية وظل بعض اليهود يهتمون بتعلمها وبقراءة كتبها الدينية .

لم يدون العهد القديم في شكله الحالي في فترة حياة اللغة ، ولكنه دون على مراحل متعاقبة . فن المؤكد أنه لم يجمع وترتب أسفاره قبل القرن الثاني الميلادي . ثم ذلك على يد عدد من علماء الدين اليهود العارفين بالعبرية المتحدثين في حياتهم اليومية باللغة الآرامية . لقد دون العهد القديم — أول الأمر — بالخط العبري غير المضبوط بالشكل ، أى أن النص المدون كان نصا يدون الصوامت ولا يدون الحركات القصيرة . في هذه الفترة كان العهد القديم يتلى بعد أن يحفظ ، فلم تكن

(١) انظر بروكلمان في بحثه عن الآرامية :

Aramäisch, einschliesslich des Syrischen, in : Handbuch der Orientalistik (ed. Spuler), Semitistik. s. 138-139.

كتابته كاملة بل كان النص المكتوب يذكر القارىء بالنطق . وترجع إضافة الحركات إلى النص العبرى إلى مرحلة تالية ، امتدت من القرن الخامس الميلادى حتى القرن التاسع الميلادى . وكانت هناك عدة مدارس تعنى بالنص العبرى للعهد القديم ، ويطلق عليها مدارس الماسورا^(١) . وتم عمل رجال الماسورا فى مرحلة لم تكن فيها اللغة العبرية لغة نحية ، ومعنى هذا أن رجال الماسورا كانوا من أبناء اللهجات الآرامية ثم اللهجات العربية . وقد تأثر رجال الماسورا فى محاولاتهم لضبط النص العبرى بالحركات بطريقة النساطرة السريان فى ضبط الخط السريانى . أما النظام المتداول إلى اليوم فى ضبط النص العبرى للعهد القديم والنصوص العبرية بصفة عامة فلا يقوم على جهد المدارس اليهودية فى العراق ، بل يعتمد على جهود مدرسة طبرية فى فلسطين . وقد أبرز البحث الحديث وجود مجموعة أسراراهتمت بالنص العبرى للعهد القديم ، وتوارثت هذه المعرفة ومن أهم هذه الأسرار أسرة نفتالى وأسرة ابن أشير .

وهكذا وصل إلينا العهد القديم بعد أن ألف على مراحل ، ودون على مراحل ، وضبط بالحركات فى مدارس مختلفة ، ولذا ينبغى وضع كل هذا فى الاعتبار عند استخراج الصبغ اللغوية من العهد القديم .

وقد ألف اليهود باللغة العبرية حتى مدى القرون عدة كتب دينية وتصنيف هذه

(١) حول رجال الماسورا والقضايا الخامسة بضبط النص العبرى للعهد القديم انظر كتاب باول كاله :

P.E. Kahle, Die Kairoer Genisa. Untersuchungen zur Geschichte des hebräischen Bibeltexes und seiner Übersetzungen. Berlin 1962

الكتب من الموضوعات الخلافية بين فرق اليهود وأحبارهم وربانيتهم . ولكن أهم هذه الكتب الدينية العبرية : المشنا (١) ، وهو الكتاب العبرى الثانى بعد العهد القديم . وترجع كلمة المشنا إلى المادة العبرية (ش ن ه) - وهى تقابل المادة العربية الدالة على التثنية والتكرار . فالمشنا فى رأى اليهود هو النص الثانى من النصوص الدينية . وقد ألفت نص المشنا بين أواخر القرن الأول الميلادى ومتصف الثالث الميلادى . لقد انتهى آخر كيان سياسى لليهود فى فلسطين القديمة سنة ٧٠م عندما قضى الرومان على الاستقلال الداخلى لمنطقة صغيرة حكمها اليهود حتى ذلك التاريخ . وبذلك وجدت ظروف جديدة عاشها اليهود فى اختلاطهم مع أبناء العقائد الأخرى ، فألف رجال الدين لهم نص المشنا ، ليدعم ارتباطهم بأنفسهم على أساس الدين وتمييزهم عن الآخرين تبعاً لذلك . وقد ألفت نص المشنا باللغة العبرية فى

(١) أهم معجم يفيد فى قراءة المشنا :

M, Jastrow, A Dictionary of the Targumim, the Talmud Babli and Yerushalmi, and the Midrashic literature. New York 1926
وحول المشنا ولغتها ، انظر :

Ségol, Mischnaie Hebrew; Oxford 1958,
أما نص المشنا فقد طبع عدة طبعات وحده وطبع طبعات أخرى داخل التلمود مثل :

Der Babylonische Talmud, herausgegeben von L. Goldschmidt
Deh Haag 1933.

وحول رأى البحث اليهودى فى المشنا ، انظر :

Ch. Albeck, Einführung in die Mishna, Aus dem Hebräischen
übersetzt von Tamar und Pessach Galewski, Berlin 1970.
وانظر أيضاً :

Strack, Einleitung in den Talmud, Leipzig 1908.

وانظر بالعربية مقال محمود فهمى حجازى عن : « التلمود » ، مجلة انجلىة —

القاهرة يناير ١٩٦٨ — ص ٤٤ — ٥٤ .

فترة كانت معرفة اللغة العبرية فيها قاصرة على رجال الدين اليهودي . ولذا فقد كان من الضروري أن يشرح النص بلغة مفهومة لليهود ، فكان رجال الدين يقرأون إمامة اليهود نص المشنا بالعبرية ثم يشرحونه لهم بالآرامية . ولم تكن هناك لغة آرامية موحدة ، بل هناك لهجات آرامية كثيرة . وتعددت الشروح الفقهية الآرامية بتعدد هذه اللهجات ، ثم كتب الاحبار والربانيون هذه الشروح الآرامية على المشنا . وهكذا ظهر التلود ، فالتلود البابلي يتألف من المشنا وهي نص عبري ، ومن الجمارا وهي الشرح الآرامي للنص العبري . والتلود الفلسطيني من المشنا نفسها ، ومن الشرح المدون باللهجة الآرامية الفلسطينية ويسمى الجمارا أيضا . المشنا نص عبري واحد ، والجمارا (أى النص المكمل أو الإكمال) تختلف باختلاف اللهجة الآرامية وباختلاف مؤلفيها .

وفي العصور الوسطى لم تزدهر اللغة العبرية إلا في إطار الدولة الإسلامية ففي الأندلس الإسلامية عاشت جماعات من اليهود . وشارك اليهود في الحياة الثقافية العربية مشاركة حيقة ، فكانوا يتعلمون المعارف العربية . وأراد اليهود أن يؤلفوا بما اكتسبوه من معارف عربية كتبوا عربية . وبذلك كانت المؤلفات العبرية الأندلسية انعكاسا واضحا للثقافة العربية الإسلامية في كل فروع المعرفة . فكتب النحو العبري التي ألفها يهود الأندلس ، مثل : مروان بن جناح القرطبي وحجوج والمعاجم التي ألفوها للعبرية والعربية تعد امتدادا وتطبيقا لما هج البحث اللغوي عند العرب . وقد اهتم اليهود الأندلسيون بالتأليف الأدبي بالعبرية أيضا ، وهنا نلاحظ أن الشعر العبري الأندلسي انعكاس واضح للشعر العربي . وكألف العرب في فن المقامة ألف الحريري^(١) بعض مقامات عبرية ، لقد ترجم الحريري وهو يهودي أندلسي مقامات الحريري ، والترم في الترجمة بالجوانب البيانية والبديعية

(١) ولد يهودا ابن سليمان الحريري حوالي سنة ١١٦٥ ، وتوفي ١٢٣٥ ، عاش =

التي اتسمت بها المقامات في نصها العربي ، ثم حاول الحريزي بعد ذلك أن يؤلف مقامات عبرية فألفها عما كياً المقامات العربية . فالتراث العربي الأندلسي هو تراث باللغة العبرية ألفه اليهود في إطار الثقافة العربية الإسلامية .

أما العبرية الحديثة التي يطلق عليها Eivrit ، فهي اللغة الرسمية الأولى في إسرائيل . وتعد العبرية الحديثة محاولة من اليهود الأوربيين لبحث لغة سامية إلى الحياة المعاصرة ^(١) . فاليهود الأوربيون هم أصحاب المسكاة الأولى في إسرائيل ، لأنهم أرق حضارياً واجتماعياً ، ولأنهم هم أصحاب الفكرة الصهيونية التي تقوم عليها الدولة . وقد كان هؤلاء الأوربيين أثر بعيد في تكوين الإطار اللغوي الجديد للعبرية ، فن الناحية الصوتية تأثرت العبرية الحديثة باللغات الأوربية ، تحف النطق بأصوات الحلق وأصوات الاطباق لأنها غير موجودة في اللغات

== في الأندلس ونفى فترة من حياته مترجماً في البروفانس (وتقع الآن في فرنسا) .

وحول الترجمات العبرية والأدب العبري في العصور الوسطى ، انظر :

M, Steinschneider, Die hebräischen Übersetzungen des Mittelalters und die Juden als Dolmetscher, Berlin 1893.

وانظر كذلك : محمد حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم القاهرة ١٩٧١ ، ص

٩٨ - ١٠١ .

(١) انظر حول العبرية الحديثة :

Haim Blanc, The Israeli konié as an emergent National Standard, in :

Language problems of developing Nations. (ed.) J.A. Fishman, New York 1968, pp. 237-251.

وانظر حول الأدب العبري الحديث :

Pnina Nave, Die neue hebräische Literatur Bern 1962.

الأوربية ، ولم تعد الصاد تنطق مثل الصاد العربية ، بل تأثرت بنطق صوت *z* في الألمانية . ويرجع هذا التأثير الألماني إلى أن لغة الـ *ييدش* — التي كان كل يهود وسط وشرق أوروبا يتعاملون بها قبل إحياء اللغة العبرية — هي عبارة عن لهجة ألمانية ، وقد أصبح العارفون باللغة الـ *ييدش* أصحاب مكانة في الدولة الصهيونية ، ولكنهم رفضوا جعل لغة الـ *ييدش* اللغة الرسمية ، لأن انتماءهم إلى العبرية يربطهم بتاريخهم القديم ولا يفصلهم عاطفيا عن يهود المشرق . وقد دخلت إلى العبرية الحديثة ألفاظ كثيرة من اللغات الأوربية ، ولعل مقارنة بين الالفاظ الأوربية الكثيرة الدخيلة في العبرية الحديثة مع محاولات التعريب في العالم العربي توضح اختلاف النسبة ، فالعبرية الحديثة زاخرة بالفاظ أوربية خصوصا في المجال العلمي والتأثير الأوربي في العبرية الحديثة لا يقتصر على الأصوات والمفردات ، ولكنه يتضح أيضا في كثير من التراكيب والتعبيرات الأوربية التي نقلت نقلا حرفيا إلى العبرية . وهذا شيء طبيعي بالنسبة للعبرية الحديثة ، فهي تدور بمناصر مأخوذة من العبرية القديمة مع كثير من الإضافات داخل الإطار الفكري الأوربي .

٣ - الفرع الآرامي

يضم الفرع الآرامي من اللغات السامية مجموعة من اللهجات المتقاربة في بنيتها اللغوية تقريبا كبيرا ، وانتشرت هذه اللهجات المختلفة في منطقة الشام والعراق ، وتجاوزتها في بعض المراحل التاريخية عندما استخدمت الآرامية كأداة تعامل دولي في الشرق القديم^(١) . ليست هناك لغة آرامية بالمعنى المتعارف عليه لكلمة لغة في

(١) انظر الفصل القيم الذي كتبه بروكلمان :

C. Brockelmann, Das aramäische, einschliesslich des Syrischen, in: Handbuch der Orientalistik, Band III, leiden 1954, s. 135-162.
وأفضل مدخل لدراسة اللهجات الآرامية المختلفة :

F. Rosenthal, Aramaic handbook. Wiesbaden 1967.

الاستخدام العام للكلمة ، بل هناك لهجات آرامية متقاربة . لقد ذكر الآراميون في التاريخ في النقوش الآشورية في الألف الثالث قبل الميلاد^(١) . وهذه حال كثير من الشعوب القديمة عندما يرد اسمها لأول مرة عند جيرانهم إلا كتر حضارة . ولكن الآرامية لم تدون — وفق معلوماتنا المعاصرة — إلا بعد ذلك بوقت طويل ، فأقدم النقوش الآرامية ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد . ومرت الآرامية بعد ذلك بمراحل تاريخية متعاقبة . ارتبطت الآرامية في بعض مراحلها التاريخية بامبراطوريات الشرق القديم ، ثم كانت إحدى لهجاتها أداة التبشير المسيحي ووسيلة لنقل معارف اليونان إلى الحضارة الإسلامية ، فالسريانية إحدى اللهجات الآرامية التي كان لها دور كبير في تاريخ الحضارة في الشرق وانحسرت استخدام اللغة الآرامية مع الفتح الإسلامي ، ولكنها مازالت تستخدم في عدة أشكال حديثة في عدد من القرى في شمالي العراق وإيران وسوريا . وهذا التاريخ الطويل يبلغ حوالي ثلاثة آلاف عام منذ أقدم النقوش الآرامية إلى اليوم ، وقد أطلق على عدة تسميات علمية على اللهجات الآرامية المختلفة عبر التاريخ ، وأهم هذه اللهجات : الآرامية القديمة ، وآرامية الدولة ، والسريانية ، واللهجات الآرامية اليهودية ، والنبطية ، والمندعية واللهجات الآرامية الحديثة .

الآرامية القديمة :

يطلق على مجموعة النقوش القديمة المدونة بالآرامية مصطلح الآرامية القديمة^(٢) ،

(١) أنظر مقال : P.N. Schneider, Aram und Aramaer in der Ur III — Zeit, Biblica 30. 1649 .

(٢) أنظر بروكلمان في المرجع المذكور ١٣٧ .

وكتاب ديجن : Degen, Altaramäische Grammatik der Inschriften des 10-8 Jh. v. Chr. Wiesbaden 1969 .

وترجع هذه النقوش إلى الفترة بين القرن العاشر قبل الميلاد والقرن الثامن قبل الميلاد . وقد وجدت هذه النقوش في مناطق مختلفة من الشام والعراق . وأهم ما بين الآرامية القديمة عن اللهجات الآرامية الأخرى، أنها تستخدم القاف في كلمة «أرقاء»، ومعناها «الأرض» ، بينما تأتي هذه الكلمة في اللهجات الآرامية الأخرى «أرعاء». ومعنى هذا أن الضاد العربية ، وهي الامتداد المباشر للضاد في اللغة السامية الأولى، قد تحولت في الآرامية القديمة إلى قاف، وفي اللهجات الآرامية الأخرى إلى عين ، وهذا التحول من أصعب التحولات الصوتية تفسيراً .

آرامية الدولة :

المقصود بها الآرامية المستخدمة في النقوش الكثيرة التي دونت في القرون من السابع إلى الخامس قبل الميلاد . وقد سميت آرامية هذه النقوش باسم آرامية الدولة لأن دولة الفرس الأخمينيين اعترفت بالآرامية لغة رسمية في الدولة ، فالدولة المقصودة هي دولة الفرس الأخمينيين^(١) . كانت اللغة الآرامية قد استخدمت قبل

(١) ترجع هذه التسمية إلى الباحث I. Markwart

انظر المرجع السابق من بروكلمان ص ١٣٩ - ١٤٠ وحول الأهمية الدولية للآرامية في تلك الفترة ، انظر : F. Altheim und R. Stiel, *Aramäisch als Weltsprache*, I. Berlin 1964, s. 181-203.

وانظر المواضيع الكثيرة في البحث المذكور ، وكذلك :

A. Cowley. *Aramaic Papyri of the Fifth Century B.C.* 1923.
Bauer-Missner, in : *Sitzungsberichte der Preussischen Akademie*, 1937. S. 412 f.

G.R. Driver, *Aramaic Documents of the Fifth Century*.
Oxford 1957.

Th. Nöldeke, in : *Zeitschrift für Assyriologie*, 7, 350 f.

ذلك في الدولة الآشورية على نطاق واسع ، فقد لاحظ الباحثون في كثير من العقود المدونة على نقوش من أواخر عهد الدولة الآشورية استخدام الأكادية والآرامية جنباً إلى جنب . وعندما سقطت الدولة الآشورية سنة ٦٢٥ ق م ودخل العراق في إطار الامبراطورية الفارسية دعم الحكام الفرس مكانة الآرامية واعترفوا بها لغة رسمية في كل أنحاء الدولة ، وبهذا دخلت الآرامية إيران أيضاً ، ودخلت مع النفوذ الفارسي إلى كل أنحاء الشرق القديم . وتعد الآرامية في الفترة التي تبدأ في القرن السابع قبل الميلاد لغة دولية لأنها كانت مستخدمة في منطقة واسعة من العالم القديم في التعامل التجاري والسياسي بين أبنائها وغير أبنائها . تشهد بذلك النقوش الكثيرة التي وجدت في إيران والعراق والشام وشمال الجزيرة العربية ومنطقة أسوان في مصر . ووجدت في آسيا الصغرى نقوش ثنائية اللغة ، بعضها آرامي يوناني وبعضها آرامي ليدى . وهكذا كانت الآرامية اللغة الوحيدة التي تجاوزت استخدامها في هذه الفترة التعامل المحلي المحدود وأصبحت تستخدم عند كثيرين من ينتمون إلى بيئات لغوية مختلفة ، وإذا كان سفر إستير قد ذكر أن أوامر الملك الفارسي كانت تمشي من إيران إلى الهند وإلى الحبشة ، فلا شك أن هذه الأوامر كانت تصل إلى هذه المناطق بالآرامية . وأدى انتشار الآرامية في إيران والمناطق المجاورة لها إلى أن كان رجال الدين البوذي يستخدمونها في مواظهم الدينية في منطقة الحدود الإيرانية الهندية . وتشير النقوش الكثيرة التي وصلت إلينا من القرون السابع والسادس والخامس والرابع قبل الميلاد من إيران والعراق وآسيا الصغرى والشام ومصر إلى أن اللغة الآرامية أصبحت في هذه الفترة لغة التعامل الدولي في الشرق القديم ، بالإضافة إلى كونها لغة الإدارة في دولة الفرس الأخمينيين . ولكن مكانة اللغة الآرامية أخذت تقل شيئاً فشيئاً ، وعندما انتهت الدولة الأخمينية وأعلنت الدولة الساسانية في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد عدل الساسانيون عن استخدام الآرامية في الإدارة ، وبذلك انتهت آرامية الدولة :

ولكن التعامل اليومي باللغات الآرامية ، أو بمعنى آخر باللهجات الآرامية المختلفة ظل يسود الحياة اللغوية في الشام والعراق عدة قرون بعد هذا التاريخ . لقد قلت مكانة اللغة الأكادية في العراق مع انتشار اللغة الآرامية قبيل سقوط الدولة الآشورية . وقل استخدام اللهجات السكتمانية المختلفة في منطقة الشام مع انتشار الآرامية . لقد ظلت الآرامية إلى جوار العبرية والفينيقية واللهجات السكتمانية المختلفة عدة قرون . ولكن استخدام اللهجات السكتمانية قل شيئاً فشيئاً إلى أن حلت الآرامية محل كل لهجة سكتمانية بادت . وما نكاد نصل إلى فترة انحسار الآرامية عن الاستخدام الدولى حتى نجد اللهجات الآرامية قد أصبحت وحدها في العراق والشام . وهنا نجد عدة لهجات آرامية تختلف باختلاف السكان ، فهناك لهجات شرقية وأخرى غربية . وتختلف باختلاف الطائفة الدينية فهناك لهجات لليهود وأخرى للوثنيين والمندعيين . ثم تأتى بعد ذلك السريانية ، وتحول مع انتشار المسيحية إلى لغة من أهم لغات الشرق المسمى في القرون التالية .

السريانية :

السريانية لهجة آرامية ارتبطت بالمسيحية ، ولذا يجب أن نأوها تمييزها عن اللهجات الآرامية الأخرى . وقد انتشرت السريانية بعد أن كانت في منطقة محدودة في شمال الشام لتصبح لغة جماعة كبيرة في شمال العراق والشام . وتكون السريانية مع لغة التلود البابلي والمندعية بمجموعة آرامية واحدة يطلق عليها المجموعة الشرقية ، فهذه اللهجات الثلاث تتفق في عدد كبير من الخصائص اللغوية ، وهي متقاربة كل التقارب من ناحية البنية اللغوية . ومن الطبيعي أن تتأثر آرامية التلود البابلي بالعبرية ، وأن تأخذ مندعية الصابئة اتجاهها خاصاً بها ، وأن تتأثر السريانية المسيحية بالثقافة السائدة في منطقة الشام وبالأفكار المسيحية .

وقد ازدهرت السريانية مع انتشار المسيحية شيئاً فشيئاً ، ووصل التأليف

بالسريانية والترجمة إليها مع بداية القرن الثالث الميلادي إلى مستوى رفيع .
وقد ازدهرت حركة التأليف بالسريانية في القرن الخامس الميلادي — أى في منتصف
فترة الازدهار — إلى سريانية شرقية وسريانية غربية (١) . إن السريانية عموماً
هى إحدى لهجات المجموعة الشرقية من الآرامية . ولذا ينبغي ألا يختلط انتهاء
السريانية إلى الآرامية الشرقية بانقسام السريانية ابتداء من القرن الخامس الميلادي
إلى سريانية شرقية وسريانية غربية . لقد حدثت اختلافات عقيدية في إطار
المسيحية السريانية أدت إلى انشطارها إلى فرقتين : النساطرة واليعاقبة . والنسطرة
هم السريان الشرقيون الذين كانوا خاضعين آنذاك للدولة الفارسية . أما اليعاقبة فهم

(١) حول اللغة السريانية وآدابها ، انظر :

C. Brockelmann, Syrische Grammatik. Leipzig 1952.

ويضم هذا الكتاب القيم نمواً علمياً واضحاً للغة السريانية وقائمة ببلوغرافية
بالتراث السرياني والدراسات المؤلفة عنه ونصوصاً سريانية مختارة ودليلاً بالمفردات
الواردة في الكتاب . وما يزال أفضل كتاب في تاريخ التراث السرياني كتاب
باومستارك :

A. Baumstark, Geschichte der syrischen Literatur mit
Ausschluss der christ. lich. palästinensischen Texte.
Bonn 1922.

والمعجم الذى يعتمد عليه في السريانية عند الباحثين المعاصرين هو المعجم الذى
أعدّه بروكلمان للسريانية واللاتينية بعنوان :
Lexicon Syriacum. Halle 1928.

ويمكن أيضاً لغير العارفين باللاتينية الاستفادة من معجم Smith :

I. Payne Smith, A compendious Syriac dictionary, Oxford 1903, 1967.

وقد ظهر بالعربية كتابان بعنوان : تاريخ الأدب السرياني الأول للأب السمعاني
(القدس ١٩٣٣ — ٣٦) والثاني لمحمد حمدي البكري بالقاهرة .

السريان الغربيون الخاضعون آنذاك لحكم الرومان . وقد أدى انقسام الكنيسة إلى انقسام السريانية إلى لهجاتها الشرقية والغربية . وقد أدى هذا الانقسام أيضا إلى تطور الخط السرياني ، وهو خط أمجدى ، في اتجاهين .

وترجع الأهمية التاريخية للسريانية إلى أنها كانت المعبر الذى انتقلت عليه الثقافة اليونانية إلى الحضارة العربية الإسلامية . فبعد غزو الاسكندر لمصر والشام فى القرن الرابع قبل الميلاد بدأت هذه المناطق تدخل شيئا فشيئا فى إطار الثقافة اليونانية . وهنا تحدث صحوة للتراث الهيلينى تميزه بالروح الشرقية فتبدأ مرحلة جديدة للحضارة يطلق عليها الحضارة الهيلينستية . فالحضارة الهيلينية هى حضارة اليونان فى جنوب أوروبا فى عصرها المبكر ، والحضارة الهيلينستية هى حضارة اللغة اليونانية فى مصر والهلل الخصب بعد فتح الاسكندر وقبل الفتح الإسلامى . نقل السريان كتباً كثيرة من التراث اليونانى وشروحها الهيلينستية من اليونانية إلى السريانية ، وكان السريان أيضا نقله هذا التراث إلى اللغة العربية فى عصر الحضارة الإسلامية ، ولذا تعد الترجمات السريانية ذات أهمية فى نقل تراث اليونان إلى العربية (١) .

وعقب ظهور الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية التى ضمت أيضا الشام والعراق بدأت السريانية والهجات الآرامية الأخرى تفقد قيمتها فى التعامل اليومى .

(١) أهم الدراسات فى هذا الموضوع :

O'Leary, How Greek Science passed the Arabs.

وقد ترجم الكتاب مرتين إلى اللغة العربية :

— علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ، ترجمة وهيب كامل ، القاهرة ١٩٦٢

— مسائل الثقافة الأغريقية إلى العرب ، القاهرة ١٩٥٧

Brockelmann, S. iyscho

ولكن حركه التأليف بالسريانية استمرت في العصر الإسلامي على الرغم من التناقص المطرد لعدد المتحدثين بالسريانية وبقاى اللهجات الآرامية . وكانت هذه المؤلفات السريانية المدونة في العصر الإسلامي انعكاساً لثقارت اليونان والسريان من جانب والتراث العربى الإسلامى من الجانب الآخر . ومن أهم المؤلفين السريان الذين عاشوا في عصر الحضارة الإسلامية وتمثلوا جوانب كثيرة من علوم القدماء والعلوم العربية أبو الفرج بن العبرى (المتوفى ١٢٨٦ م) . وقد ألف ابن العبرى كتباً كثيرة . بعضها بالعربية وبعضها بالسريانية . وفي كتب ابن العبرى تلتقى معرفته بتراث اليونان والتراث السريانى المسيحى والتراث العربى الإسلامى ، لتكون الروافد الأساسية لكتبه في فروع المعرفة المختلفة : التاريخ والطب وعلوم الفلسفة (١) .

وهناك جوانب اتصال كثيرة بين السريانية والعربية في اللغة والحضارة ، فقد انتقلت كلمات كثيرة من السريانية إلى العربية ، وبعض هذه الكلمات ليس أصيلاً في السريانية . فأكثر الكلمات اليونانية التي دخلت إلى العربية مثل كلمة فيلسوف انتقلت إليها عن طريق السريانية ، وخصوصاً المصطلحات الفلسفية والطبية . أما اللقاء الحضارى بين التراث السريانى والتراث العربى فله جوانب كثيرة ، فهناك عدد كبير من القصص الشعبية نجدها في نصوص سريانية ثم عربية ، أشهرها قصة أهل الكهف ، قصة السندباد ، كليلة ودمنة ، لقمان الحكيم ، قصة الإسكندر ذى القرنين ، قصص القديسين وكرامتهم . وبعض هذه القصص ليس أصيلاً في التراث السريانى بل ترجم إلى السريانية . ومن الأهمية بمكان مقارنة

(١) أنظر قائمة مؤلفات ابن العبرى في :

Brockelmann, Syrische Grammatik, Leipzig 1955, s. 173-175 .

للمصاغة العربية لهذه الألفاظ (١١) .

اللهجات الآرامية اليهودية :

هناك عدد من اللهجات الآرامية ارتبطت بكتيب اليهود المقدسة وبالجماعات اليهودية التي عاشت في فلسطين والعراق في فترة ازدهار الآرامية ، وما تزال هناك أفلجات لغوية يهودية في شمال إيران تتعامل في الحياة اليومية باللهجات آرامية حديثة. لقد استخدمت الآرامية في بعض أسفار العهد القديم ، وفيه سفران بالآرامية هما سفر عزرا وسفر دانيال . وهذان السفران جزيرة لغوية آرامية في محيط عبري (١٢).

(١) حول الأدب الشعبي السرياني ، انظر :

F. Nau, Histoire et sagesse d'Abikar l'assyrien. Paris 19091.

G. Hunnius. Das syr. Alexanderlied, Diss, Göttingen 1904.

G. Bickell, Kalilag und Dammag. Alto syr. Übersetzung. Leipzig

وقد كتب المقدمة التحليلية لهذا الكتاب بنى Th Boney استاذ الدراسات

الهندية وصاحب نظرية الاصل الهندي للقصة الشعبية . وتوضح هذه المقدمة

نظريته في ضوء كتاب كلية ودمنة ، وهناك دراسات كثيرة أخرى حول هذا

الموضوع :

Sindbad oder die sieben weisen Meister, syrisch und deutsch von Fr. Bachtgen. Leipzig 1879

وقد اهتم بعض المسهرقين بدراسة المصادر السريانية للتاريخ الاسلامي ومن

هذه الابحاث بحث تولدك :

Th. Noldeke, Zur Geschichte der Araber im I. Jahrh. d.H. aus syrischen Quellen; ZDMG 29, 76-98.

(٢) حول آرامية العهد القديم :

B. Bauer und P. leander, kurzgefasste biblisch-aramaische

Grammatik. Halle 1929-1969

وعندما قلت معرفة اليهود بالعبرية وأصبح أكثرهم لا يستطيع قراءة نصوصها فضلاً عن التحدث بها ، نجمت ضرورة ترجمة أجزاء من العهد القديم إلى اللهجات الآرامية المحلية التي كان اليهود يفهمونها آنذاك . وبدأت هذه الترجمات الآرامية في صورة نقل شفوي ، فكان رجل الدين يترجم النص العبري ترجمة شفوية إلى لهجة المستمعين الآرامية ، كان ثمة تخرج من تدوين هذه الترجمات حتى لا تكون منافساً للكتاب المقدس الأصلي . ولكن هذا الحرج قل بعض الوقت فدونت هذه الترجمات ، وبذلك ظهر الترجوم البابلي والترجوم الفلسطيني والترجوم السامري . ويمثل كل ترجمون من هذه « الترجوم » (١) لهجة آرامية متميزة ، فلهجة الترجوم

(١) حول الترجوم البابلي ، انظر :

Targum Onkelos (ed. Abraham Berliner 1884.

وانظر أيضاً :

M. Ginsburger, Pseudo-Jonathan : Tonathan zum Pentateuch. Berlin 1903.

وانظر حول اللهجات الآرامية في فلسطين عند اليهود :

G. Dalman, Grammatik des Jüdisch-Palästinischen Aramäisch, 2 Aufl. Leipzig 1904.

W. Stevenson, Grammar of Palestian Jewish Aramaic. Oxford 1992.

وحول الترجوميم ، انظر ما كتبه باومشتارك :

A. Baumstark Die aramäische und syrische Literatur, in : Handbuch der Orientalistik, (ed spuler) Semistik 162-168.

أهم معاجم الترجوم والتلمود والمدراس :

G. Dalman, Aramäisch-neuhebraisches Wörterbuch. Frankfurt. 1901.

Jastrow, Dictionary of Targumim. the Talmud New York 1926.

البابلي قريبة في كثير من الخصائص من باقي اللهجات الآرامية الشرقية . ولكن الترجوم الفلسطيني والترجوم السامري يمثلان مع غيرهما المجموعة الآرامية الغربية، ويلاحظ في كل هذه اللهجات أن اليهود كتبوها بالخط العبري ، وهذا شأنهم مع كل اللغات التي كانوا يستخدمونها في التعامل الداخلي فيما بينهم ، وقد أدى استخدام الخط العبري لكتابة هذه اللهجات الآرامية إلى دخول كلمات كثيرة من العبرية إلى هذه اللهجات الآرامية .

وقد كتب أحبار اليهود وربانيوهم في فلسطين والعراق نصوصاً أخرى باللهجات الآرامية ، ودخلت هذه النصوص في التلمودين البابلي والفلسطيني . يتكون التلمود البابلي من النص العبري للمشنا مع الشروح الآرامية عليه . ويتكون التلمود الفلسطيني أيضاً من المشنا العبرية والشروح الآرامية ، وثمة اختلاف بين اللهجة المستخدمة في الجمارا وهي الشرح الآرامي في كلا التلمودين . فكلهما يمثل لهجة مختلفة عن الأخرى وكلهما مكتوب بالخط العبري مثل الترجوميم .

النبطية :

النبطية لهجة آرامية كتب بها النبط نقوشهم حتى أواخر القرن الثالث الميلادي، والنبط شعب عربي عاش في أقصى شمال الجزيرة العربية وجنوب بادية الشام^(١) . عاش النبط حياة رعوية وكان لهم في النشاط التجاري مكانة كبيرة . كانت لغتهم العربية آنذاك لغة محلية ، ولم يكن لها حظ فكتب النبط كما كان يكتب جيرانهم . كانت الآرامية لغة التعامل في الفترة التي ازدهر فيها النبط، وكانوا يتعاملون بالآرامية

(١) حول النبط الآرامية عندهم ، انظر :

- J, Cantineau, Le Nabatéen, I :Notions générales. Ecriture Grammaire, II : choix de Textes, Lexique. Pais 1930, 1932.
C. Brockelmann, Das aramäische, einschliesslich des Syrischen : Handbuch der Orientalistik III, s. 148.

مع غير العرب . وفرض عليهم نشاطهم التجارى التعامل بالآرامية لكي يفهمهم الآخرون . ولذا كان من السهل على النبط أن يكتبوا نقوشهم باللغة الآرامية التي اعتادوا عليها . تعلم النبط من جيرانهم الكتابة بالآرامية ، وبذلك كان النبط أول شعب عربى شمالي كتب . تظهر عروبة النبط من استخدامهم القوى ، فهناك ألفاظ تأق، بمعانها العربية في نقوشهم مثل : آل (للدلالة على الانتماء العربى القبلى) ، ولد (بمعنى أبناء) ، آخر (بمعنى ذرية) ، وجر (بمعنى قبر صخرى) ، ضريح (بمعنى حجرة) إحدى (بمعنى واحدة) ، غير (بمعناها العربى الحالى) ، والأفعال هلك ، صنع ، لمن ، بمعانها فى العربية . وبالإضافة إلى هذا ، فقد أفاد النبط من أداة التعريف العربية « ال » وتظهر فى نقوشهم ، بينما لا تستخدم اللمجات الآرامية الأخرى للتعريف إلا الفتحة الطويلة فى آخر الكلمة . وللنبط أهمية كبيرة فى تدوين العربية ، فقد كانوا أول شعب عربى كتب ، وهم معلمو سائر العرب كيف يكتبون فالخط العربى يقوم على الخط النبطى ، والخط النبطى يعود على نحو غير مباشر للخط الآجريقى ، فالتطور الذى بدأ عند الآجريقين وصل عن طريق النبط إلى العرب .

المندعية :

المندعية هى لهجة آرامية شرقية ارتبطت بجماعة دينية عرفت باسم الصابئة ،^(١)

(١) تسمى عند بعض الباحثين العرب : المندائية أو المندئية ، وهما تسميتان صحيحتان دون شك . غير أن الاسم القديم للكلمة قد وصل بالعين لانهزمة ، وبعد ذلك فقد المندعيون نطق العين فينطقون بهمة بدلا منها .

وأهم دراسة لغوية عن اللهجة الآرامية للمندعيين :

Th. Nöldeke, Mandäische Grammatik, Halle 1875.

R. Macuch, Handbook of classical and modern Mandaic, Berlin 1975.

والمندعين كتاب مقدس يطلقون عليه اسم « جنزا » أى الكنز . وقد جمعوا في هذا الكتاب ترائيمهم الدينية وآراءهم في الدين فأصبحت بعد الفتح الإسلامى من أهل الكتاب ، وبذلك أتت لهم في إطار الدولة الإسلامية حقوق أهل الكتاب . وما يزال المندعيون يتعاملون داخليا بملهجتهم الآرامية إلى اليوم ، وهم يعيشون في عدة قرى في جنوب العراق .

وهكذا ارتبطت اللهجات الآرامية تارة بالمسيحية ، وأخرى باليهودية ، وثالثة بالصابئة ، ولكنها كانت في كل هذه الأحوال - وفي غيرها أيضا - في منطقة سادتها اللغة العربية بعد الفتح الإسلامى .

٤ - العربية الجنوبية :

تكون العربية الجنوبية والعربية الشمالية واللغات السامية في الحبشة الفرع الجنوبي من اللغات السامية . وهناك خصائص مشتركة لا نجد لها إلا في لغات الفرع الجنوبي من اللغات السامية منها ظاهرة جمع التكسير ، فشكل الجموع في اللغة السامية الأخرى يمكن أن توصف بأنها من الجمع السالم . أما المجموعة الجنوبية فقد أفادت من الجمع السالم ، وظهرت أيضاً عدة أبذية لجموع التكسير^(١) وأول لغة من الفرع الجنوبي كان لها دور في التاريخ هي اللغة العربية الجنوبية القديمة التي عرفت قديماً باسم الحميرية . وقد اكتشفت النقوش العربية الجنوبية القديمة في القرن التاسع عشر ، وأمكن بعد فك رموز خطها المسند التعرف على مضمون هذه النقوش وتحليل

== وحول المندعين وعاداتهم ودينهم ، انظر :

E. Drower, The Mandaeans of and Iran. Oxford 1937, 1962.

K. Rudolph, Mandaicism. Leiden 1937.

(١) انظر دراسات :

Murtonen, Early Semitic. Leiden 1967.

Murtonen, Broken Plurals. Leiden 1964.

خصائصها اللغوية^(١). ترجع النقوش العربية الجنوبية القديمة إلى فترة امتدت أكثر من ألف عام ، فأقدم هذه النقوش من القرن الخامس قبل الميلاد ، ويؤرخه البعض بالقرن الثامن قبل الميلاد . أما آخر هذه النقوش فيرجع باتفاق الباحثين إلى الربع الثالث من القرن السادس الميلادي^(٢) . ومعنى هذا أن النقوش العربية الجنوبية القديمة ترجع إلى أكثر من عشرة قرون ، وعندما قلت النقوش الجنوبية في أواخر القرن السادس الميلادي كانت العربية الشامية قد بدأت تنتشر في المنطقة اللغوية الجنوبية .

وقد وجدت النقوش العربية الجنوبية في النصف الجنوبي من الجزيرة العربية ، فقد كانت المنطقة اللغوية العربية الجنوبية تضم الأقاليم الحالية لدولتي اليمن والقسم

(١) حول الأبحاث التي أنجزت وما ينبغي القيام به في الدراسات العربية الجنوبية ، انظر التقرير ، الذي كتبته ماريّا هوفنر :

M. Hofner, Stand und Aufgaben der süd-arabischen Forschung, in , Beiträge zur Arabistik, Semiotik, Hartmann 1944, s. 42ff .

والفصل الذي كتبته ماريّا هوفنر أيضا بعنوان :

Das Arabische der Inschriften und der lebenden Mundarten, in : Hand buch der Orientalistik II, 314341.

وقد اهتمت جامعة القاهرة منذ إنشائها (باسم الجامعة) بدراسة النقوش العربية الجنوبية وطبع بجامعة القاهرة كتاب للمستشرق جويدي ، الموجز في علم اللغة العربية الجنوبية (١٩٢٠) ، وقد نشر خليل يحيى نامى عددا من النقوش العربية الجنوبية القديمة .

(٢) حول التوزيع الجغرافي والتاريخ للنقوش للعربية الجنوبية انظر :

A.F.L. Beeston, A Descriptive Grammar of Epigraphic South Arabic. London 1962.

الجنوبي من المملكة السعودية . وهناك عدد من النقوش الجنوبية خارج هذه المنطقة فقد أقام عدد من عرب الجنوب محطات تجارية في شمال غرب الجزيرة العربية ، مثل ديدان التي توجد في مكانها اليوم مدينة العلا . وقد وجدت في العلا عدة نقوش كتبها عرب الجنوب بأنفسهم . وفضلا عن هذا فقد ترك بعض الرحالة والتجار اليمنيين نقوشا دونوها في خارج الجزيرة العربية ، فقد وجدت عدة نقوش في صعيد مصر مكتوبة بالعربية الجنوبية ، كما وجد نقش في جزيرة ديلوس . وقد انتشر عرب الجنوب أيضا في شرق أفريقيا ، فأقدم النقوش التي وجدت في الحبشة ليست مدونة بإحدى اللغات المنسوبة إلى الحبشة ، بل هي بالعربية الجنوبية القديمة .

كتب النقوش العربية الجنوبية القديمة بخط أيهمدي يتكون من تسعة وعشرين رمزا . ويقوم الخط المسند على أساس تدوين الصوامت فقط ، فهو خط لا يدون الحركات ، لذا تظل معرفتنا بطبيعة الحركات في اللغة العربية الجنوبية القديمة مجرد افتراض ، يقوم على القياس مع أقرب لغتين إلى العربية الجنوبية ، وهما العربية الشمالية ولغة الجمن الحبشية . وهناك نقوش كتبت بعناية Inscriptions وأخرى دونها أفراد بسطاء بخط أقل وضوحا ويطلق عليها الجرافيتي Graffiti .

وأهم اللهجات العربية الجنوبية القديمة : السبئية والمعينية والقتبانة والحضرية والهرمية . وأكثر النقوش التي وجدت تمثل اللهجة السبئية ، وهي نقوش كتبت في حوالي ألف عام ، ولذا فالمعرفة باللهجة السبئية تفوق المعرفة بباقي اللهجات العربية الجنوبية القديمة . ومن السمات الأساسية في اللهجة السبئية استخدام الهاء في تكوين عدد من الصيغ الصرفية ، فوزن التعدي في العربية الشمالية أفعال يقابلة في السبئية وزن هفعل ، ولذا يعد الفعل أراق بوزن أفعال أصيلا في العربية الشمالية بينما يعد الفعل هراق دخيلا من العربية الجنوبية إلى العربية الشمالية .

أما اللهجة المعينية فقد وجدت نقوشها في منطقة معين قرناو ، وبراقش في اليمن ، كما وجدت أيضا في المستمرة المعينية في ديدان في شمال غرب الجزيرة العربية . ويبدو أن اللهجة المعينية أم ت عمر طويلا ، فكل نقوشها ترجع إلى الفترة السابقة على الميلاد

بينما ظلت اللهجة السبئية عدة قرون بعد هذا التاريخ ، والسمة الفارقة بين بنية المعينية هي استخدام الهاء في السبئية واستخدام السين في المعينية ، فوزن أفعل في العربية الشمالية يقابلة وزن فعمل في السبئية ويقابلة وزن سفعل في المعينية .

أما اللهجات الأخرى وهي القتبانية والحضرية والهرمية فيبدو أنها كانت أقل انتشاراً . وتنسب اللهجة القتبانية إلى مملكة قتيان في وادي يبحان وحريب ، وتنسب اللهجة الحضرية إلى حضرموت ، وقد وجدت أكثر نقوشها في منطقة شبوة ووادي حضرموت وساحل حضرموت . وقد عمرت اللهجة الحضرية أكثر من اللهجة القتبانية ، فأخر النقوش القتبانية يرجع إلى القرن تقدير . وكلا اللهجتين تشبهان اللهجة المعينية من ناحية استخدام السين ، ولكنهما تختلفان عنها من جوانب أخرى .

وأقل اللهجات العربية الجنوبية شأناً هي اللهجة الهرمية المنسوبة إلى منطقة هرم في غرب معين قرناو . وأهم خصائص هذه اللهجة المحدودة الانتشار قديماً استخدام حرف الجر ومن ، على نحو استخدامه في العربية الشمالية ، وبذلك خالفت اللهجة الهرمية باقي اللهجات العربية الجنوبية لأنها تستخدم بدلاً من هذا الحرف كلمة «بن» . وهذا التقسيم يقوم في المقام الأول على الخصائص اللغوية لاعلى التوزيع السكاني ، ففي كل المواضع التي وجدت فيها نقوش عربية جنوبية قديمة تنوعت اللهجات ، فليست كل النقوش الموجودة في منطقة هرم مكتوبة باللهجة الهرمية بل هي أيضاً بالسبئية والمعينية .

وبعد انهيار سد مأرب هاجرت قبائل عربية جنوبية إلى الشمال ولم تكن القبائل المهاجرة في وضع اقتصادي طيب . ولذا تعربت بعربية الشمال ، ولم يبق لها من الأصل القديم إلا الذكرى والنسب ، حتى أن شعراء هذه القبائل قبل الإسلام مثل امرئ القيس نظموا شعرهم بالعربية الشمالية . يضاف إلى هذا أن ظهور الإسلام قد ساعد على انتشار العربية الشمالية في اليمن فتمزج جنوب الجزيرة العربية شيئاً فشيئاً .

ولكن هذا التعريب لم يشمل إلى اليوم كل مناطق اليمن . فهناك مجموعة لغات عربية جنوبية معاصرة في جنوب الجزيرة العربية والجزر القريبة من الساحل الحضري . وأهم هذه اللغات : اللغة المهرية وهي لغة حوالي ثلاث مليون مواطن في جمهورية اليمن الديمقراطية في المحافظة السادسة التي تقع على الحدود مع عمان والربع الحالي . ويميش بعض المتحدثين بالمهرية في جاليات صغيرة في دول الخليج العربي . أما سقطرية فهي لغة جزيرة سقطرة . وفي كل هذه المناطق التي يتم فيها التعامل الداخلي بلغات المهرة المذكورة يعرف الرجال اللغة العربية بقدر تعاملهم مع جيرانهم بها (١) .

٥ - اللغات السامية في الحبشة :

ليست كل اللغات القديمة والحديثة في منطقة الحبشة من أسرة اللغات السامية ، فقد عرفت المنطقة قديما لغات كثيرة أخرى وما تزال الحبشة تضم لغات غير سامية مثل لغة ساهو ولغة الجالا . والمقصود هنا باللغات السامية في الحبشة تلك اللغات التي نشأت عن العربية الجنوبية القديمة . لقد دخلت اللغات السامية إلى الحبشة عن طريق هجرة بعض القبائل من جنوب الجزيرة العربية ، ويبدو أن هذه الهجرة تمت حوالي القرن السابع قبل الميلاد ، فهناك نقش عربي جنوبي من هذا التاريخ

(١) إهتم الباحث النمساوي بيتنر Bittner بدراسة المهرية . أنظر دراساته :

stud-zur Laut- und Formehre des Mehri I.V, sitzungsberichte kaiser. lichen Akademie der wisschaften in Wien.

وقد نشرت هذه الدراسات بين ١٩٠٩ ، ١٩١٥ وبخصوص الدراسات المختلفة والنصوص المسجلة من اللغات العربية الجنوبية الحديثة :

W. Leslau, Modern South Arabic Languages. A Bibliography.
New York 1946 .

ويقوم الآن مؤلف هذا الكتاب بدراسة ميدانية عن المهرية .

وجد في منطقة أريتريا التي يسيطر عليها الاحباش . وعرف الباحثون أسماء بعض القبائل التي هاجرت عابرة باب المندب إلى أفريقيا ، ونقلت لغتها السامية إلى هذه المنطقة من القارة الأفريقية ، وأهم هذه القبائل قبيلة حبشت وقبيلة الاجمازي . وقد سميت هذه المنطقة عندنا باسم الحبشية نسبة إلى القبيلة الأولى ، بينما سميت اللغة باسم الجعز نسبة إلى القبيلة الثانية . فأبناء هذه اللغة وسكان الحبشة يسمون لغتهم القديمة باسم الجعز . وهناك تسميتان أخريان أقل استخداما في مجال العلم . وهما تسمية هذه اللغة باسم الحبشية والآثيوبية . والتسمية الأولى شائعة في الكتب العربية ، أما الثانية فأخوذة من كلمة أثيوبيا التي وصفت بها منطقة البحر الأحمر جنوب مصر في كتب الرحالة الأوربيين القدماء . وقد جاءت كلمة أثيوبيا في الكتاب المقدس فأحبها الاحباش مع تحولهم إلى المسيحية ، فأطلقوها على دولتهم باعتبارها تسمية مقدسة (١) .

(١) حول توزيع اللغات السامية في الحبشة ، انظر :

E.Ullendorff, The semitic Languages of Ethiopia. Oxford 1957.
-The Ethiopians. an introduction to country and people.
375. London 1690.

وقد كتب أوليندورف الفصل السادس من كتابه الأخير عن اللغات في الحبشة

ص ١١٧ - ١٣٥ .

وانظر كذلك الفصل الخاص بالحبشة :

E.Littmann. Aethiopisch, in: Handbuch der Orientalistik III 250.
New York 1046.

والبلير جرافيا التي أعدها ليسلاو عن الحبشية :

W.Leslau, Bibliography of the semitic Languages of Ethiopia.
New York 1946.

وأهم أدوات البحث في نحو لغة الجعز ومفرداتها :

A. Dillmann, Grammatik der äthiopischen sprache Leipzig
1899, Lexicon

Aethiopicum. Leipzig 1865.

M. Chaine. Grammaire éthiopienne, Beyrouth 1938.

(م ١٣ أسس علم اللغة)

ولغة الجعز هي أقدم لغة سامية في الحبشة ، ومن الصعب تتبع مراحل نشوء هذه اللغة أو بمعنى آخر تتبع هذه اللغة عن العربية الجنوبية القديمة . وهناك خلاف بين الباحثين في تصور الحياة اللغوية في الحبشة في القرون الأولى بعد الميلاد فضلاً عن القرون السابقة على ذلك . يرى البعض أن الحبشة عرفت تنوعاً لغوياً وأن لغة الجعز هي لغة إحدى القبائل التي سيطرت على منطقة الجنوب وأن لغات أخرى وجدت إلى جانبها ، ولكنها لم تدون إلا بعد ذلك بقرون طويلة . ويرى بعض الباحثين أن كل اللغات السامية في الحبشة ترجع إلى لغة واحدة هي لغة الجعز ، وأنما بذلك من أصل واحد لا أكثر . ومن الصعب الوصول في هذه القضية إلى رأى واحد مفصل لقلة المصادر ، فالأحباش لم يكتبوا إلا أقل من القليل . فقدمى أكثر من ألف عام على هجرة القبائل اليمنية إلى الحبشة قبل أن يكتب هؤلاء الذين أصبحوا أحباشاً لغتهم . فالتقوس الجعزية القليلة التي وصلت إلينا ترجع إلى الفترة بين القرن الرابع حتى القرن السابع للبلاد . وفي بداية هذه الفترة تحول الأحباش إلى المسيحية وأطلقوا على بلدهم اسم إثيوبيا وأصبحوا تابعين للكنيسة القبطية المصرية . وبعد تحول الأحباش إلى المسيحية أم حدث في تاريخهم القديم ، فتراسهم من الكتب الجعزية لا يسكاد يتجاوز الإطار الدينى المسيحى ، كان الكتاب المقدس أول كتاب ترجم إلى لغة الجعز : وإلى جانبه ترجمت في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الأدب الجعزى عدة نصوص دينية قليلة العدد قليلة الأثر ، كما ترجم كتاب واحد يضم مجموعة من الأقاصيص الوثنية والمسيحية حول الحيوانات والنباتات وخصائصها . وأغلب الظن أن حركة الترجمة إلى لغة الجعز كانت جهد المبشرين الذين عرفوا الكتب الدينية في نصوصها السريانية أو اليونانية ونقلوها بعد ذلك إلى لغة الجعز . ومضت بعد هذه الفترة عدة قرون تمثل فراغاً في تاريخ اللغة الجعزية والأدب الجعزى . فبعد القرن السابع قل التدوين بلغة الجعز . ثم توقف الأحباش من الكتابة أربعة قرون كاملة لم يصل منها أى أثر مدون في نقش أو ورقة أو كتاب ، وكأن الحياة قد توقفت عندهم . ولكن المعرفة بالخط الجعزى ظلت

متوارثة لأن رجال الدين كانوا يقرأون ، ويعطون في السكتانس بلغة الجمز ، فظلوا حفظة المعرفة بلغة الجمز المكتوبة وبالخط الجمزى وبذلك القدر المحدود من الكتب الجمزية المترجمة وهكذا ارتبطت لغة الجمز بالكنيسة .

وأزدهرت لغة الجمز مرة ثانية بعد طول سبات عندما تأسست الأسرة السلجانية (١٩٧٠ م) ، فبدأت حركة التأليف بلغة الجمز . ولكن التراث الجمزى ظل في هذه الفترة أيضا مرتبطا بالكنيسة ، كانت الكنيسة الأم بالقاهرة قد تعربت ، وأصبح رجال الدين الأقباط يؤلفون بالعربية فترجمت كتب قبطية عربية كثيرة إلى لغة الجمز . فالأثر المصرى واضح في كل كتب هذه الفترة المترجمة أو المؤلفة . وتجاوزت هذه الكتب المجال الدينى إلى مجال واحد هو التاريخ ، فقد دون الأقباش تاريخهم من وجهة نظرهم وتدعيا لشرعية وجود الأسرة السلجانية الحاكمة . لم تكن لغة الجمز آنذاك لغة الحياة . ولكنها ظلت في الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن السابع عشر لغة الكنيسة والثقافة الدينية والتسودين التاريخى^{١٥} . وظهرت في بداية هذه الفترة لغات أخرى يعد بعضها أو تعد كلها امتدادا للغة الجمز ، وأهم هذه اللغات : الامهرية والسيجرينية والتجربة والمهرية

(١) ناقش الباحثون قضية النطق التقليدى للغة الجمز اعتمادا على طرق قراءتها عند الأقباش المعاصرين وأهم هذه الأبحاث :

M Cohen, La prononciation traditionnelle du Cuéze (éthiopien classique) . journal Asiatique 1621, s. 217—269

E-Mittwoch, Die traditionelle Aussprache des Aethiopischen. Berlin und Leipzig 1926.

وأخر هذه الدراسات ما كتبه أوليندروف :

E Ullendorff. The semitic languages in Ethiopia.●

اللغة الامهرية هي أكثر اللغات السامية انتشارا في الحبشة. وقد بدأ تدوين اللغة الامهرية في القرن الرابع عشر ، وهناك عدة أناشيد ملكية امهرية ترجع إلى نفس الفترة تقريبا . ولكن الامهرية ظلت ذات لون شعبي إلى أن حاول اليسوعيون تحويل مسيحيي الحبشة عن مذهبهم الديني إلى الكاثوليكية ، فترجم المبشرون الوافدون العهد الجديد إلى اللغة الامهرية ليفهمه الشعب الذي لم يكن يفهم الطقوس الجعزية في الكنيسة الارثوذكسية . ولكن هؤلاء المبشرين طردوا من الحبشة ، ولم يبدأ ازدهار اللغة الامهرية إلا في منتصف القرن التاسع عشر . واللغة الامهرية هي اللغة الرسمية في الحبشة ، ولذا يطلق عليها هناك « لسان التجاشي » . وتستخدم اللغة الامهرية عند أبنائها وعند غير أبنائها باعتبارها لغة تعامل رسمي في الدولة . ويقدر هذا العدد بما لا يقل عن ثلاثة ملايين وما لا يزيد عن خمسة ملايين . واللغة الامهرية الحالية هي لغة الصحف والكتب المدرسية في الحبشة . وقد حدثت تغيرات كثيرة في الامهرية جعلتها تختلف عن لغة الجعز وعن باقي اللغات السامية ، فلان توجد في الامهرية من أصوات الحلق إلا الهاء والهمزة . وقد دخلت في الآونة الاخيرة ألفاظ أوربية كثيرة إلى اللغة الامهرية بالإضافة إلى الألفاظ التي استعيرت من قبل من اللغات الافريقية المجاورة .

وهناك عدة لغات سامية أخرى في الحبشة منها اللغة التيجرينية التي تعد أقرب اللغات السامية في الحبشة من لغة الجعز القديمة . ويقدر عدد أبناء التيجرينية بحوالي مليون ونصف . وقد أعلنت اللغة التيجرينية لغة رسمية في دستور أريتريا الصادر سنة ١٩٩٢ ، أي قبل استيلاء دولة الحبشة على السلطة في أريتريا . وبعض أبناء التيجرينية مسيحيون . وبعضهم مسلمون . أما لغة التيجري فهي لغة حوالي ربع مليون في الحبشة وفي إقليم كسلا في السودان ، وأكثرهم من المسلمين ، وقد ارتبط مسلمو الحبشة وأريتريا على مر التاريخ بمصر باعتبارها مركز الثقافة الإسلامية . تعدد العربية في كل هذه المناطق الإسلامية لغة الثقافة ولغة التعامل بين القبائل ذات اللغات المختلفة . ومن اللغات السامية ذات الانتشار المحدود في الحبشة لغة جوارج ولغة جَفَت ولغة ارجبسا .

ويختلف الخط المستخدم في تدوين السامية في الحبشة عن كل الخطوط السامية المعاصرة له . فقد كتبت لغة الجمز بخط مقطعي يتكون من ١٨٢ رمزا تنظم على النحو التالي : لكل صوت صامت مع الحركة التالية رمز مستقل . وتضم الكتابة الجعزية رموزا لستة وعشرين صامتا يرتبط كل منها بإحدى الحركات التالية : فتحة قصيرة ، فتحة طويلة ، فتحة عمالة طويلة ، فتحة عمالة قصيرة (وهذا الرمز غامض الدلالة وقد يكون مجرد سكون) وضممة طويلة مثل صوت حرف O الاجنبي في اللغات الأوربية وضممة طويلة مثل صوت U في الألمانية وكسرة طويلة: أى أن الرمز الواحد يمثل في الخط الاثيوبي أحد الصوامت الستة والمشرين مع إحدى الحركات السبع . ولذا يعد الخط الحبشى من أكثر الخطوط السامية تعقيدا ، فهو مرحلة تختلف أعادت التقدم الذى أحدثه الاجريتيون مرحلة إلى الخلف . وقد أثبت تاريخ الحضارة في العالم كله أن صعوبة الخط معوق أمام انتشار المعرفة والعلم : واللغة السامية الوحيدة التى تكتب في الحبشة بخط سهل هى اللغة الهررية فيكتبها أبناؤها ، وهم مسلمون ، بالخط العربى .

الفصل الحادى عشر

العربية فى ضوء اللغات السامية

هذلت لصوص الشعر الجاهلى عدة قرون أقدم لصوص عربية معروفة عند الباحثين . ولكن البحث الحديث فى القرن التاسع عشر أوضح بعد اكتشاف اللغة الأكادية وبحث اللغات السامية بالمنهج المقارن أن خصائص البنية اللغوية للعربية ولهجاتها القديمة يمكن أن تؤرخ فى ضوء علم اللغات السامية المقارن^(١) . وبذلك أمكن عن طريق الدراسة المقارنة تأريخ كثير من الظواهر العربية فى مرحلة أسبق من الشعر الجاهلى بأكثر من ألفى عام ، فالظواهر المشتركة فى العربية والأكادية لا يمكن أن تكون إلا موروثاً عن اللغة السامية الأولى التى خرجت عنها كل اللغات السامية . ولذا يبدأ البحث فى تأريخ العربية ببيان علاقة العربية باللغات السامية الأخرى وباللغة السامية الأولى . فى محاولة لتأريخ الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية للغة العربية قبل تدوينها .

(١) حول المنهج المقارن وتناغمه فى اللغات فى اللغات السامية ومكانة العربية بين اللغات السامية :

Brockelmann, Grundriss.

Moscatti, Introduction to the comparative Grammar of semitic Languages .

وبرجشتراسر : التطور النحوى للغة العربية . القاهرة ١٩٢٩

١ - الخطوط السامية والواقع الصوتي:

يوضح البحث المقارن في اللغات السامية عدداً من الحقائق الهامة حول تاريخ العربية من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية . وإذا كانت اللغة العربية أحدث لغة سامية دونها أبنائها ، فإن اللغات السامية الأخرى قد دونت قبل اللغة العربية بقرون طويلة . فالأكادية دونت حوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م . والاجريقية كتبت حوالي سنة ١٤٠٠ ق . م . وتوضح المقارنات بين اللغات السامية المختلفة أن العربية احتفظت بمجموعة من الخصائص المعروفة في القدم والتي ترجع إلى اللغة السامية الأولى . فالخصائص المشتركة في كل اللغات السامية ، أو أكثرها هي الخصائص التي يفترض الباحثون أنها موروثة عن اللغة السامية الأولى التي خرجت عنها كل اللغات السامية .

تكتب اللغات السامية بعدة خطوط ، ولكل خط منها خصائصه الشكلية وإمكاناته التعبيرية . فالخط المسماري الذي دونت به اللغة الأكادية يدون الكلمات مقسمة إلى مقاطع ، وبذلك احتفظ الخط الأكادي رغم صعوبته بتدوين الحركات مع الصوامت . ومن الجانِب تفصح الكتابة وهذا الأكادية عن طبيعة الحركات سواء أكانت في وسط الكلام أم في آخره . وهناك لغات سامية قديمة لم يتح خطها التعرف على الحركات التي كانت بها ، فاللغة العربية الجنوبية القديمة واللغة الاجريقية واللغة الفينيقية دون كل منها بخط متميز من الناحية الشكلية ، فالخط العربي الجنوبي لا يشبه الخط الاجريقي والخط الفينيقي ، ولكن هذه الخطوط تشترك في سمة أساسية ، وهي أنها تدون للصوامت ولا تدون الحركات . وبهذا لا نكاد نتعرف على طبيعة الحركات في هذه اللغات إلا بالقياس على اللغات الأخرى القريبة من كل واحدة منها . أما اللغات السامية الحية وهي العربية والآرامية والعبرية واللغات السامية في الحبشة فنستطيع بشكل متفاوت التعرف من طريقة النطق المتوارث عند أبنائها على النطق القديم لهذه اللغات . وبدل وصف التحليل وسيبويه لنطق الأصوات العربية في القرن الثاني الهجري على أن النطق الحالي المتوارث

للمرية النصحي لا يكاد يختلف إلا من جوانب محدودة عن نطقها آنذاك . أما النطق المتوارث للعبرية عند اليهود الشرقيين والآرامية عند العارفين بالسريانية القديمة من مسيحي العراق والشام ولغة الجمز عند العارفين بها من أبناء الحبشة فينبغي أن يؤخذ بتحفظ شديد . فقد تغير نطق هذه اللغات لعوامل كثيرة أهمها أنها لم تعد اللغات الأساسية عند أية مجموعة بشرية منذ قرون . فاللغة العبرية تستخدم عند هؤلاء استخداماً محدوداً بالطقوس الدينية ، أما استخدامها في إطار الصهيونية فقد تأثر تأثراً حاسماً بنطاق الأوروبيين للغة العبرية . وتحدث الأقليات الآرامية بلهجات تختلف كل واحدة منها عن اللهجات القديمة اختلافاً واضحاً . ولم يعد للغة الجمز أى استخدام في الحبشة منذ قرون ، وهى لغة الطقوس الدينية يقرؤها أبناء الاميرية متأثرين بالاميرية . وأبناء لغة التيجرى متأثرين بها وكذلك أبناء لغة التيجرينا . ولكننا نستطيع رغم كل هذا التعرف بشكل تقريبي على النطق القديم للعبرية والآرامية ولغة الجمز ، وذلك لأن الخطوط التى كتبت بها هذه اللغات تدون الحركات والصوامت .

وبمقارنة السجلات الأساسية المشتركة في كل اللغات السامية^(٢) يستطيع الباحث أن يتبين مجموعة من السمات المشتركة المعروفة في القدم . فكل اللغات السامية لا تميز أو تختلف من ناحية أصوات الراء واللام والنون والتاء والذال . فالراء العربية يقابلها راء في الأكادية ، وراء في العبرية ، وراء في الآرامية ، وراء في الحبشية دون أدنى تغيير حقيقى . أما اختلاف نطق الصور الصوتية المختلفة للراء تارة بالتفخيم وأخرى دون تفخيم فيخرج عن إطار بحثنا لعدم إمكان التعرف عليها بالنسبة لأكثر اللغات السامية . وشبهه بهذا أمر اللام التى نجدتها في كل اللغات السامية لاما ، وكذلك النون والذال والباء والميم .

(١) انظر القائمة التى أعدها برجسترasser بالألفاظ المشتركة في اللغات السامية :

G. Bergstrasser, Einführung s. 182-192.

ولكن مجموعة من الاصوات المشتركة الثابتة في اللغات السامية كلها قد تعرضت لتغيرات محدودة في النظام الصوتي للعبرية والآرامية . فالباء تنطق مثل الباء العربية إذا كانت في أول الكلام ولكنها تنطق مثل حرف v . الاجنبي في الإنجليزية لو كانت غير مشددة ومسبوقة بحركة . والكاف العربية في أول الكلام ، وتنطق خاء إذا كانت مشددة ومسبوقة بحركة . وتنطق التاء تاء كما تنطق بعد أى حركة تاء الخ ويلاحظ أن كل هذه التحولات تعبر عن صور صوتية في إطار الواحدة وإذا نظرنا إلى هذه التغيرات التي تشترك فيها العبرية والآرامية لاحظنا أنها تعبر عن تطور داخلي في اللغتين وأن هذه الظاهرة التي لا تعرف في باقي اللغات السامية هي من الظواهر التي جددت في اللغتين . ومعنى هذا أنها غير موروثة عن اللغة السامية الأم أما النطق العربي لهذه الاصوات فيعبر عن النطاق الموروث عن اللغة السامية الأم ، ومن هذا الجانب يعتبر النطق العربي لهذه الاصوات أقدم من الهجرات السامية .

وهناك مجموعة أصوات نجدها واضحة متميزة في كل أفرع اللغات السامية عدا الفرع الأكادي ، وهي مجموعة أصوات الحلق مثل العين والحاء . وهنا يمكن افتراض أحد أمرين ، فإما أن تكون هذه الأفرع اللغوية قد عرفت أصوات الحلق في إطار التغير الذي طرأ على هذه اللغات ، وهذا فرض مستبعد ، وإما أن تكون الأكادية قد فقدت التمييز بين أصوات الحلق متأثرة في ذلك باللغة السومرية ، وهذا هو الرأي المرجح . ومعنى هذا أن أصوات الحلق كانت معروفة في اللغة السامية الأم وعرفت أكثر اللغات السامية باعتبارها من الظواهر الموروثة عن اللغة الأم . وبذلك نستطيع أن نفترض قدم أصوات الحلق في العربية ، وأنها كانت موجودة في اللغة السامية الأم قبل أقدم الهجرات أي قبل عام ٢٥٠٠ ق م تقريبا . أي أن أصوات الحلق في العربية يزيد عمرها عن ٤٥ قرنا من الزمن وكذلك كل الخصائص التي نجدها في العربية وتنسبها إلى اللغة السامية الأم .

ومن الممكن تطبيق هذا المنهج على باقي الظواهر اللغوية في المجالات الصوتية

والصرفية والنحوية والدلالية . فالظواهر التي تشترك فيها كل اللغات السامية ، أو التي تثبت المقارنات أنها كانت موجودة في اللغات السامية القديمة هي ظواهر ترجع إلى اللغة السامية الأم . وعلى العكس من هذا تكون الظواهر التي تختلف من لغة سامية لأخرى ، وذلك مثل ظاهرة أداة التعريف . فهي في العربية أل سابقة على الاسم ، وهي في العبرية الهاء تسبق الاسم ، وفي الآرامية فتحة طويلة تأتي بعد الاسم . واختلاف هذه الظاهرة من لغة سامية لأخرى معناه أنها غير مورثة عن اللغة السامية الأم ، وأن كل لغة طورت لنفسها أداة للتعريف فاختلقت بذلك أدوات التعريف في اللغات السامية المختلفة .

٢ - القوانين الصوتية:

قد ركز الباحثون جوانب الاختلاف المطرد بين الأصوات في اللغات السامية في شكل قوانين تسجل أوجه التقابل الصوتي^(١) . ويمكن استخراج قوانين التقابل الصوتي في اللغات السامية من مقارنة الألفاظ الأساسية المشتركة في هذه اللغات وذلك تجنباً للإطلاق من ألفاظ غير مشتركة ودخيلة . ونوضح فكرة القوانين الصوتية في ضوء عدد من أهم هذه القوانين في اللغات السامية .

الناء العربية ومقابلاتها في اللغات السامية :

تدل مقارنة مجموعة من الألفاظ الأساسية في اللغات السامية والتي جاء في صيغها العربية صوت الناء^(٢) أن الأكادية تعرف مكانها صوت الشين ، وأن العبرية تعرف في مكانها الشين أيضاً ، ولكن الآرامية تعرف الناء ، والحبشية تعرف السين في نفس المواضع . ويتضح هذا من الأمثلة التالية :

(١) انظر :

Brockelmann, Grundriss I, 125-136

Bergsträsser, Einführung s. 183.

(٢)

العربية	العربية الجنوبية والحيثية	الآرامية	العبرية	الأكادية
تسوم	somat	tuma	sum	sumu
تسور	sor	tsura	sor	suru

وهنا نلاحظ اطراد بعض التغيرات ، فالتاء العربية تقابلها الشين في الأكادية والعبرية ، وتكتب الشين في الخط الصوقي بعلامة السين وفوقها علامة مميزة تكاد تكون بدلياً مرئياً عن نقط الشين العربية بشكل معكوس . وليس من الممكن تصور أن الشين هنا هي الصوت الاصل في اللغة السامية الام ، بل من الممكن تفسير كل الاصوات الموجودة هنا باعتبار أن التاء تمثل الصيغة الاقدم ، وأن الشين والتاء والسين تمثل تطورات خاصة بكل لغة من هذه اللغات على حدة . ونكتفي هنا ببيان تحول التاء التي افترضناها في اللغة السامية الام والموجودة في العربية إلى تاء في الآرامية . فهذا التغير عبارة عن تحول نطق الاصوات بين الاسنانية مثل التاء والذال إلى المقابلات الاسنانية التاء والذال ، على نحو ما حدث في تغير العربية الفصحى إلى لهجات مصر والشام . والتاء العربية يقابلها في هذه اللهجات كما يقابلها في الآرامية صوت التاء ، نجد هذا واضحاً في الكلمات اثنين/ اثنين ، ثعلب/ ثعلب ، في العربية وكذلك في اسم الاشارة : ذا/ ده ، ذه/ دى فالتغير الذي حدث للتاء السامية الاولى إلى تاء في الآرامية مواز للتغير الذي حدث بعد ذلك عندما تحولت التاء في العربية الفصحى إلى تاء في اللهجات العربية في مصر والشام . وفي هذا دليل على قدم التاء العربية وأنها رغم اختلاف مقابلاتها في اللغات السامية الاخرى تعد امتداداً مباشراً للتاء في اللغة السامية الاولى أي قبل الهجرات السامية .

الضاد العربية ومقابلاتها في اللغات السامية :

وصفت العربية بأنها لغة الضاد وكان الضاد لم تأت إلا في العربية . والوقم أن

الضاد من الاصوات التي تشترك فيها العربية الشمالية مع العربية الجنوبية القديمة ويقابلها في اللغات السامية الشمالية الصاد في العبرية والآرامية ، والعين في الآرامية . يتضح هذا من المثال التالي (١) .

العربية	العربية الجنوبية	الآرامية	العبرية	الأكادية
أرض	ord	or ca	ères	erseu
		a ra		

وتعد الضاد هنا سمة من سمات العربية الشمالية والعربية الجنوبية . ويرى أكثر الباحثين أن الضاد تمثل الصوت الأقدم في هذه المجموعة ، ولكن هناك اختلافا في معرفة كمية نطق تلك الضاد في اللغة السامية الأولى فضلا عن نطقها العربي القديم الذي ما يزال موضوع خلاف بين الباحثين . وبعد التقابل بين الضاد العربية والعين الآرامية من الظواهر المؤكدة التي يصعب إيجاد تفسير صوتي لها .

وفي كل الأمثلة السابقة لاحظنا وجود ضمة الرفع في الصيغة الأكادية . ويعد الإعراب رفعا ونصباً وجراً من السمات المشتركة للعربية والآرامية عما يشير إلى كونه موروثا من اللغة السامية الأولى ، كما لوحظ في الأمثلة السابقة إنتهاء الصيغة الآرامية بفتحة طويلة كانت تدل على كون الكلمة مسرفة . وبغض النظر عن عدد من الاصوات التي تغيرت في اللغة العربية عنها في السامية الأولى ، فإن أصوات العربية تعد بصفة عامة امتدادا مباشرا للاصوات التي افترض العلماء وجودها في اللغة السامية الأولى قبل الهجرات السامية .

٣ - اصوات عربية تختلف عن السامية الأولى :

تعد الاصوات العربية عموما امتدادا مباشرا للاصوات في السامية الأولى . وأغلب الظن أن بضعة أصوات في العربية قد اختلفت عنها في اللغة السامية

الأولى ، ومن هذه الاصوات العربية الفاء وبمجموعة أصوات السين والشين (١) .

الفاء العربية والباء المهموسة السامية :

يقابل الفاء فى العربية صوت آخر فى اللغات السامية الأخرى وهذا الصوت الآخر هو الباء المهموسة (P) ويوضح هذا التقابل من الجدول التالى لكلمة فم العربية وما يقابلها اشتقاقيا فى اللغات السامية الأخرى

العربية	الحبشية	الآرامية	العبرية	الأكادية
فـ (مر)	of	(pumma)	po	pu

وهنا نلاحظ اتفاق اللغات السامية — عدا العربية — فى وجود صوت الباء المهموسة فى هذه الكلمة ، مما يرجح أن هذا الصوت كان موجودا على هذا النحو فى اللغة السامية الأولى . ومعنى هذا أن صوت الفاء العربية ليس امتدادا مباشر للغة السامية بل هو ثمرة تغير صوتى فقد تحولت الباء المهموسة وهى صوت شفوى ينطق بالتقاء الشفتين تمام الالتقاء إلى صوت الفاء ، وهو صوت شفوى أستانق ينطق بالتقاء الشفة السفلى والاسنان العليا ، أى أن الباء المهموسة والفاء لا تختلفان إلا من ناحية المخرج بدرجة ما ، فالشفة السفلى تشترك فى نطقهما ، ولذا لم يكن من الصعب حدوث هذا التغير . فالفاء العربية إذن صوت نتج عن صوت الباء المهموسة فى اللغة السامية الأولى .

السين والشين العربيتان وأصولهما السامية :

وهناك فرق آخر بين الاصوات العربية والاصوات التى افترض الباحثون وجودها فى اللغة السامية الأولى ، ويتعلق هذا الفرق بمجموعة أصوات السين

Broekelmann, Grundriss I 136.

(١) انظر :

برجشتراسر : التطور النحوى للغة العربية ص ١٤ .

Bergsträsser, Einführung 184.

والشين . تضم هذه المجموعة في العربية صوتين فقط هما السين والشين ، ولسكنها تضم في لغات سامية أخرى مثل المهرية ثلاثة أصوات هما السين الجانبية والسين والشين ، وتضم الكتابة المهرية رمزا للسين ورمزا للشين ورمزا ثالثا لحرب الساخ مما يشير إلى وجود ثلاثة أصوات في هذه المجموعة في العربية ، وقد أثبت البحث المقارن أن اللغة السامية الأولى كانت تضم ثلاثة أصوات تحولات في العربية إلى صوتين اثنين (١) لقد نشأت السين العربية عن صوتين اثنين أحدهما السين السامية الأولى والثاني الشين السامية الأولى . أما ذلك الصوت الثالث الذي افترض وجوده في اللغة السامية الأولى فقد ظل موجودا في المهرية ، وتحول في العربية والحبشية والأكادية إلى شين . ويتضح توزيع هذه الأصوات من الجدول التالي .

السامية	العربية	المهرية	الحبشية	الآرامية	العبرية	الأكادية
الأولى	الجنوبية	الشمالية				
	والمهرية					
السين	السين				السين	السين
		السين	السين	السين		
الشين	الشين				الشين	
						الشين
السين	السين	السين	السين	السين		
الجانبية	الجانبية				(الساخ)	

ويوضح هذا الجدول مدى تعقد العلاقات بين هذه الأصوات ، ونكتفي هنا

Brockelmann, Grundriss I, 128.

(١) انظر :

ترجمة مشتركة : التطور النحوي للغة العربية ص ١٤ - ١٥

بملاحظة أن السين العربية تمثل السين السامية الأولى من جانب كما تمثل الشين السامية الأولى من الجانب الآخر ، أما الشين العربية فتتمثل السين الجاثنية المفترضة في اللغة السامية الأولى .

وهكذا أوضحت الدراسة المقارنة لأصوات اللغات السامية عدة قوانين تلخص التقابل الصوتي وأثبتت هذه القوانين الصوتية أن اللغة العربية تمثل بصفة عامة أصوات اللغة السامية الأولى ، غير أن بعض أصوات العربية ثمرة تغير لغوي في العربية جعلها تختلف عن السامية الأولى .

٤ - الضمائر :

يتناول التحليل المقارن لبنية الكلمة كل مفردات اللغة ، وبهذا يتناول المنهج المقارن أنواعا من الكلمات كانت خارج إطار التحليل الصرفي عند النحاة العرب . وأهم هذه الأنواع الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وأسماء الاستفهام . ويصنف علم اللغة الحديث كل هذه الأنواع تحت اسم « الضمائر » ، وتضم الضمائر الشخصية بالمعنى الحديث الضمائر الشخصية وضمائر الإشارة والضمائر الموصولة ، وضمائر الاستفهام .^(١) وإذا كان التحليل الصرفي عند النحاة العرب لا يتناول هذه الكلمات ، فإنها تكون أحد موضوعات البحث في علم اللغة المقارن إلى جانب البحث في الأسماء (الأخرى) والأفعال والأدوات .

ويقوم تحليل الضمائر العربية في ضوء اللغات السامية على أساس تحليل صيغة كل ضمير إلى مكوناتها .

(١) انظر القسم الخاص ببحث Pronomina في كتاب : Brockelmann, Grundriss I 1297 ff.

— وكذلك : برجستراسر : التطور النحوي للغة العربية ص ٧٤ وما بعدها .

الضمير في العربية	الضمير الأساسي	النهاية	التفسير
أنا	أَنْ	na (a)	هذه النهاية مأخوذة من حرف المضارعة :
(= أَنْ)			

انت	أَنْ	ta -	هذه النهاية مأخوذة من حرف المضارعة : اكتب :
-----	------	------	---

أنت	أَنْ	ti -	تاء المضارعة + كسر نهاية المضارع
-----	------	------	----------------------------------

هو	أَنْ	(w)a	هاء عنصر اشارى ثم ، خففت الهمزة
----	------	------	---------------------------------

هي	أَنْ	(y)a	ها + 'a ← huwa
هي	أَنْ		hi + 'a ← hiya

يلاحظ من الجدول السابق أن الضمائر الشخصية المنفصلة للفرد تربط عناصرها المكونة بأحرف المضارعة ويتضح أيضا من مقارنة صيغ الضمائر الشخصية المنفصلة في اللغات السامية أنها تتكون بعناصر مأخوذة من السوابق التي يتكون بها صيغ الفعل المضارع (أحرف المضارعة) أو من اللواحق التي يتكون بها صيغ الفعل الماضي (ضمائر الرفع المتصلة) .

اللفظة	اللفظة	الضمير	الاساس	النهاية	التفسير
العربية	أنا	أَنْ	'a	هذه النهاية موازية لسابقة	
(أو بتقصير الحركة)				المضارع للمتكلم : اكتب	
الأكادية	anaku	أَنْ	ku	هذه النهاية هي الضمير	

المتصل بالفعل الماضي
المضمومة في الاكادية .

ومعنى هذا أن صيغ الضمائر الشخصية المنفصلة في اللغات السامية تضم عناصر أساسية تشترك فيها اللغات السامية ، وهذه عناصر موروثية مفرقة في القدم . وقد كونت اللغات المختلفة الصيغ المختلفة للضمائر الشخصية المنفصلة من عناصر مأخوذة من سوابق المضارع كما هي حال الصيغ العربية المذكورة ، أو عناصر مأخوذة من الضمائر الشخصية المنفصلة كما هي حال الضمير الاكادي المذكور .

وتختلف صيغ الضمير الشخصي المتصل بالماضي للمتكلم المفرد من لغة سامية لأخرى ، فهو في بعض اللغات يتكون من (الكاف) وفي لغات أخرى يتكون من (التاء) .

العربية	العبرية	الأكادية	الحثية	المهريّة
tu	-ti	.ka	-ku	.k

ويرجع الباحثون هنا أن اللغة السامية الأولى كانت تستخدم (الكاف) في هذا الموضع ، وأن العربية والعبرية اختلفتا بذلك من هذا الجانب عن اللغة السامية الأم . ويقوم هذا الرأي على أساس أن الكاف كانت ضمير المخاطب وأن التاء كانت ضمير المتكلم في اللغة السامية الأم ، ثم استخدمت العربية التاء للمتكلم والمخاطب معا ، وميزت بعد التاء بالضممة والفتحة والكسرة بين الصيغ المختلفة .

وهكذا يوضح المنهج المقارن العناصر المكونة لصيغ الضمائر من جانب ، كما يوضح عناصرها القديمة الموروثة عن اللغة السامية الأولى ، وعناصرها المتكونة في إطار اللغة العربية .

٥ - الأسماء الثنائية :

تقوم فكرة الميزان الصرفي عند النحاة العرب على أساس أن أكثر الالفاظ

العربية من أصل ثلاثي ، وقد أثبت البحث المقارن في اللغات السامية أن الأصل الثلاثي كامن وراء أكثر كلمات اللغات السامية وفي نفس الوقت ظهر عن طريق المقارنة أن مجموعة من الكلمات يمكن أن ترد إلى أصول ثنائية . والأصل هنا هو للصيغة الأقدم التي خرجت عنها الصيغ الأخرى ، وهناك فرق بين منهج النحاة العرب ومنهج علماء اللغات السامية بخصوص تحديد الأصل . كان العلماء العرب يحاولون التوصل إلى أصل الكلمة بتقليب الكلمات المشتقة من نفس المادة في العربية ، ولكن علم اللغة المقارن يحاول التعرف على الأصل التاريخي بمقارنة كل الكلمات السامية المنتمة إلى جذر واحد في محاولة لتحديد الأصل الذي صدرت عنه كل هذه الكلمات . ولا شك أن الضمائر وأكثر الأدوات تخرج عن إطار الأصل الثلاثي ، والبحث في قضية الثلاثية والثنائية يتناول الأسماء والأفعال التي يمكن أن ترد إلى أصل ثنائي (١) .

ويمكن تصنيف الألفاظ التي يردها العلماء إلى أصل ثنائي إلى عدة مجموعات من أهمها مجموعة الأسماء الدالة على القرابة ، ومجموعة الأسماء الدالة على أعضاء جسم الإنسان .

تعد الكلمات أب ، أم ، أخ ، حم ، ابن ، من أصل ثنائي وقد تطورت هذه الكلمات في اتجاه الثلاثي لإحداث ضرب من التوازن ولكي تصبح بمثابة "لا" أكثر الكلمات العربية وهي الكلمات الثلاثية . وحدث هذا التطور في هذه اتجاهات . أحدها يجعل حركة الأعراب طويلة فيكون الرفع بضمة طويلة (أبرك) والنصب بفتحة طويلة (أباك) والجر بكسرة طويلة (أبيك) ، غير أن هذه الكلمات تحتفظ بثنائيتها عندما تضاف إلى ضمير المتكلم (أني ، هي ، أخى) . والاتجاه

(١) أهم الدراسات حول قضية الأسماء ذات الأصل الثنائي ما كتبه نولدكه :

Nöldeke, Zweiradikalige Substantive, in: Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, n. 109-178 .

الثاني لجعل هذه الكلمات متوازنة مع الثلاثي كان بتشديد الصامت الثاني في الكلمات أب، أم، أخ، حم. ونجد هذا في لهجات عربية كثيرة. أما كلمة «بن» فقد وُسِّمت صيغة بألف الوصل. وتظهر هذه الكلمة بالباء والنون في الاشورية والعبرية والعربية، ولكنها في الآرامية والمهرية بالباء والراء. وتدل صيغة الجمع في الآرامية والمهرية بالإضافة إلى صيغة المفرد والجمع في اللغات السامية الاخرى على أن أصل هذه الكلمة هو الباء والنون، كما في العربية. وأما صيغة المفرد في الآرامية والمهرية فهي تطور خاص باللغتين ولا يعكس الصيغة الموروثة من اللغة السامية الامم.

هناك مجموعة ألفاظ ذات أصل ثنائي في اللغات السامية وتدل على أعضاء جسم الإنسان منها كلمة «يد»، وكلمة «دم»، رثة وكلمة «لثة».

ترد كلمة يد في اللغات السامية كلها مكونة من الياء والذال عما يشير إلى ثنائية أصل هذه الكلمة. غير أن بعض اللهجات العربية حاولت جعل هذه الكلمة في شكل الثلاثي بأن شددت الذال، وحاولت لهجات عربية أخرى جعلها ثلاثية بإضافة همزة في أول الكلمة.

أما كلمة «دم» فهي من أصل ثنائي أيضا كما تشهد بذلك الصيغ في العربية الفصحى وغيرها من اللغات السامية. أما الصيغة التي تعرفها بعض اللهجات العربية بتشديد الميم فترجع إلى الاتجاه العام لجعل هذه الكلمة الثنائية الاصل في شكل ثلاثي مثل أكثر الكلمات العربية.

أما الكلمات «رثة» و«شفة» فتعد من أصل ثنائي تطور بإضافة تاء التأنيث إلى الاصل الثنائي.

وهناك كلمة ترد إلى أصل أحادي. وهي كلمة الفم (فوك. فيك، فاك). قالاصل المشترك هو الفاء التي ترد في اللغات السامية أصلا لهذه الكلمة وقد تكونت الصيغة العربية من هذه الفاء مع حركة طويلة في الرفع والنصب

والجر . أما الميم التي تظهر في كلمة فم فيمكن أن تكون راسباً من رواسب ظاهرة التجميع ، وهي ظاهرة تقابل التنوين في بعض اللغات السامية .

وقد أوضح البحث ثنائية كلمات أخرى كانت موضع خلاف بين النحاة العرب . وقد اختلفوا قديماً في كلمة و اسم ، أهي مشتقة من السمة أم من السموا^(١) ، وأثبت البحث المقارن أن الأصل ثنائي ، هو الشين والميم في اللغة السامية الأم بدليل الصيغ السامية المختلفة . وبمراعاة أن الشين السامية الأم قد تغيرت إلى سين عربية يتضح أن الصيغة ذات أصل ثنائي ، أما ألف الوصل التي أدخلت على الصيغة العربية فكانت لجمل الكلمة مشابهة للإلفاظ الثلاثية ولإحداث نوع من التوازن مع أكثر الكلمات العربية .

٦ - الأفعال :

هناك مجموعة من الأفعال التي نعرفها في شكل ثلاثي ، ويمكن ردها بالمقارنة إلى أصل ثنائي وتنظم هذه الأفعال في مجموعتين :

(أ) أفعال تبدأ بالسين مثل : سكب بالمقارنة مع كب ، فواضح هنا تقارب المعنيين ، وتقارب الصيغة مما يشير إلى كون الأصل السكاف والباء وأن الصيغة قد وسعت في اتجاه الثلاثي بإضافة السين في أولها أو بتشديد الحرف (قارن خف ، يخف)

(ب) أفعال تبدأ بالنون مثل : نقص بالمقارنة مع قص ، فعنى الكلمتين متقارب ، والصيغتان ترجعان إلى أصل وُسَّح بإضافة النون قبل الأصل الثنائي أو بتشديد الحرف الثاني من الأصل . (قارن جس ونجس وكذلك ذل ونذل) .

(١) انظر : ابن الأنباري : الانصاف في مسائل الخلاف بين التحويين ، (المسألة الأولى) في تحقيق فايل ص ١ - ٦ .

وتولذلك (البحث المذكور في ٩) ١٤٠ - ١٤٣ .

ويمكن جمع مزيد من الأمثلة بتتبع الظاهرتين في المعجم العربي .

٧ - تحديد الجدور في ضوء المقارنات :

توضح الدراسات المقارنة عدة حقائق تجاه تحديد الجدور في بعض الكلمات .
لقد ورد الفعل « هرق » في اللغة العربية وكأنه من الجذر « هرق » (١) والواقع أن الهاء هنا ليست أصلية ، بل هي هاء وزن هفعل ، وهذا الوزن قياسي في العربية والعربية الجنوبية في مقابل وزن « أفعل » في العربية الشمالية ولعل مقارنة كلمة « أراق » وكلمة « هراق » بنفس المعنى توضح لنا أن الأولى بوزن أفعل وأن الثانية بوزن هفعل ، وكلا الوزنين للتمدية في اللغات السامية . وعلى ذلك فكلمة هراق بوزن هفعل ، ومن الممكن أن تكون دخيلة من العربية الجنوبية ، ومن الممكن أيضا أن تكون راسبا من اللغة السامية الأولى إذا افترضنا أنها عرفت أيضا وزن هفعل للتمدية ، ويصدق ما ذكرناه حول كلمة « هراق » على كلمات أخرى في العربية مثل : هجرع ، هبلع . . الخ . وقد يكشف بحث الكلمات المبدوءة بالهاء في العربية عن أمثلة كثيرة من هذا النوع ، الهاء فيها زائدة لا أصلية .

وإذا كان ثمة خلافا في تحديد الحروف الاصول في كلمة « مدينة » (٢) فإن بحثها في ضوء اللغات السامية يوضح أن الميم زائدة ، ففي العربية والعبرية نجد كلمة « دين » بمعنى القانون ، وفي الآرامية « دينا » . كما نجد في العبرية « بيت دين » بمعنى المحكمة ، وفي العربية والعبرية « ديسان » بمعنى القاضي ، وقد عبرت كلمة مدينة في الآرامية في منطقة الشام قبل الإسلام بمعنى المنطقة الإدارية أو الدائرة

(١) انظر : فصيح ثعلب . مادة : هرق .

في باب : « فعلت بغير ألف » .

(٢) انظر : مادة (مدن) ، ومادة (دين) في المعاجم العربية .

القضائية مرتبطة بهذا المعنى القضائي الذي مازلنا نجد في كلمات عربية مثل دائن ، مدين ، أدان ، إدانة .. الخ . وعندما أطلق الرسول (ص) على يثرب اسم المدينة كان هذا الاستخدام مرتبطاً بظهور الدولة الإسلامية الصغيرة حول الرسول وهو يحكم في المدينة . وهكذا توضح الدراسة المقارنة جوانب مختلفة في تحديد الجذور في كلمات عربية مختلفة .

٨ - الألفاظ المشتركة :

العلاقة بين الألفاظ العربية وما يقابلها اشتقاقياً في اللغات السامية الأخرى تناول موضوعين اثنين . فهناك ألفاظ تشترك فيها اللغات السامية بصفة عامة وترجع إلى اللغة السامية الأم . وإلى جانب هذه فهناك ألفاظ دخلت من إحدى اللغات السامية إلى لغة سامية أخرى ، كأن تدخل كلمة عربية إلى الحبشية أو كلمة عبرية إلى الآرامية .. الخ . ومعنى هذا أن البحث يتناول الألفاظ السامية المشتركة من جانب ، والألفاظ الدخيلة من لغة سامية لأخرى من الجانب الآخر .

وهناك مجموعة من الألفاظ المشتركة في اللغات السامية . والمقصود بذلك أن جذورها الاشتقاقية مشتركة . وليس معنى هذا أن معناها متفق في اللغات السامية المختلفة كل الاتفاق ، فالتغير الدلالي ظاهرة معروفة في إطار اللغة الواحدة فضلاً عنه في إطار الأسرة اللغوية الواحدة فالكلمة د لحم ، تعني في العربية شيئاً مخالفاً لما تعنيه كلمة Léhem ، في العبرية ، فالأخيرة تعني الخبز . واضح أن الكلمتين العربية والعبرية من جذر اشتقاقى واحد هو ل ح م . ويتفق معنى هذا الجذر اتفاقاً بعيداً في أن المقصود هو الأكل اليابس غير السائل ، ولكن اختلاف معنى الكلمتين قد جعل كلا منهما تخصص بمعنى محدد ، فأصبحت كل منهما ذات دلالة مختلفة عن الأخرى . وهناك مثال آخر يوضح فكرة وحدة الأصل الاشتقاقى وتغير دلالات الكلمات المشتقة منه في اللغات السامية المختلفة . فالكلمة د أهل ، في العربية يقابلها في العبرية Ohél . هما من أصل اشتقاقى واحد هو همزة وهاء

ولام . ولكن الكلمة العبرية تعنى « الخيمة » ولا تعنى أى شئ آخر، أما الكلمة العربية فتعنى الأسرة عموماً أو الزوجة بصفة خاصة . وهناك علاقة بين المعنيين يمكن تصورهما بأن المجتمع البدوى أو شبه البدوى وصف الخيمة أو الزوجة التى بها أو الزوجة والأولاد الذين بها بنفس الكلمة . لقد تغير المعنى وتحدد فاختلفت دلالة الكلمة العبرية عن الكلمة العربية المقابلة لها اشتقاقاً . فلا شك أن الزوجة تختلف عن الخيمة . فالمعجم الاشتقاقى للغات السامية وأية دراسة للمقابلات السامية من ناحية المفردات تبحث الكلمات التى انحدرت من أصل اشتقاقى واحد ثم يبحث مدى الاتفاق أو الاختلاف الدلالى بعد ذلك .

٩ - الدخيل فى ضوء القوانين الصوتية :

وتحديد كون أية كلمة مشتركة فى لغتين ساميتين أصيلة موروثاً فيهما من اللغة السامية الأم أو دخيلة من إحدى اللغتين إلى اللغة الأخرى إنما يتم بمعيار لغوى فى المقام الأول . وهذا المعيار الذى ارتضاه البحث الحديث يدخل فى إطار التطبيقات المباشرة لفكرة « القوانين الصوتية » . وليس هذا المعيار جديداً كل الجدة ، فقد عرف اللغويون العرب وجود مقابلات مطردة بين العربية والآرامية . وهناك مثالان ذكرهما الجوالبقى (ت ٥٤٠ هـ) فى كتابه « المغرب » (١) ، ويوضحان أنه طبق فكرة القوانين الصوتية لإثبات كون الكلمة دخيلة فى العربية . ذكر الجوالبقى أن كلمة « الناطور » من المغرب وأنها تعنى « حافظ النخل والشجر » وقد استدل على كونها غير عربية الأصل بما ذكره الأصمعى أن المقابل العربى لهذه الكلمة هو « الناطور » بالطاء . والواقع أن الطاء العربية يقابلها طاء فى الآرامية ، وهذا قانون من القوانين الصوتية المطردة . وكان الجوالبقى قد لاحظ إطراد المقابل

(١) انظر المغرب للجوالبقى ، ص ٣٣٤ ، ص ٦٨ .

بين الظاء العربية والطاء الآرامية . فالمادة «نظر» في العربية لا بد وأن يقابلها «نطر» في الآرامية . يقول الجواليقي : « والنبط نجعل الظاء طاء » وتدل كلمة النبط عند الجواليقي على البيئة اللغوية الآرامية ، ويبدو أن هذا يرجع إلى أن النبط كانوا من أقرب مستخدمي اللغة الآرامية إلى العرب . واستدل الجواليقي على إطراد هذا القانون الصوتي بكلمة : « برطلة » وتعني « ابن اقل » . والواقع أن كلمة «بر» في الآرامية تعني « ابن » في العربية ، أما الكلمة الثانية فتنتهي بفتحة طويلة ، دونت تاء مربوطة ، للدلالة على التعريف . وباقي الكلمة متفق مع الكلمة العربية « ظل » إلا في التقابل بين الظاء العربية والطاء الآرامية . وبهذا عرف الجواليقي معتمداً على ملاحظات اللغويين في القرن الثاني الهجري مثل الأصمعي فكرة القوانين الصوتية بين العربية والآرامية وطبقها تطبيقاً محدوداً للتعرف على عدم أصالة الكلمة في العربية ولتحديد أصلها .

وقد ارتضى البحث الحديث تطبيق فكرة القوانين الصوتية باعتبارها المعيار الأول لتحديد أصالة الكلمة أو عدم أصالتها من الناحية الاشتقاقية (١) . ونوضح هذه الفكرة بمجموعة أمثلة تنتمي إلى المادة العربية «نفر» وما يقابلها وفق القوانين الصوتية في اللغات السامية المختلفة . التاء العربية تعبر عن التاء في اللغة السامية الأم . ويقابلها الشين في العبرية والتاء في الآرامية . أما الغين العربية فيقابلها في الآرامية والعبرية صوٹ العين . ومعنى هذا أن المقابل الاشتقاقي المباشر للمادة العربية (ث غ ر) هو (ش ع ر) في العبرية و (ت ع ر) في الآرامية . وهذا ما نجد في الكلمات «نفر» في العبرية ، ear في العبرية ، و tar'a في الآرامية . وواضح أن هذه الكلمات من جذر اشتقاقي واحد ، وقد طرأ على الكلمة الآرامية قلب مكاني وألحقت بها الفتحة الطويلة التي كانت أداة التعريف في الآرامية . أما معنى

(١) أنظر مثلاً . برجشتراسر : التطور النحوي للغة العربية ص ١٤٠-١٥٤ .

الكلمة ذات الأصل الإشتقاقى الواحد . المعنى الأساسى لكل هذه الكلمات هو معنى الفتحة فتدل كلمة « ثغر » فى العربية على منافذ الدولة نحو الخارج ونقط الحدود فكانت توصف منطقة الحدود العربية البيزنطية بأنها الثغور ، وعندما تطورت دلالة هذه الكلمة إلى معناها الحديث فى العربية تحدد معناها بالمنافذ البحرية للدولة وكانت من قبل تدل على المنافذ البحرية أو البرية دول تخصيص . يضاف إلى هذا استخدام كلمة « ثغر » بمعنى فتحة الفم . أما فى العبرية فتدل كلمة (شمر) على الباب أو المدخل . وتدل للكلمة الآرامية (ترعا) على الباب أو المدخل أو الثنى . الموصل إلى شىء آخر . وعندما انتقلت الصيغة الآرامية المذكورة إلى العربية احتفظت بسمتين أساسيتين دلنا على كونها غير أصيلة فى العربية ودخيلة من الآرامية ، وهما وجود التاء - لالتاء - ووجود الفتحة الطويلة فى آخر الصيغة وكلاهما من السمات المميزة للصيغة الآرامية . وحدث تخصيص دلالى عندما انتقلت هذه الصيغة الآرامية إلى العربية ، فأصبحت تدل فى العربية على المجرى المساقى الموصل من منطقة إلى منطقة .

١٠ - المقارنات اللغوية وتاريخ الالفاظ :

وتوضح المقارنات اللغوية تاريخ كثير من الالفاظ العربية . فالالفاظ التى وردت فى الشعر الجاهلى أو فى المعاجم العربية أو فى القرآن الكريم لا ترجع من الناحية الإشتقاقية التاريخية إلى مرحلة واحدة ، ففيها ألفاظ مغرقة فى القدم وفيها ألفاظ أحدث عهداً . ويمكن بصفة عامة إعتبار الالفاظ المشتركة فى اللغات السامية عموماً أو المشتركة بين العربية والآكادية بصفة خاصة من ذلك التراث اللغوى الذى عرفته اللغة السامية الأم قبل أن تبدأ الهجرات إلى العراق والشام ، أى أن هذه الالفاظ ترجع إلى ما قبل سنة ٢٥٠٠ ق م . أما الالفاظ التى نجدتها فى الشعر الجاهلى أو القرآن الكريم أو المعاجم العربية ولا نجد مقابلاً للإشتقاقى فى اللغات السامية القديمة فهذه ألفاظ دخلت العربية أو كونتها العربية فى الفترة ما بين الهجرات وتأليف الشعر الجاهلى أو نزول القرآن الكريم . ونوضح هذه القضية بإبحث مجموعة ألفاظ

دلت في مستويات لغوية متعاقبة على الرجل والمرأة وعلاقتها . تشترك اللغات السامية كلها في كلتي ذكر وأنثى ، وينطبق على صيغ الكلتيين في الأكادية والعبرية والآرامية القوانين الصوتية الخاصة بالأصوات المكونة دون أدنى شذوذ . وهذا يدل على أن كلتي ذكر وأنثى من المعجم السامي المفقود في القدم الذي عرفتة اللغة السامية الأم قبل أن تبدأ الهجرات السامية حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م . ولكننا نجد في العربية كلتيين آخرين هما « بعل » و « زوج » ، تدل كلمة « بعل » على الرجل المرتبط بعلاقة زواج ، مع المرأة « الزوج » ، ولكل كلمة من الكلتيين نشأة مفارقة ولكن معناها يفهم كوحدة تضاد دلالي . نرجع كلمة « بعل » إلى المعجم السامي القديم وهي معروفة في أكثر اللغات السامية وتعني الإله أو الرب أو السيد . ولكن إستخدامها بمعنى الرجل المتزوج ارتبط بوجود كلمة « زوج » ، ونرجع كلمة زوج إلى أصل سامي فهي من الكلمة اليونانية Zeggos التي دخلت الآرامية أول الأمر فكانت بصيغة تنتهي بالانتهائية اليونانية os بل بالنهاية الآرامية وهي الفتحة الطويلة ، ولذا فالصيغة الآرامية زوجا تكونت إلى جانب الصيغة غير المنتهية بإداة التعريف « زوج » . ثم انتقلت هذه الكلمة إلى العربية واتخذت فيما ذلك المعنى المقابل لمعنى كلمة « بعل » ، فالبعل هو الرجل المتزوج وزوجته هي « الزوج » . وظل هذا الإستخدام سائداً إلى أن لاحظ الاصمعي أن بعض أبناء عصره يستخدمون كلمة زوجة ، وأنكر الاصمعي هذه الصيغة واعتبرها خطأً . ويمكن تفسير ظهور هذه الصيغة أحد تفسيرين : أحدهما أنها الصيغة العامة التي استمرت من الآرامية ، والثاني أنها محاولة لإضافة علامة التأنيث إلى صيغة دالة على المؤنث . وفي القرون التالية لما لاحظ الاصمعي أصبح التقابل الدلالي بين كلمة زوج الدالة على الرجل المتزوج وكلمة زوجة الدالة على المرأة المتزوجة . أي

(١) حول رأى الاصمعي في هذه الكلمة ، انظر :

الموشح للمرزباني ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

أن وجود كلمتي زوج وزوجة جنباً إلى جنب أدى إلى أن تختص الكلمة الأولى بالمذكر والثانية بالمؤنث . وبهذا المعنى استمر استخدام الكلمتين في النصوص العربية إلى اليوم .

ويعكس التحول في التسمية من (ذكر / أنثى) إلى (بعل / زوج) تحول الإنسان من الوصف البيولوجي البسيط الذي حددته « الطبيعة » إلى العلاقة الاجتماعية التي جعلت منه إنساناً يسهم في تكوين الحضارة . أما التحول في (بعل / زوج) إلى (زوج / زوجة) فقد أدى إلى إختفاء كلمة « بعل » فلم يبق لها وجود حتى في اللغة العربية إلا في بعض أسماء الأماكن في لبنان مثل بعلبك (إله البقاع أو الإله باخوس) ، وبعل شمعونية (= إله السماء) واختفت الكلمة (١) عندما ظهر التقابل الجديد بين (زوج / زوجة) .

ولكن اللغة العربية ذات قدرة كبيرة على الاستفادة من الجذور الأصلية والداخلية فيها . ولذا صيغت كلمات كثيرة من مادة (ز - و - ج) كما لو كانت هذه المادة عربية سامية . ولذا ظهرت الكلمات التالية : زوج - تزويج - زواج - مزوجة - مزدوج - ازدواج ... الخ .

وبهذا يمكن عن طريق القوانين الصوتية وتقع المجموعات الدلالية وانتقال الالفاظ من اللغات السامية وغير السامية إلى العربية تأريخ جوانب مختلفة من حياة الالفاظ العربية .

(١) لم أدخل في الاعتبار وجود كلمة « بعل » في لهجات العراق ، وفي اللغة المهرية - دون عين ، وفي صيغة النسبة : « بعلي » الموجودة في لهجات منطقة الشام وصفا للاراضي التي تروى بمياه الأمطار . وفي هذه الأمثلة نجد كلمة « بعل » بمعنى السيد الزوج ، أو الإله ، « بعلي » بمعنى ما يأتي به الإله .

الفصل الثاني عشر

العربية في جزيرة العرب

١ - النقوش العربية القديمة :

كشفت الدراسات المبدئية التي قام بها عدد من الأوروبيين في منطقة شمال الجزيرة العربية ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر إلى اليوم من عدة آلاف من النقوش^(١). وقد لوحظ أن بعض هذه النقوش مكتوب بعناية وإتقان ، فلكل حرف شكله الواضح المتميز ، ولكن بعض هذه النقوش لم تكتب بعناية ، ولذا لا يتخذ كل حرف ملاح واضحاً متميزة . ويطلق على النوع الأول مصطلح نقش inscription ، بينما يسمى النوع الثاني باسم الجرافيتي Graffiti^(٢) أي المخربشات وقد أمكن تقسيم هذه النقوش الكثيرة إلى هذه المجموعات ، أهمها : مجموعة النقوش

(١) بدأ اكتشاف هذه النقوش على يد Doughty (١٨٦٧ - ١٨٧٧) .

ونشرت أقدم مجموعة من هذه النقوش في : Ch. Doughty ,

Documents épigraphiques recueillis dans le Nord l'Arabie .
Paris 1884 .

وحول تاريخ هذه الكشف انظر ما كتبه ليتمان :

E. Littmanns, Thamud und Safa, s. 1.6, 62-95 Leipzig 1940.

(٢) يرجع مصطلح inscriptions إلى الكلمة اللاتينية المركبة inscriptio ،

وتعني الكتابة أو الكتابة الغائرة . أما كلمة Graffito وجمعها Graffiti فهي

اصطلاح أوروبي يرجع إلى الإيطالية .

التمودية ، مجموعة النقوش الصفوية ، ومجموعة النقوش اللحيانية . ويقوم هذا التقسيم على عدة معايير متكاملة أهمها : أماكن وجود النقوش ، الخصائص اللغوية ، خصائص الكتابة . وبمجموع هذه المعايير يحدد لنا كون نقش بعينه صفوياً أو تمودياً أو لحيانياً .

النقوش التمودية :

تنسب النقوش التمودية^(١) إلى قبيلة تمود ، التي ورد اسمها في هذه النقوش كما ورد اسمها في آيات كثيرة من القرآن الكريم وجاءت قصة أهلها فيه . وقد أثار بعض الباحثين قضية كون كتاب هذه النقوش قبيلة واحدة أم عدة قبائل تعاملت بنفس اللغة^(٢) ، وليس لهذا التساؤل أية إجابة ، لأن النقوش هي مصدرنا الوحيد للتأريخ لكتاب هذه النقوش ، وليس هناك تحديد واضح لكلمة قبيلة ، فإذا كان كل تجمع بشري يحس بنوع من الانتماء العرقي يمكن أن يعد قبيلة ، فن الممكن أن نشطر القبيلة الواحدة إلى قبيلتين أو أكثر . ولكن الثابت أن التموديين كونوا جماعة لغوية واحدة ، وهذا ما يهبط في إطار البحث اللغوي .

وجدت النقوش التمودية في منطقة مدائن صالح في شمال قوب الجزيرة العربية وفي مناطق أخرى مجاورة لها مثل مدينة العلا (= ديدان ، في التاريخ القديم) كما وجدت في حائل وتبوك . وهناك عدة نقوش تمودية وجدت خارج

(١) أهم مجموعات النقوش التمودية المنشورة :

A. van den Branden, les inscriptions thamoudéennes, Louvain 1950.

(٢) حول هذه القضية انظر ما كتبه :

A. van den Branden, Histoire de Thamoud. p. 21. Beyrouth 1966.

الجزيرة العربية ، وأهمها في شبه جزيرة سيناء . وأكثر النقوش الثمودية تقناول أشياء شخصية لا ترتبط بقرائن تاريخية أو أحداث هامة تمكن من تأريخ هذه النقوش ، ولذا فليس من الممكن تحديد زمن تدوين أكثر هذه النقوش على نحو مباشر ، والتاريخ الوحيد المؤكد هو تاريخ نقش ثمودى مراد لنقش نبطى وكلاهما من سنة ١٦٢ بعد سقوط دولة النبط ، فقد كان عرب شمال الجزيرة العربية يؤرخون بسقوط دولة النبط سنة ١٠٥ م ، أى أن النقش الثمودى المقصود يرجع إلى سنة ٢٦٧ م . ويميل الباحثون إلى تأريخ النقوش الثمودية اعتماداً على قرائن أخرى خاصة بأشكال الحروف ، فالحروف المتشابهة تكون من فترة زمنية واحدة ، وكلما تباينت أشكال الحروف كانت من فترات زمنية متباعدة ، ووفق هذا المعيار يؤرخ أقدم النقوش الثمودية بالقرن الخامس قبل الميلاد ويؤرخ أحدثها بالقرن الرابع الميلادى ، أى أنها إمتدت وفق هذا التقدير حوالى تسعة قرون (١)

النقوش الصفوية :

تنسب النقوش الصفوية إلى المسكان الذى وجدت فيه ، فبالقرب من منطقة جبل الصفا الواقع جنوب شرق دمشق وجدت مجموعات كبيرة من هذه النقوش ، فسميت باسم « النقوش الصفوية » . وقد وجدت بعد ذلك نقوش كثيرة في مناطق مجاورة لهذه المنطقة ، ولكنها تتفق معها في الخط والخصائص اللغوية ،

(١) حول أماكن وجود النقوش الثمودية ، وقضية تأريخها انظر :

E Littmann, Thamud Safa. Leipzig 1940.

وقد تناول ليتمان في كتابه المذكور الموضوعات الأساسية الخاصة ببحث هذه النقوش . ص ١ - ٣٩ ثم جاء بمجموعة من النقوش المختارة مع شرحها والتعليق عليها ص ٤٠ - ٩١ .

ولذا عدت أيضا من النقوش الصفوية (١) وأكثر النقوش الصفوية يخلو من أية إشارة تاريخية ، ولكن بعضها يشير إلى بعض الأحداث المعروفة . فقد ذكرت النقوش أحداثا كثيرة من القرن الثاني الميلادي ، ولا شك أن الصفويين كانوا في هذه المنطقة قبل هذه الأحداث بوقت طويل . وهناك مجموعة من النقوش بها أسماء بعض الشخصيات المعروفة في تاريخ المنطقة ، فالملك أذينة كان يحكم في تدمر في منتصف القرن الثالث الميلادي ، وقد جاء اسمه في نقوش معاصرة له . وترجع نقوش أخرى جاءت فيها بعض أسماء شخصيات رومانية مثل Alexander Severus, Septimus Severus إلى القرن الثالث الميلادي أيضا . وهناك نقش به ذكر لامري. القيس ملك العرب ، فإن صح هذا فهو من أوائل القرن الرابع الميلادي . وهكذا تمكن بعض النقوش من تحديد زمن تدوينها في القرن الثاني أو الثالث أو أوائل الرابع بعد الميلاد ، ولكن بداية كتابة النقوش الصفوية ما يزال يكتنفها الغموض .

النقوش الليمانية :

تنسب النقوش الليمانية (٢) إلى دولة لحيان التي تذكرها النقوش باعتبارها كيانا سياسيا يحكم منطقة في شمال غرب الجزيرة العربية . وقد وجدت مجموعات من هذه النقوش في منطقة العلا (= ديدان) ، ويبدو أن ظهور مملكة لحيان

(١) حول النقوش الصفوية وقضايا البحث فيها انظر الكتاب المذكور لليتينان الصفحات ٩٢ - ١٢٠ ، وقد جاء ليتيان بمجموعة نصوص مختارة مع شرحها والتعليق عليها ١٢١ - ١٤٣ .

(٢) حول النقوش الليمانية ودولة لحيان ، انظر :

W. Gaskel. Libyan und Lihyynish, Köln 1954.

ويضم الكتاب المذكور مجموعة مختارة من النقوش مع شرحها .

ارتبط بسقوط الدولة الميعية ، وهي دولة عربية جنوبية كانت لها مستعمراتها في الشمال ، وفي القرن الثاني قبل الميلاد أخذت منطقة ديدان تحس باستقلالها فبدأوا يكتبون على نحو متميز ، وهناك نقوش لحياينة تمضى بنا حتى أواخر القرن الثالث الميلادى ، أى أن هذه النقوش كتبت على مدى خمسة قرون بدأت باستقلال الحبان وانتهت بنهاية ملكة الحبان على يد الرومان .

الخط :

كتبت النقوش النمودية والصفوية واللاحيانية بخط أبجدى يقوم على أساس الخط العربى الجنوبي القديم^(١) . ورغم الاختلاف الكبير فى شكل الحرف الواحد فى كل مجموعة من مجموعات النقوش السكثيرة إلا أن كل هذه الاشكال تمتد إمتداداً مباشراً لشكل الحرف فى الخط العربى الجنوبي القديم . وهناك نقوش مدونة من اليمين إلى اليسار ، وأخرى من اليسار إلى اليمين ، فافهماء الكتابة يختلف من نقش لآخر ، وهناك نقوش مكتوبة بخط المحراث boustrophedon بأن يكتب السطر الاول من اليمين إلى اليسار ثم يكتب السطر الثانى من اليسار إلى اليمين ثم يكتب السطر الثالث من اليمين إلى اليسار وهكذا .

تتفق كل النقوش العربية القديمة فى تدوينها للصوامت مثل الباء والتاء والسين ، لكل صوت منها حرف متميز ، ولكن الفرق الاساسى بين كتابة هذه النقوش والخط العربى الحالى أن هذه النقوش لا تدون الحركات الطويلة ، فضلاً عن عدم تدوينها للحركات القصيرة . فمتدا يرد فى أحد النقوش (آل) فقد يكون المقصود كلمة (آل) الدالة على الإلتواء القبلى ، وقد يكون المقصود كلمة (ايل) الدالة على الاله ، وقد يكون المقصود حرف الجر (إلى) . ومعنى هذا أنه من الصعب التعرف على النطق السكالم لأية كلمة وردت فى هذه النقوش ، فالحركات الطويلة ناقصة والحركات القصيرة أيضاً . وتؤثر هذه السمة فى عدم بروز أوزان كاملة ، فالفرق

(١) انظر الفصول الخاصة بالكتابة فى كتاب لبتان المذكور .

بين وزن فَعَلَ - ووزن فاعَلَ يقتصر على وجود فتحة قصيرة بعد فاء الأول وفتحة طويلة بعد فاء الثاني ، وكلتا هما لا تدون في هذه النقوش ، وعلى ذلك فالفعلان (سمد) و (ساعد) يكتبان بنفس الحروف (س ع د) . ومعنى هذا أنه إذا وجدت الواو مكتوبة فهي تدل بالضرورة على صوت صامت لاعلى حركة طويلة ، فإذا دونت النقوش (ج و ر) فالمتصور اسم العلم (جوهر) . وبالمثل إذا دونت الياء فهي تدل على صوت صامت لاعلى حركة ، فمثلاً (ي خ ل د) تدل فيها الياء على صوت صامت (اتقبه فتحة) . ويؤدي عدم تدوين الحركات القصيرة إلى عدم معرفتنا بطبيعة هذه الحركات داخل الكلمة وفي آخرها ، وعلى ذلك فلا يمكن بحث قضية النهايات الاعرابية وهل كانت موجودة أم لا في ضوء هذه النقوش . وبالمثل فالتدوين لا يدون هذه النقوش ، حتى إن افترضنا وجوده فيها . وعلى ذلك فكيفية تدوين هذه النقوش تجعل الاستفادة منها للتعرف على الخصائص اللغوية محدودة ، وهي تقيّد في التعرف على وجود بعض الكلمات في هذه النقوش وفي التعرف من السياق على معانيها فيها ، كما تقيّد أيضاً في التعرف على بعض خصائص الجملة .

اللغة

عندما يجد الباحث مجموعة من النقوش في شمال الجزيرة العربية بالقرب من منطقة الشام والعراق تطرح دائماً عدة فروض حول لغة هذه النقوش ، فقد تكون عربية وقد تكون كنعانية وقد تكون آرامية ، وقد تكون امتداداً للغة أخرى من خارج هذه المنطقة مثل العربية الجنوبية . وقد أثبتت الدراسات المبدئية للغة هذه النقوش أنها عربية ، ومن الممكن دون صعوبة قراءة هذه النقوش باعتبار أنها نصوص عربية .

ترد في النقوش مجموعة أفعال نعرفها بصيغها ومعانيها في العربية ، وأهم هذه الأفعال : علم ، حل ، بات ، رعى ، ذكر ، نعم ، خط ، تشوق ، كتم ، ود ، قنص ، صاد ، قاد ، حب . ويضم معجم الأسماء في هذه النقوش ألفاظاً كثيرة

تعرفها الحياة الصحراوية ، مثل : وعل ، جمل ، لجمع ، أثر ، دار . وتضم هذه النقوش مجموعة من الحروف المعروفة في العربية منها : إلى ، من ، لم ، الباء ، الفاء ، اللام . وهكذا تتفق النقوش من الناحية المعجمية مع عربية الجاهلية (١) .

وثمة ظاهرتان جديرتان بالملاحظة في لغة هذه النقوش وهما : استخدام الاسم الموصول (ذ) ، واستخدام أداة التعريف (هـ) . وكلتا السمتين موجودة في بعض اللهجات العربية . أما (ذ) المدونة في النقوش فقد تكون متصرفة إعرابياً (ذو ، ذا ، ذى) وقد تلزم حالة واحدة من الحالات المذكورة دون تصريف إعرابي . ومع هذا فلا شك أن استخدام هذه البكلة كاسم موصول هو ما عرف قديماً عند قبيلة طيء ، فقد ذكر النحاة أن قبيلة طيء كانت تستخدم بكلمة (ذو) اسماً موصولاً (٢) . وأما استخدام الهاء كأداة للتعريف تحمل الدلالة الإشارية فهو ما تعرفه لهجات عربية كثيرة في الشام وجزيرة العرب إلى اليوم ، عندما يقولون (هالولد) و (هالبت) .

إن الخصائص اللغوية للنقوش الثمودية والصفوية والحياتية تثبت أن كتابها كانوا من البيئة اللغوية العربية ، وثبتت أسماء الأعلام الواردة في هذه النقوش أن كتابها عرب جاهليون وثيون نجد فيها أسماء مركبة منسوبة إلى معبودات الجاهلية مثل : عبد مناة ، وزيد شمس ، وعبد إيل ، وعبد يغوث ، وتم يغوث ، وتم اللات . فهذه أسماء عربية جاهلية ، عاش أصحابها حياة تشهد النقوش بأنها قبلية .

(١) حول لغة النقوش الصفوية انظر ما كتبه ليتمان في :

Semitic Inscriptions, Leiden 1904.

وكذلك ما كتبه حول النقوش الثمودية في :

Thamud und Saba, s 31-34.

(٢) حول (ذو) الطائفة انظر : ابن هشام : مغنى اللبيب ٢/٧٠٥

فأصحاب هذه النقوش يذكرون أنسابهم ويعرفونها معرفة تفصيلية ، فسلال الانساب أبرز ما أتى به النقوش . وكتاب هذه النقوش ينسبون أنفسهم إلى قبائلهم في عدد كبير من النقوش مستخدمين كلمة (آل) المعبرة عن الإلتواء القبلي . وهكذا ثبتت الخصائص اللغوية لهذه النقوش وأسماء الأعلام الواردة فيها وسلاسل النسب فيها أن كتاب هذه النقوش عرب وأن لهجاتهم اليومية تدخل في إطار اللهجات العربية .

٢ - اللهجات العربية واللغة الفصحى :

المصادر القديمة التي تمدنا ببعض الظواهر اللغوية في اللهجات العربية القديمة تنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين ، أولاهما: كتب النحو، الثانية: كتب اللغة والمعاجم ومعظم المادة التي جاءت في كتب النحو واللغة إنما جمعت من لهجات البادية في القرنين الأول والثاني . حاول اللغويون الذين جمعوا هذه المادة النظر بعيار الخطأ والصواب إلى كل الظواهر اللغوية التي عرفها عصرهم ، ولذا رفضوا أخذ اللغة عن القبائل التي عاشت في مناطق متاخمة للحضر في بادية الشام أو العراق ، كما نظروا إلى اللهجات العربية في الجنوب بعين الشك ، ولم يأخذوا اللغة عنها . لم يحاولوا جمع الظواهر بهدف بحثها بحثاً شاملاً ينسب لكل قبيلة كل ما عندها من ظواهر ، وإنما قصرُوا مهمهم على تسجيل بعض الظواهر التي لفتت نظرهم عند بعض القبائل . ومن هنا نستطيع أن نقول : إن كتب النحو واللغة لم تقدم لنا إلا قطاعاً صغيراً محدوداً من الحياة اللغوية حتى القرن الثاني للهجرة ، وهذا القطاع هو بعض لهجات البدو .

أخذ النحاة واللغويون اللغة عن بعض قبائل شبه جزيرة للعرب ، واستبعدوا عدداً كبيراً من القبائل التي اختلطت في حياتها بغير العرب ، واستبعدوا كذلك اللهجات الناشئة في الأمصار المفتوحة ، كما رفضوا أخذ اللغة عن القبائل الجنوبية . والناظر في كتب النحو واللغة يلاحظ أن أكثر المادة التي جاءت بها هذه الكتب

تنسب إلى لهجات الحجاز وتتم وهذيل وطى . ، وهناك ظواهر كثيرة جاءت دون نسبة إلى قبيلة بعننا . إنخذ جامعو اللغة موقفاً مختلفاً عن موقف الباحث اللغوي الحديث ، فقد نظروا إلى هذه اللهجات وقاسوها بمبار اللغة الفصحى واعتبروا أى اختلاف عنها خروجاً على النمط الصحيح وخروجاً على الضوابط وفساداً لغوياً لا يجوز أن يقبل عن يندرج ضمن المثقفين . ومن ثم فقد أهملوا تلك اللهجات التي أصبح البون بينها وبين الفصحى شاسعاً ولم ينظروا ويهتموا إلا باللهجات التي تقرب في خصائصها من العربية الفصحى وهذه هي لهجات الحجاز وتيم وهذيل وطى . .

وسنحاول دراسة بعض الظواهر التي جاءت في كتاب سيويوه منسوبة إلى هذه اللهجات دراسة لغوية وصفية وسنبداً بالأصوات ، ثم نمضى بعد ذلك إلى بناء الكلمة فبناء الجملة .

الهز بين التحقيق والتخفيف :

أول ما يلفت النظر في لهجة الحجاز من الناحية الصوتية أنها لا تعرف تحقيق الهمز ، أى النطق بالهمزة باعتبارها صامتة . والكتب العربية تتحدث دائماً عن تحقيق الهمز ونفسه إلى لهجة تيم ، وعن تخفيف الهمز أو نطق الهمزة نطقاً بينين ، ونفسه إلى لهجة الحجاز .

قال سيويوه : « إعلم أن كل همزة كانت قبلها فتحة فإنك تجعلها إذا أردت . تخفيفها بين الهمزة والالف الساكنة . . . » وذلك قولك سال في لغة أهل الحجاز إذا لم تحقق كما يحقق بنو تيم ، (١) . وواضح من هذا النص أن تحقيق الهمزة عند بني تيم كان يقابله التخفيف عند أهل الحجاز ، ويعبر سيويوه عن

(١) الكتاب ١٦٣/٢ .

الهمزة المخففة قائلاً بأنها تنطق نطقاً يجعلها بين الهمزة والالف الساكنة ، وإذا سألنا فهم كلامه على نحو صرتي لاحظنا أن الهمزة ، وبمعنى هما الهمزة المخففة ، إنما تنطق نتيجة التقاء تام يحدث إغلاقاً لحظياً في أقصى الخنجرة يتبعه انفراج مفاجئ . فيصدر هذا الصوت الذي نعرفه بالهمزة . وهذا النطق يختلف اختلافاً أساسياً عن نطق الفتحة الطويلة ، وهو ما يطلق عليه سيويوه والالف ، فالفتحة الطويلة إحدى الحركات ، والحركات تختلف عن الأصوات الساكنة في اتساع مخرجها ، وأنه لا يحدث ضيق شديد بسبب عقبة في سبيل تيار الهواء ، فظهور هذه العقبة ثم انفراجها من خصائص النطق بالأصوات الصامتة ، أما الحركات فيمضي في النطق بها تيار الهواء من الداخل إلى الخارج دون عقبة والهمزة من الأصوات الصامتة ، ولكن الحركة الطويلة التي تكتب في الخط العربي بالالف ليست من الأصوات الصامتة . ويبدو أن تخفيف الهمزة كان يعنى عند سيويوه أن الالتقاء التام الذي يحدث إغلاقاً لحظياً في أقصى الخنجرة لم يحدث ، وأن الهواء المندفع إلى الخنجرة كان يعضى من دون أن يعترضه هذا الإغلاق الخنجري .

الإمالة :

من الظواهر التي ذكرها سيويوه ظاهرة « الإمالة » . والإمالة إحدى الظواهر الخاصة بنطق الفتحة الطويلة نطقاً يجعلها بين الفتحة الصريحة والكسرة الصريحة يقول سيويوه في هذا :

« الألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور ، وذلك قولك : جاد ، وعالم ، ومساجد ، ومقاتيع إنما أمالوها للكسر التي بعدها أرادوا أن يقرئوها منها وجمع هذا لا يميله أهل الحجاز » (١) .

ويتضح من هذا النص أن الإمالة ظاهرة من ظواهر المبالغة، وتعني المبالغة أن صوتاً من الأصوات في كلمة أو ما يشبه الكلمة أثر في صوت آخر في نفس الكلمة فجعل نطقه قريباً من نطقه. أي جعل نطقه مماثلاً لنطقه. وفي شرح سيبويه لهذه الظاهرة تعليل بأن إمالة الفتحة الطويلة إنما حدث نتيجة لقربها من الكسرة. فيتحدث سيبويه عن الألف وتحدث نحن عن الفتحة الطويلة، ويعتبر سيبويه الألف غير المبالغة أصلاً والمبالغة فرعاً، وتحدث — نحن — عن اختلاف اللهجات. فالإمالة في الأمثلة التي ذكرها وهي علم، عابد، تمنى نطق الألف الطويلة بصورة ما تجعلها قريبة — نطقاً — من الكسرة التي تلي اللام والباء. وهذا يعني أن الفتحة الطويلة المبالغة إنما تأتي في محيط صوتي بعينه دون غيره. ومن هنا فنحن نتحدث عن صورة صوتية لا عن وحدة صوتية. فالفتحة الطويلة في تلك اللهجات لها صورتان: صورة بلا إمالة، وصورة بالإمالة. وكلاهما وحدة صوتية واحدة. وكانت لهجة الحجاز القديمة لا تعرف الإمالة.

بقي أن نشير إلى المثال الأخير الذي ذكره سيبويه وهو مفاتيح. فالإمالة هنا في تفسير سيبويه أثر للكسرة. وكأنه تصور — في كلمة مفاتيح — الكسرة شيئاً والباء شيئاً آخر. فالواقع أن نظرية النحويين العرب للنخط جعلتهم يتصورون أن ما نطق عليه كسرة طويلة هو كسرة ثم ياء ساكنة. ولهذا لم يلاحظ سيبويه أن الإمالة حدثت كأثر لمد الباء (الكسرة الطويلة) وكفاه أن وجد الكسرة هنا وهناك. والصحيح أن الإمالة حدثت كأثر الكسرة الطويلة. وهذا وقد علل سيبويه ظاهرة الإمالة بالتأخر الخفة، وهذا الرأي هو التفسير السائد في علم اللغة إلى عهد قريب. فكان كل تطور يفسر بعامل السهولة في كثير من اللغات.

ولنحاول المضي قليلاً مع سيبويه وهو يتحدث عن الإمالة. يقول سيبويه: « هذا باب ما يتمتع من الإمالة من الألفات... فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والعين، والقاف، والحاء. إذا كان

حرف منها قبل الألف تليه ، ذاك قولك : قاعد ، غائب ، خامد ، صاعد ، طائف ، وضامن ، وظالم . إنما منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروف مستعلية إلى الحنك الأعلى ، والألف إذا خرجت من موضعها استعلت إلى الحنك الأعلى فلما كانت مع هذه الحروف المستعلية غلبت عليها كما غلبت الكسرة عليها في مساجد . . . ولا نعلم أحد يميل هذه الألف إلا من لا يؤخذ بلفظه ، (١)

وهذا النص واضح في أن الإمالة صورة لنطق الفتحة الطويلة أن نطقها يتأثر بالمحيط الصوتي ، فهي عمالة على مقربة من الكسرة أو الكسرة الطويلة . وهي غير عمالة على مقربة من مجموعة من الأصوات . إذا نظرنا إلى تلك الأصوات التي ذكرها سيبويه مانعة للإمالة لاحظنا فيها وجود كل أصوات الاطباق ، وهي : الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، والقاف ، كما نجد من أصوات الحلق : الغين والحاء . يبدو أن اللهجات التي كانت تميل مع الكسرة والكسرة الطويلة كانت تنطق الفتحة الطويلة بلا إمالة إذا كانت قريبة من أصوات الاطباق أو الحلق . وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن تلك اللهجات عرفت صورتين لنطق الفتحة الطويلة ، كل واحدة منها تظهر في محيط صوتي بعينه . والعبارة الأخيرة في نص سيبويه السابق تشير إلى موقف اللغويين من بعض اللهجات فهو لم يسجل إلا بعض اللهجات ، ورفض الأخذ عن البعض الآخر ، ويبدو أن بعض اللهجات التي رفض سيبويه الأخذ عنها كانت تعرف الإمالة بصورة أكثر ولكن إلى حد ؟ هذا ما لم نستطع أن نعرفه ، فهذه من لغة من لا يؤخذ بلغته ، ولذا لم يجد سيبويه نفسه مطالباً بتسجيلها ودراستها .

الاتباع = التوافق الحركي

عما سجله سيوييه في كتابه ظاهرة أطلاق عليها «الاتباع» ، ويطلق عليها عند اللغويين المحدثين اسم Vowel Harmony أى «التوافق الحركي» . وهذه الظاهرة تدخل أيضاً في باب المماثلة ، وهى هنا مماثلة-حركة لحركة أخرى مماثلة تامة . فنحن نقول في العربية الفصحى : منه ، فوقه ، تحته ، فنجمل الحركة التالية للهاء ضمة ، ولكننا نقول : به ، عليه ، فيه ، فنجمل الحركة التالية للهاء كسرة ، والضمير هو الضمير ، فلماذا حدث هذا الاختلاف ؟ ولنتقرأ الفصل الذى عنوانه سيوييه بقوله : هذا ما تنكسر فيه الهاء التى هى علامة الاضمحار : « اعلم أن أصلها الضم وبعدها الواو ، لأنها فى الكلام كله مكذبة ، إلا أن تدركها هذه الالة التى أذكرها لك . وليس ينعمهم ما أذكره لك أيضاً من أن يخرجوها على الأصل ، فالهاء تنكسر إذا كان قبلها ياء أو كسرة . . فكما أمالوا الألف فى مواضع استخفافاً ، كذلك كسروا هذه الهاء . . فالكسرة هنا كالإمالة فى الألف لكسرة ما قبلها وما بعدها نحو كلاب وعابد ، وذلك قولك : مررت بـيـيـي ولديـيـي مال ومررت بـدـارـيـي ... وأهل الحجاز يقولون مررت بـيـيـي قبل ، ولديـيـي مال ، ويقرأون (فخسفنا بهو وبـدارهـو الأرض) فإذا لحقت الهاء الميم فى علامة الجمع كسرتها كراهية الضمة بعد الكسرة ، ألا ترى أنهما لا يلزمان حرفاً أبداً . فإذا كسرت الميم قلبت الواو ياء كما فعلت ذلك فى الهاء . ومن قال بدارهـو الأرض قال عليهموا مال وبهمو ذلك ، (١) .

وهذا النص هام ، فسيوييه اعتبر أن الأصل فى ضمير الغائب أن تعقبه ضمة طويلة ، وهو يتحدث دائماً عن الراو فى هذا الصدد كما لو كان الضمير مكوناً من هاء تليها واو . وقد حدد سيوييه المواضع التى كسرت فيها هذه الهاء . فالهاء تنكسر

إذا كان قبلها ياء أو كسرة ، فهذه الظاهرة إذن من ظواهر المماثلة ، ولكنها مماثلة حركتها لحركة . عندما نتحدث عن وفية ، فالحركة التي بعد اللام كسرة طويلة أتت بكسرة بعد الهاء . عندما تناقش كلمة عليه فالصوت المزدوج (ay) جمل الضمة كسرة ، وهذا أيضاً ضرب من التوافق الحركي .

ويبدو أن للتوافق الحركي كان يميز بعض اللهجات عن البعض الآخر . فبعض اللهجات التي كان يعرف التوافق الحركي على هذا النحو الذي تعرفه العربية الفصحى . ولكن لهجة الحجاز كانت بعيدة عنه كل البعد كما نرى في نص سيويه عن التوافق الحركي بعدها عن الإمامة . فالحجازيون كانوا لا يقولون (به) بكسر الهاء ، بل قالوا (به) بضمها ، أو كما كتب في كتاب سيويه (هو) وكانوا يقولون لديهم (بوار مسبوقة) بضمه ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل إن قراءاتهم للقرآن الكريم كانت تعكس لهجتهم المحلية التي لا تعرف التوافق الحركي . فبينما كان غيرهم يقرأ (فحسبنا به وبداره الأرض) بكسرة بعد الهاء كان الحجازيون يستخدمون الضم دون أن يشعروا حاجة إلى التوافق الحركي .

ويبدو أن التوافق الحركي كان من خصائص لهجة نهم ، وهو ما عده في الفصحى بينما كانت لهجة الحجاز بعيدة عن التوافق الحركي . ولكن بعض اللهجات مضت في التوافق الحركي شوطاً أبعد مما تعرفه اللغة الفصحى . يقول سيويه : « وأعلم أن قوماً من ربيعة يقولون منهم (بكسر الميم والهاء والميم) الكسرة ولم يكن المسكن حاجزاً عندهم ، وهذه لغة رديئة ، إذا فصلت بين الهاء والكسرة فالزم الأصل ، (١) » .

(١) الكتاب ٢/ ٢٩٤ .

فلهجة ربيعة كانت تستخدم صيغة (مِنْهُمْ) بكسر الهاء والميم ، بينما لا تعرف الفصحى اليوم إلا ضم الهاء وضم الميم ، وهو ما قرره سيبويه أيضاً ، فلهجة ربيعة تمثل طوراً أبعد من الفصحى في التوافق الحركي . فالكسرة بعد الميم في منهم جعلت حركتي الضمير كسرتين رغم البعد . وهنا يظهر سيبويه الذي يريد أن يشرح للحياة اللغوية فيقول : وهذه لغة رديئة ،

لاحظ سيبويه أيضاً وجود التوافق الحركي في بعض أبنية الاسماء ، يقول سيبويه : « وفي فَعَلْ لغتان فَعَمِلَ وَفَعِيل . إذا كان الثاني من الحروف الستة (حروف الحاق) مطرد ذلك فيهما لا ينكسر في فعيل ولا فعل . وإذا كان كذلك في فعيل أو فعل كسرت الفاء في لغة تميم وذلك قولك لثيم (بكسر اللام) وشهيد وسعيد ورغيف وبخيل ، وشهد (بكسر الشين والهاء) ولعب وضحك ... أما أهل الحجاز فيجرون جميع هذا على القياس » (١) .

وهذا النص على صعوبته في الصياغة واضح المضمون ، فالكتب العربية تقدم لنا فعيل (بفتح الفاء) وفعيل (بكسر الفاء) لعدد كبير من المفردات . والصيغة الأخيرة تمثل صورة من صور التوافق الحركي ، فالكسرة الطويلة بعد العين جلبت كسرة سابقة على العين عند من يعرفون التوافق الحركي ، ومن ثم فهم يقولون فعيل ، وهذا خاص بلهجة تميم . أما لهجة الحجاز التي لا تعرف الامالة أو التوافق الحركي فتقدم لنا صيغة فعيل بفتح الفاء .

وشبه بهذا وزن فعل عند الحجازيين مثل شهد لعب ضحك ، يقابل هذا الوزن في لهجة تميم كسر الفاء وكسر العين . وهنا تتفق اللغة الفصحى كما نعرفها اليوم مع لهجة الحجاز ، ومن الجدير بالبحث أن ننظر إلى المعجم العربي المتوارث في ضوء هذه الاختلافات .

كسر أحرف المضارعة

كانت كل اللهجات التي اعترف سيوييه بصحة أخذ اللغة عنها تنكسر حروف المضارعة على عكس ما نعرفه في العربية الفصحى اليوم . وكان أهل الحجاز هم من لم يعرفوا كسر حروف المضارعة . قال سيوييه :

« هذا باب ما تنكسر فيه أوائل الأفعال المضارعة للاسماء كما كسرت ثاني الحروف حين قلت فعل وذلك في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز وذلك . فوهم أنت تعلم ذلك (بكسر التاء) وأنا أعلم (بكسر الهمزة) وهي تعلم (بكسر التاء) ونحن نعلم (بكسر النون) ... وكذلك كل شيء من بنات الواو والياء التي الياء والواو فيهن لام أو عين والمضاعف ، وذلك قوالك : شقيت فأنت تشقى (بكسر التاء) وخشيت فأنا إخشى (بكسر الهمزة) وغلنا فنحن نخال (بكسر النون) .. وجميع ذلك مفتوح في لغة أهل الحجاز وهو الأصل ،^(١) .

وواضح من الأمثلة التي ذكرها سيوييه أن كسر حرف المضارعة كان مطرداً في الفعل الثلاثي في كل اللهجات إلا لهجة الحجاز ، وأن الفعل الناقص أو الأجوف ذا الواو أو الياء كان يعرف كسر حرف المضارعة أيضاً . ولهجة الحجاز أقرب في هذا الجانب إلى العربية الفصحى .

مطابقة الفعل والفاعل

من أهم الظواهر اللهجية التي سجلها سيوييه وألقت الضوء على بناء الجملة ظاهرة تطابق الفعل الماضي المقدم مع فاعله في التثنية والجمع .

من المعروف في كتب النحو العربي أن الفعل الذي تلاه فاعله يأتي بصيغة واحدة قبل الفاعل المفرد والمتن والجمع . وهذه الصيغة هي صيغة المفرد الغائب ، مثل :

(١) الكتاب ٢/ ٢٥٦ .

قال رجل ، قال رجلان ، قال الرجال ، قال نسوة . أما المطابقة الكاملة في العدد والجنسين بين الفاعل والفعل فتتسبب في كتب النحو العربي إلى بعض اللهجات ، ذكر البعض أن المطابقة الكاملة من خصائص لهجة طى . وأطلقوا على هذه الخاصية اسم « لغة أكلوف البراغيث » . قال سيبويه : « أعلم أن من العرب من يقول : ضربوني قوماك ، ضرباني أخواك . فشبهوا هذا بالناء التي يظهرونها في قالت فلانة » (١) ، فهذه الظاهرة إذا مثلنا نجد في بعض اللهجات العربية الحديثة . ولم تكن هذه الظاهرة مقصورة على الحدث اليومي عند طى . فالواقع أن هذه الظاهرة وجدت في بعض اللهجات القديمة ، وفي أبيات من الشعر الجاهلي والإسلامي . وهي مطردة في اللهجات العربية الحديثة .

ما الحجازية

اختلفت اللهجات القديمة في الحالة الاعرابية للاسم الثاني بعد « ما » ، فلهجة الحجاز تجعل الاسم الثاني بعد « ما » وهو خبرها منصوباً ، أما لهجة تميم فتستخدم هذا الاسم مرفوعاً . قال سيبويه : « هذا باب ما أجرى مجرى ليس في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ، ثم يصير إلى أصله . وذلك الحرف هو ما ، نقول : ما عبدالله أخاك ، ما زيد منطلقاً . وأما بنو تميم فيجرونها مجرى أما وهل ، وهو القياس لأنه يفعل كليس ، ولا يكون فيه اضمار . وأما أهل الحجاز فيشبهونها بليس ، إذا كان معناها كمنهاها . . . ومثل ذلك قوله عز وجل (ما هذا بشراً) في لغة أهل الحجاز ، وبنو تميم يرفعونها إلا من عرف كيف هي في المصحف » (٢) .

وبجانب الآية التي ذكرها سيبويه نجد هذه الظاهرة في آية أخرى هي

(١) الكتاب ١/ ٢٣٧ .

(٢) الكتاب ١/ ٢٨ .

(ما من أمهاتهم) قرأها الحجازيون بكسر التاء وذلك باعتبار خبرها منصوباً .
أما النميميون فكانوا يرفعون عملاً برفع الخير بعد ما .

وهكذا نلاحظ أن لهجة الحجاز تنفق مع العربية الفصحى التي نعرفها مطردة
في الشعر الجاهلي والقرآن في ظواهر ، وتختلف معها في ظواهر أخرى . كما أن
لهجة نهم لا تمثل العربية الفصحى في كل مظاهرها .

٣ - قضية الاستخدام اللغوي للفصحى واللهجات

ثبتت كتب اللغة والنحو وجود اختلافات في اللهجات التي سادت شمال
الجزيرة العربية ووسطها في فجر الإسلام والقرنين الأول والثاني للهجرة . وتختلف
العربية الفصحى كما نعرفها في الشعر الجاهلي اختلافات بعضها عن كل لهجة من اللهجات
العربية القديمة ، حتى أنه من الصعب اعتبار العربية الفصحى امتداداً مباشراً لإحدى
هذه اللهجات فالثابت أنها كانت لغة الشعر . وقد أثار بعض الباحثين منذ أواخر
القرن التاسع عشر قضية لغة الحديث اليومي في جزيرة العرب في هذه الفترة ،
تساؤل البعض هل كانت اللغة الفصحى لغة الشعر فقط أم أنها كانت أيضاً لغة
التعامل في الأمور غير اليومية ولغة التعامل بين القبائل وارتبط بهذا التساؤل تساؤل
آخر حول اللغة التي كان الرسول يستخدمها في قراءته للقرآن ، هل كان يقرأ القرآن
بلهجة الحجاز ، أم وفق الخصائص الصوتية للغة الفصحى أي لغة الشعر الجاهلي .

كان المتعارف عليه عند اللغويين العرب قديماً واللغويين المحدثين حتى أواخر
القرن التاسع عشر أن لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم تمثلان العربية الفصحى^(١) ،

(١) ووصف تولد هذه اللغة الفصحى كما جاءت إلينا في الشعر الجاهلي والقرآن
بأنها هي العربية الكلاسيكية أي العربية الفصحى ، ولذا أطلق تولد هذه على أحد كتبه اسم:

Th. Noldeke, Zur Grammatik des klassischen Arabisch 1896.

والمقصود بهذا أن هذه اللغة لم تكن مجرد لغة أدبية ، بل كانت أيضا لغة التعامل الراقى ولغة التعامل بين أبناء القبائل المختلفة : وقد أثار فولرز وهو متخصص ألماني في اللغة العربية كثيراً من الشكوك حول كون هذه اللغة قد استخدمت في الحديث اليومي وفي التعامل الشفوي في الفترة التي ألف فيها الشعر الجاهلي . ولذا رفض فولرز تسمية هذه اللغة باسم : « العربية الفصحى » ، واقترح تسميتها باسم اللغة « المكتوبة الأقدم » ،^(١) وبهذا عد فولرز للمعايير المتعارف عليها حول العربية الفصحى والتي يجهلها الأمثلة الواردة في كتب النحو شيئاً مصنوعاً أقامه النحاة ودعوا إليه . ومعنى هذا في رأى فولرز أن لغة الحديث اليومي في عصر تأليف الشعر الجاهلي وفي صدر الإسلام كانت تخلو من عدد كبير من المعاني التي تنسب للعربية الفصحى ، ومنها مثلاً الأعراب . فيرى فولرز أن اللغويين العرب صنعوا ظاهرة الأعراب ، ولم يكن لها وجود حقيقي من قبل . أما القرآن الكريم فرأى فولرز اعتماداً على المصاحف المخالفة للمصحف المتداول ، واعتماداً على بعض القراءات — أنه كان يقرأ في صدر الإسلام على نحو محلي ، أي وفق العادات الصوتية لأهل الحجاز في مكة والمدينة ، أما قراءته وفق معايير اللغة الفصحى فقد كان عملاً متأخراً ، هذه خلاصة رأى فولرز .

ويقوم هذا الرأى على بعض المعلومات التي جاءت بها كتب اللغة والنحو وكتب الطبقات ، مع تجاهل البعض الآخر . فاللغويون العرب في القرن الثاني الهجري لم يعتمدوا على الشعر والقرآن فقط ، بل اعتمدوا أيضاً على لغة الأعراب الفصحاء . وكان الأعراب من أهم السمات التي لاحظها اللغويون العرب عند روايتهم ، واعترفوا

(١) أطلق فولرز على لغة الشعر الجاهلي : *älteste Schriftsprache* .

وانظر تفاصيل رأى فولرز في :

K. Volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien.
Strassburg 1906.

بصححة لغة مجموعة من القبائل ، فمدوا أبناءها حجة في قضايا اللغة ، ولو كانت لغة الحديث اليومى عند هذه القبائل تخلو من الاعراب لما أمكن الاعتماد عليها. وليس من الممكن أن ينتظم استخدام النهايات الاعرابية في الشعر والقرآن الكريم على هذا النحو المطرد لو أن هذه اللغة كانت مصنوعة . فالاعراب مطرد في الشعر الجاهلى وفى قراءة القرآن الكريم على نحو يجعلنا نقنع بأنه ليس من حمل النحاة ، بل هو انعكاس للواقع اللغوى الحى . وأغلب الظن أن اللغة الفصحى كانت مستخدمة فى الأغراض الفنية وفى التعامل الرفيع بين أصحاب المسكاة فى القبائل وفى التعامل بين أبناء القبائل المختلفة . فإذا كانت لغة الشعر الجاهلى لا تختلف باختلاف القبائل بل يقتصر الاختلاف على الاستخدام اللغوى من شاعر لآخر فى إطار المستوى اللغوى الواحد فإن الطبيعى أن يكون ترتيل القرآن بهذه اللغة الفصحى التى يحترمها ويتعامل بها أبناء القبائل المختلفة فى الأمور الجادة . وإذا كان القرآن ينص على أنه (بلسان عربى مبين) فمن غير المتوقع أن يكون بعد هذا ذا لون محلى . والأقرب إلى طبيعة الأمور أن تكون قراءة القرأى وأن يكون الاستخدام اللغوى فى القرآن مطابقا بصفة عامة للمعارف عليه فى اللغة الفصحى آنذاك .

لقد عرفت اللهجات القديمة بمجموعة من الظواهر المغرقة فى المحلية مثل الكشكشة والكسكسة والمجمجة . . الخ . والمقصود بالكشكشة إبدال الشين من كاف الخطاب المؤنثة فبدلا من (عليك) يكون نطق هذه الكلمة فى اللهجات التى تعرف الكشكشة (عليش) ، وبالمثل (منش) و (بش) . وهناك أشكال للكشكشة وانزال مسموعة فى اللهجات البدوية الحالية . وقريب من الكشكشة ظاهرة الكسكسة وهى استخدام السين مع ضمير المؤنث بدلا للكاف أو ملحقة بالكاف ، فبدلا من : (رأيتك) تكون الصيغة عند بعض القبائل (رأيتكس) ، وبدلا من (أخوك) تنطق بعض القبائل (أخوس) . أما المجمجة فهى ثمرة اختلاط نطق الجيم مع نطق الياء فبدلا من (تميمى) كانت بعض القبائل تقول

(تميمج) (١). فهذه الظواهر الصوتية المحلية كانت مما أثار انتباه اللغويين العرب . ولكن الشواهد التي جاءوا بها ليبيان هذه الخصائص شواهد شعرية محدودة العدد تتكرر في كل السكتب ، وكأنها انعكاس خافت للمجرات المحلية . وبعض الظواهر المحدودة الأثر في الشعر الجاهلي فإن لغته لا تختلف باختلاف القبائل ، ويبدو أن اللغة الفصحى وفق ما تعارف عليه القوم آنذاك كان ينبغي لها أن تخلو من مثل هذه الظواهر المحلية . ولذا كان من الطبيعي أن يحاول المسلمون في صدر الإسلام تجنب استخدام هذه السمات المغرقة في المحلية في قراءتهم للقرآن الكريم ، وأن يكون المثل اللغوي المنشود في لغة القرآن الكريم بعيداً عن المحلية في الخصائص اللغوية مثل ما هو بعيد عن المحلية في المدحون الفسري . ولذا فليس من الممكن تصور أن لغة القرآن الكريم تمكس لهجة الحجاز أو أية لهجة أخرى ، بل الأقرب إلى واقع الأمر أن يكون بتلك اللغة الفصيحة المحترمة من الجميع .

لقد شك فولرز في كون اللغة المنظورة في بحر الإسلام ذات نظام إعرابي واضح المعالم ، وظنها تخلو من النهايات الاعرابية . وقد رد تولدك على فولرز بمجموعة من الأدلة اللغوية مثبتة عدم صحة ما قال به فولرز (٢) . فعلامات الإعراب رفعا ونصباً وحرّاً مطردة في اللغة الأكاديمية على نحو اطرادها في لغة الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ولغة القبائل التي أخذت عنها شواهد كتب النحو . والصحيح أن العربية ورثتها كما ورثتها الأكاديمية عن اللغة السامية الأولى . وقد بقيت من علامات

(١) انظر :

و الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس ص ٥٢ - ٥٤ .

وكذلك : السيوطي : المزهري ١/ ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) انظر : رد تولدك على فولرز في المقال التالي :

Das klassische Arabisch und die arabischen Dialekte, in :
Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, 1910.

الإعراب في اللغة الحبشية علامة النصب ، وهي تطابق تمام المطابقة علامة النصب في العربية . فاجاء عند النحاة العرب يعد تسجيلا لواقع ينسره ما جاء في النقوش الأكادية والنصوص الحبشية . وإذا كان ثمة شك في الحركات النهائية للفعل الماضي فهو ينتهي مثلا بالفتحة في (كتب) بينما ينتهي دون هذه الفتحة في الهمجات العربية ، فإن العربية الفصحى كانت تعرف نهاية هذه الصيغة بالفتحة كما تعرفها اللغة الأمهرية إلى اليوم . لقد أثبت نولدكه أن الشك في النهايات الاعرابية للاسماء أو الحركات النهائية للأفعال لا يقوم على دليل ، وأثبت بمقارنة العربية بالأكادية بالحبشية من هذا الجانب أن هذه النهايات لا يمكن أن تكون من صنع النحاة ، بل كان جهدهم النحاة تسجيلا لها كما وجدوها في الشعر الجاهلي والإسلامي وفي القرآن الكريم وعند القبائل المعترف بفصاحتها .

الفصل الثالث عشر

العربية في المشرق الآسيوي

اتسعت رقعة اللغة العربية بعد تكوين الدولة الإسلامية اتساعاً كبيراً ، فمع الفتوح الإسلامية بدأت الهجرات العربية في المناطق المفتوحة ، ومع ازدياد الهجرات بدأ استخدام اللغة العربية في هذه المناطق . ومهد هذا لانتشار العربية في هذه الأقاليم مما أدى إلى تغير الحدود الجغرافية للمنطقة اللغوية العربية تغيراً حاسماً . ولذا تعد دراسة موجات انتشار العرب في المناطق المفتوحة أساساً ضرورياً لفهم موجات انتشار اللغة العربية .

١ - موجات التعريب في المشرق :

خرجت بطون كثيرة من القبائل العربية في السنوات التالية للفتح الإسلامي إلى مناطق مختلفة من الشام والعراق وإيران . لقد كانت جماعات عربية تعيش في بادية الشام وبادية العراق قبل الفتح الإسلامي ، ولكن دخول هذه المناطق وغيرها في إطار الدولة الإسلامية جعل هذه القبائل وغيرها تتوغل وتستقر في مناطق لم تكن مجالاً لها من قبل . لقد هاجرت هذه القبائل واستقرت في الأمصار المفتوحة داخل معسكرات . ثم أدى اختلاط هؤلاء العرب الوافدين مع السكان الأصليين في هذه المناطق إلى تعريب العراق والشام شيئاً فشيئاً . كانت اللهجات الآرامية المختلفة تسود الحياة اللغوية في هذه المناطق ، وهي لهجات قريبة من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية من اللغة العربية ، فالآرامية لغة سامية مثل العربية ، ولذا لم يكن التحول من الآرامية إلى العربية أمراً صعباً . وليس معنى هذا أن التحول

المغوى تم دون صعوبات ، بل لانزال هذه الصعوبات النفسية واضحة في التأثيرات الآرامية في اللهجات العربية في هذه المناطق . لقد سهل عليهم أن يتحولوا من الآرامية إلى العربية ، ولكن عربيتهم تأثرت بالآرامية فاختلقت عن عربية البسندو في الجزيرة العربية .

ولكن درجة التعريب في الشام والعراق اختلفت من منطقة لأخرى ومن جماعة بشرية لأخرى . فالمناطق السهلة تعربت على نحو أسرع من تعريب المناطق الجبلية ، وما تزال المناطق الجبلية في شمال العراق وفي بعض أنحاء منطقة الشام تضم جماعات لغوية احتفظت بلغتها القديمة منذ الفترة السابقة على الفتح الإسلامي ، فالأقليات الآرامية تعيش في مناطق جبلية وعرة ، وكان صعوبة الاتصال بهذه المناطق قد حالت دون تعريبها . فلم تصل الهجرات العربية إلى هذه المناطق الوعرة ، وبذلك ظلت بعيدة عن تأثيرات التعريب وقتاً طويلاً ، ولا يزال بعضها محتفظاً بلغته القديمة إلى اليوم .

ولم تقصر الهجرات في المشرق على الشام والعراق ، بل امتدت أيضاً إلى أنحاء الدولة الفارسية التي دخلت إطار الدولة الإسلامية المنتصرة . فإذا كانت المصادر تشير إلى وجود جماعات عربية على الساحل الإيراني للخليج منذ العصر الجاهلي فإن عدد هذه الجماعات العربية زاد في صدر الإسلام باطراد الهجرات زيادة ملحوظة . فقد هاجرت قبائل من عبد القيس كانت تقيم في منطقة ساحل عمان إلى إيران عن طريق الخليج ، استقرت بعض هذه القبائل على الساحل وتوغل بعضها في الداخل ، وظلوا مقيمين لغرباً عدة قرون حتى العصر المغولي (١) . ودخلت موجات عربية

(١) حول العرب وهجراتهم إلى إيران ، أنظر :

A. Christensen, L'Iran sous les sassanides, pp. 82-126.

Spuler, Die Mongolen in Iran, Leipzig 1965, 142-49.

وكذلك المصادر المذكورة في مادة « Arab » في الطبعة الانجليزية الثانية من :

Encyclopaedia of Islam.

أخرى إلى إيران عن طريق العراق . وقد تكونت جاليات عربية كبيرة في القرن الثاني الهجري في مناطق مختلفة من إيران ، فقد كانت هناك جماعات عربية كثيرة العدد في كاشان ومزدان وأصفهان ، بل وكان العنصر العربي سائداً في منطقة «فشم» واسكن أكبر تجمع عربي دخل إلى هذه المناطق استقر في منطقة خراسان ، ففي منتصف القرن الأول الهجري هاجر عدة آلاف من البصرة إلى خراسان وعدة آلاف من السكوفة إلى خراسان أيضاً ، وتناهت الهجرات ، وزادت نسبة العرب في خراسان ، وما تسكاد نصل إلى أوائل القرن الثاني الهجري حتى نجد عدد العرب في خراسان يقدر بما تفي ألف (١) . لم يمش العرب في خراسان في المدن لحسب ، بل عاش بعضهم في الريف الإيراني أيضاً . واختلطوا بصورة متزايدة مع السكان الأصليين .

لقد كان العرب المهاجرين إلى هذه المناطق منتمين إلى قبائل مختلفة ، فقيمهم عرب من بكر ومن تميم ومن عبد القيس ومن الأزد (٢) ، ولكن استقرار هؤلاء العرب في الريف الإيراني واختلاطهم المتزايد مع أبناء اللغات والأهجات الإيرانية خلق في هذه المناطق ظاهرتين متوازيتين عدة قرون ، فقد تعلم كثير من الإيرانيين اللغة العربية كما تعلم كثير من العرب لغة هؤلاء الإيرانيين . وقد كان أكثر العرب في جيش أبي مسلم الخراساني يتحدثون الفارسية . وزادت درجة انتشار الفارسية بين هؤلاء العرب بزيادة ارتباطهم بالمناطق التي عاشوا فيها وانفصالهم عن الارتباط القبلي بجزيرة العرب . لقد كانت هناك قبائل عربية في القرن الرابع الهجري في إيران ،

(١) انظر تاريخ الطبري ١٩٢٩/٢ . وفي عهد قتيبة بن مسلم كان العرب في خراسان على نحو ما وصف البلاذري : « في خراسان يومئذ من مقاتلة أهل البصرة أربعون ألفاً ومن أهل السكوفة سبعة آلاف ومن الموالي سبعة آلاف ، فتوح البلدان ٥٩٦ .

(٢) فتوح البلدان ٥٨٤ ، ٤٠٥ .

ولكن هذه القبائل ذابت شيئا فشيئا ، وأصبح أبناؤهما من أبناء اللغة الفارسية ، وما أن أصبحت اللغة الفارسية اللغة الرسمية في البلاد حتى قل تمسك هؤلاء العرب باللغة العربية ، وبذلك لم يؤد تيار الهجرة العربية إلى إيران إلى النتيجة التي أحدثها تيار الهجرة العربية إلى الشام والعراق .

٢ - العربية في العصر الأموي :

وكان العرب يمثلون في ذل الحـكم الأموي طبقة أرستقراطية مترفة ، وهذه الطبقة تعتمد على أمرين يربطان أفرادها ، أولهما : الأصل البدوي ، والثاني : القدرة على التحدث بالعربية كأحد أبناء البادية . وفي ظل هذا المجتمع كانت الطبقات الدنيا والوسطى ما تزال مرتبطة إن قليلا أو كثيرا باللغات التي سادت المنطقة قبل الفتح الاسلامي ، كانت القبطية لغة الطبقات الدنيا في المجتمع المصري وكانت اللهجات الآرامية تسود لدى معظم سكان الشام وبعض مناطق العراق ، وكان المغرب العربي يستخدم عددا من اللهجات البربرية . وفي شرق الدولة الاسلامية أي في أقاليم إيران والمناطق التي بعدها كانت لغات الحديث بمجموعة من اللهجات الإيرانية . وفوق هذا وذاك فقد كانت العربية الجنوبية وهي لغة تختلف عن العربية الشمالية ما تزال سائدة في مناطق شاسعة في جنوب جزيرة العرب ، ولذا فقد كان الحدث بالعربية دليلا على التفوق الاجتماعي ، بينما كان استخدام اللغات أو اللهجات الأخرى دليلا على الضعة الاجتماعية (١) .

في ظل هذه الظروف كان من الطبيعي أن يحرص سادة المجتمع على تنشئة أبنائهم في بيئة عربية بدوية حتى يستقيم لهم الانتظام في الطبقة الحاكمة وحتى يتضح تميزهم

(١) حكى البلاذري : « لما قدم (الوالي) أمركاتبه بقراءة ، وكان لحانا ، فقال سعيد (= الوالي) : أيها الناس : إن الأمير يرى عما تسمعون من هذا اللحن ، فتوح البلدان ٦٠١ .

عن الطبقات الدنيا . والكتب العربية حافلة روايات تروى لنا أن سادة المجتمع وأمرأ البيت الأموي كانوا ينظرون نظرة فزع إلى أى خطأ لغوى يقع فيه أبنائهم ، وكانوا يحرصون كل الحرص على أن يستخدم أبنائهم اللغة العربية وينطقون بها ، على النحو الذى يعرفه البدو الذين لم تفسد لغتهم بالاختلاط بالأعاجم (١) .

وأهم ما يلاحظ فى تاريخ اللغة العربية ابتداء من الثلث الأخير من القرن الأول الهجرى أنها أصبحت ذات مكانة مرموقة وطيدة فى الدولة الإسلامية ، وذلك لعدة أسباب أهمها أن :

١ - العربية أصبحت اللغة الرسمية للدولة الإسلامية ، فقد عرّبت الدواوين حوالى سنة ٨٨٧/٧٠٥ م .

٢ - العربية كانت لغة الطبقات الحاكمة فى المجتمع ، وكان إستخدام الفصحى دليلاً على الرقى وعلى المسكينة الاجتماعية .

٣ - العربية المولدة أى التى بها أخطاء كانت لغة الطبقات الدنيا فى المجتمع .

٤ - العربية الفصحى ظلت لغة الشعر الذى تعزبه الطبقات العليا من المجتمع .

٥ - العربية هى لغة الدين ولغة القرآن الكريم ولغة العبادات (٢) .

كان تعلم العربية أساس العمل فى الدواوين ، وأقبل كثير من غير العرب على هذه الأعمال بعد تعلمهم العربية وإجادتهم للكتابة بها ، مما دفع أقرانهم إلى محاكاةهم ، وكان ينظر طوال العصر الأموى إلى إجادة النطق بالعربية على أنها صفة من صفات الأرستقراطية العربية . ولذا كان سادة البيت الأموى يرسلون أبنائهم إلى البادية

(١) انظر المواضع المذكورة فى كتاب « العربية » ليوهان فك ٢٦-٢٧ .

(٢) انظر الدراسة التى خصصها يوهان فك Fock I لهذا الموضوع فى كتابه :

« العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب » ص ٥ وما بعدها .

لينشأوا في جو عربي بدوي وحتى يدرجوا على استخدام العربية على النحو الذي كان معروفا عند البدو . وكان سادة البيت الاموي يفرعون أشد الفرع عند ملاحظاتهم لبعض الاخطاء اللغوية عند الفاتمة من أبنائهم فقد كانوا يعتزون بالعربية في صورتها البدوية اعزازهم بأصلهم البدوي .

وأقبل كثير من الاعاجم على العربية لا لمجرد التميز بها تعبيراً بقى بمطالب الحياة اليومية بل كي يرتفع في المجتمع ، فزياد الاعجم — وهو كما يبدو من اسمه من أصل غير عربي — تعلم العربية لينطلق إلى التأليف في الشعر . وكان ينظم الشعر رغم أن نطقه مشوب بالسكنة الأجنبية ، حتى أن أحد الولاة أهداه غلاماً سالم النطق ليقوم بالقاء شعره^(١) . وقد كان شعره القديم على النمط القديم حتى أن سيبويه لم يجد غضاضة في الاستشهاد بأبيات من شعره ، ويبدو أن ابن قتيبة حين ذكر أن زياد الاعجم كثير اللحن ، كان يمتنى عدم قدرته على التعامل الشفوي بلغة عربية سليمة .

حاولت الطبقات غير العربية في المجتمع الاسلامي تعلم اللغة العربية ، فالعربية لغة القرآن الكريم ولغة الصلاة ، وقد أدى دخول أكثر سكان المناطق المفتوحة في الاسلام إلى ظهور الرغبة لدى هؤلاء في دراسة القرآن الكريم لفهم أحكام الاسلام وللعمل في ضوئها ، ولذا كان الاشتغال بنص القرآن الكريم ومحاولة فهمه وتقريبه أول مظهر للبحث العلمي في المجتمع الاسلامي .

وقد حدث الانتقال إلى العربية شيئاً فشيئاً ، فالتحول اللغوي سواء في لغة الكتابة أم لغة الحديث لا يحدث في جيل واحد بل يمتد إلى أكثر من جيل . وتعتمد سرعة الانتقال أو التحول من لغة إلى أخرى على مجموعة من العوامل منها مدى القرابة بين اللغة القديمة واللغة الوافدة . ومن المعروف أن الانتقال من لغة

(١) الاغانى ١٤/١٠٢-١٠٣ .

سامية إلى لغة سامية أخرى سهل ميسور ، ولذا فقد تعربت منطقة الشام والعراق في مرحلة مبكرة نسبيا ، فقد كانت اللهجات الآرامية السكانية عددا والمتقاربة في بنيتها تسود هذه المنطقة . وهذه اللهجات قريبة من العربية في أكثر من جانب ، وكان من السهل على المتحدث بالآرامية أن يتعلم العربية بينما لم يكن الانتقال من القبطية أو البربرية إلى العربية سهلا قريب المآل . ولنا تم تعريب مصر في فترة أطول من الفترة التي عربت فيها سوريا والعراق والجنوب العربي . ويبدو أن تشير إلى أن المناطق الجبلية تستعصى على التحول اللغوي والديني ، ولذا فالمناطق غير السهلة في العراق لا تزال تحتفظ بلغات قديمة سبقت العربية في المناطق هذه . وأكثر سكان هذه القرى غير العربية لم يدخلوا الدين الاسلامي . ويلاحظ أن القرى الآرامية في سوريا مثل المملولة ، وفي العراق مثل القوش تقع في مناطق جبلية وعرة . ويبدو أن تعريب المناطق الجبلية أو النائية في سوريا والعراق امتد وقتا أطول من زمن تعريب المدن ومناطق السهل .

٣ - الجاحظ وملاحظاته اللغوية :

يحل الجاحظ إعجابه وإعجاب عصره بتحديث الأعراب ، يقول : ، ليس في الأرض كلام هو أمتع ، ولا آثق ، ولا ألد في الأسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفنق للسان ، ولا أجود تقويا للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء ، والعلماء البلغاء (١) . وهذا الكلام يعان موقفا عاما في القرن الثاني للهجرة .

وقد لاحظ الجاحظ اختلاف لهجات الأمصار الجديدة ، وعلل هذا تعليلا علميا سليما ، فقال بأن الاختلاف يرجع إلى لهجات القبائل الوافدة التي احتك بها واتصل بها السكان الأصليون في تلك المناطق . يقول الجاحظ : ، وأهل الأمصار إنما

(١) البيان والنبين ١/١٤٥ .

يتكلمون على لغة التنازلة فيهم من العرب ، ولذلك نجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر ،^(١) . فسكان البصرة يستخدمون كلمة (قدر) والجمع (قدور) ، لأن العرب الذين نزلوا البصرة كانوا يستخدمون الكلمتين ، بينما يستعمل أهل مكة كلمة (برمة) والجمع (برام)^(٢) . وسمى أهل مكة البيت إذا كان فوق البيت (علوية) ، وجمعها (علالي) ، بينما أطلق عليهم أهل البصرة (الفرقة) ، والجمع : (الغرفات والغرف) . ويستخدم أهل مكة كلمة (الكافور) بينما يتحدث أهل البصرة عن الطلع^(٣) .

وفوق هذا وذاك فإن الجاحظ لاحظ انتشار الألفاظ الفارسية في المدينة والبصرة والكوفة : يقول : ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم أناس من الفرس ، في قديم من الدهر علقوا بالألفاظ من ألفاظهم ، لذلك يسمون البطيخ (الخربز) ويسمون السميط (الرزديق) ويسمون المصصوص (المزوز) ويسمون الشطرنج (الاشترنج)^(٤) ... كما يسجل الجاحظ أيضا أن : أهل البصرة إذا التفت أربع طرق يسمونها مربعة ، ويسمونها أهل الكوفة الجهارسوك والجهارسوك بالفارسية ، ويسمون السوق أو السويقة وازار ، والوازار بالفارسية ، ويسمون القفاء خيارا ، والخيار فارسية^(٥) .

سجل الجاحظ بعض العبارات التي استخدمت في لغة الحديث اليومي بين الجيش العربي الفاتح وبين المتعاونين معه من الأمصار المفتوحة ، وهذه العبارات على قلتها

(١) البيان ١٨/١

(٢) البيان ١٩/١

(٣) البيان ١٩/١

(٤) البيان ١٩/١

(٥) البيان ٢٠/١

تعكس صورة من الحياة اللغوية في ذلك العصر ، ورغم أنها ممسوخة إلا أنها طريقة
يمكن الجاحظ أن الجاحظ قال لاحد تبحر الدواب الخرسانيين الذين كانوا يبيعون
الدواب للجيش الإسلامي :

الجاحظ : أتبيع الدواب المصيبة إلى جند السلطان ؟

التاجر : شريكنا في هواها ، وشريكنا في مداينها ، وكما تبجي تكون .

الجاحظ : ما تقول وبلك .

فقال بعض من كان قد اعتاد سماع الخطأ حتى صار يفهم مثل ذلك :

يقول : شركاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على
وجوهها (١) .

يلاحظ في هذا النص أن الجاحظ لم يفهم ما قاله التاجر الخراساني ، وهذا أمر
لا نستبعده ، فمن درج على استخدام اللغة متحدثة وسامعا وفق نسق معين لا يفهم
نفس اللغة إذا استخدمت بطريقة مختلفة عما درج عليه . اللهم إلا إذا كان لديه
مران على فهم هذه اللغة المهجيين . وإذا نظرنا في الجملة التي قالها التاجر
نلاحظ أنه استخدم كلمة (شريكنا) بدلا من (شركاؤنا) ، وبذلك لم يعرف
المتحدث صيغة الجمع الصحيحة (شركاء) ، وهي صيغة جمع تكسير . وجمع
التكسير ذو صيغ متعددة في العربية ، ولذا كان صعبا عليه . ولكنه لم يجمع
هذه الكلمة على نحو عربي ، بل أضاف علامة الجمع في الفارسية (ان) ، وبذلك
نشأت هذه الصيغة المهجين ، كلمة عربية ونهاية جمع فارسية . نلاحظ أيضا في
الجملة التي قالها التاجر استخدام النسبة إلى الأهواز بأن قال (هواها) على نحو
لم تعرفه العربية ، والجملة مختصرة اختصارا شديدا لا تكاد تغطي على النسق الذي
عرفته لغة الشعر الجاهلي والقرآن الكريم .

(١) البيان ١٦١/١ - ١٦٢ .

سجل الجاحظ أيضا عبارة مشابهة ، يقول الجاحظ : « وفلت الخادم لي : في أي صناعة أسلوا هذا الغلام ؟ قال أصحاب سند نعال ، يريد : أصحاب النعال السندية » (١) . نلاحظ هنا التعبير المركب (سند نعال) بدلا من التعبير العربي النعال السندية أو نعال السند ، والعربية لا تعرف هذه التعبيرات المركبة ، وإنما تعبر عن هذا المعنى بالموصوف والصفة أو المضاف والمضاف إليه . ولكن بعض اللغات الهندية الأوروبية ، والفارسية لغة منها تعرف التعبيرات المركبة . وواضح أن مستخدم التعبير (سند نعال) متأثر بالأساس اللغوي الفارسي .

وبلاحظ الجاحظ أن هذه الميزة الغريبة عن الذوق العربي لم تكن سهلة الفهم على من لم يعتد سماع مثل هذا . ويضئ الجاحظ فيقول : « ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبت إلى أبو زيد ، ورأيت أبي عمرو ، ومتى وجد النعمانيون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ولم يسمعوا منه ، لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان » (٢) .

ومن الطريف أن نجد عند الجاحظ ملاحظات قيمة عن أثر الأساس اللغوي في تطور متعلمي العربية من الشعوب المفتوحة . يقول الجاحظ : « وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، وقد يكون لفظه متخيرا فائرا ، ومعناه شريفا كريما ، ويعلم مع ذلك السامع من الكلام ومخارج حروفه أنه نبطي وكذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فإنه يعرف من إعرابه وتخيير ألفاظه في مخرج كلامه أنه خراساني ، وكذلك إن كان من كتاب الأهواز . ومع هذا فإننا نجد الحاكية من الناس من يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئا ، وكذلك تكون حكايته للخراساني ، والأهوازي ، والزنجي ، والسندي

(١) البيان ١/١٦٢ .

(٢) البيان ١/١٦٢ - ١٩٦٣ .

وغير ذلك . نعم حتى تهده كأنه أطبع منه ، (٢) .

وفي موضع آخر يوصل الجاحظ بطريقة أدق ما لوحظ من أثر للاساس اللغوي الاجنبي فيقول : « ألا ترى أن السندى إذا جلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يحمل الجيم زايًا ، ولو أقام في عليا تميم ، وسفلى قيس ، وبين عجر هوزان خمسين عاما . وكذلك النبطى القمح خلاف المغلاق الذى نشأ في بلاد النبط ، لأن النبطى القمح يحمل الزاى سينا . أراد أن يقول زورق قال سورك ، ويحمل العين همزة » (٣) .

وفي مواضع أخرى يسجل الجاحظ أن أبا مسلم الخراساني لم يكن يستطيع النطق بالقاف ، فكان يقول بدلا من : قلت قلت ، ومن : قمر كمر (٤) ، والملاحظ أن القاف من أصوات الاطباق التي لا تعرفها الفارسية ، ولذا كانت صعبة النطق على فارسي يتعلم العربية ، ويروى الجاحظ أن زيادا الأعجم كان يحمل السين شيئا (٥) ، ويفهم من هذا النص أنه لم يكن يميز بينهما تميزا واضحا ، وكان زياد الأعجم لا ينطق الطاء كما ينبغي أن يكون ، بل يجعلها تاء ، أى أنه لم يستطع نطق الطاء المطبقة وأبدلها بصوت غير مطبق ، كما لاحظنا عند أبى مسلم الخراساني . وذكر الجاحظ أن بعض مواطنى الدولة الإسلامية من غير العرب لم يكونوا يميزون تميزا واضحا بين الدال والذال (٦) . ولا شك أن هؤلاء كانوا من بيئة لغوية لا تميز بين الدال والذال ، فالذال والذال في الآرامية مثلا صورتان صوتيتان

(١) البيان ٦٩/١

(٢) البيان ٧٠/١

(٣) البيان ٧١/١

(٤) انظر ايضا ، فك : المرية ٣٣ - ٣٤ ، البيان ٧١/١

(٥) البيان ٧٤/١

لوحة صوتية واحدة . ونظراً لأن استخدام صورة صوتية في أية لغة محل صورة صوتية أخرى لنفس الوحدة الصوتية لا يغير المعنى . فلم يكن المتحدث بالآرامية يجد فرقاً في المعنى بين استخدام الدال محل الذال، أو الذال محل الدال .

ويطلق الجاحظ . على ظاهرة عدم قدرة المستعربين على النطق بالأصوات العربية اسم : اللكنة ، بضم اللام . يقول الجاحظ : ويقال في لسانه لكنه إذا أدخل بعض حروف المعجم في حروف العرب وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول ، (٢) .

فاصطلاح اللكنة محدد بهذا النوع من الخطأ في النطق ، واللكنة أثر مباشر للأساس اللغوي . وكل الأصوات العربية التي لم تعرفها لغات الأساس اللغوي تشكل نوعاً من الصموية وتنطق بلكنة .

ينبغي أن نقف قليلاً عند المصطلحات الأخرى المعبرة عن العجز في الأداء النطقي عند الجاحظ . أهم هذه المصطلحات الحبسة والحككة واللثغة ، وكلها بوزن 'فَعْلَة' ، بضم الفاء . يقول الجاحظ : ويقال في لسانه حبسة إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفأ . والنتمام . . . وإذا قالوا في لسانه حككة فإنه يذهبون إلى نقصان آلة المنطق ، (٣) . ويعني الجاحظ بكل من الحبسة والحككة عيبين من عيوب النطق على المستوى الفردي ، وينبغي أن نذكر أن كليهما مرتبط بالظروف الخاصة للفرد ويخرج عن نطاق البحث في اللغة كنظام إلى البحث في اللغة كظاهرة نفسية ، أي أن دراسة اللكنة والحبسة ليست من البحث في اللغة بل هما من علم النفس اللغوي وعلم الأصوات العلاجي . فعلم اللغة يعني باللغة كظاهرة

(١) البيان ١/٣٩ - ٤٠ .

(٢) البيان ١/٤٠ .

اجتماعية ، ولا يهتم بالاختلافات الفردية إلا إذا أصبحت سارية المفعول في المجتمع
معنى الحُيُوسَة عند الجاحظ عدم السلاسة في النطق ، ومعنى الحُسْكُنة عدم اكتمال
العادات الصوتية وعدم قدرة الجهاز الصوتي ، أو كما يقول الجاحظ ، نقصان آلة
عن النطق الواضح المبين ، .

٤ - العربية بين البداوة والحضارة

كانت لغة البدو حتى القرن الثاني من الهجرة موضع إعجاب ، وكان
البدو حجة في أمور اللغة، وكان إليهم المرجع إذا اختلف النحاة ، وكثيراً ما اختلفوا
فعرفت مجتمعات العراق عدداً من البدو الوافدين المعتمدين على ثقة المجتمع في
صحة لغتهم ، جاء هؤلاء واستقروا على مقربة من المدن يبيعون الغريب اكل نحوي
يلجأ إليهم وكل لغوي يشدهم مادة لكتاب أو لرسالة . وعندما اختلف سيميويه
مع الكسائي في مدى صحة التعبيرين : (فإذا هو إياها) أو (فإذا هو هي)
اجتسما إلى البدو ليجندا عندهم الخبر اليقين^(١) . ويفسر البعض اختلاف الضوابط
البصرية في النحو مما قال به الكوفيون بأن هذا يرجع إلى اختلاف لهجات البدو
الذين أخذ عنهم كل فريق . ومن المعروف أن النحاة العرب لم يحاولوا توزيع
الظواهر اللغوية بأن يقرروا لسكل قبيلة ما عندها من أصوات وأبنية ، بل
نظروا إلى كل هذا بمقياس الصحة والخطأ ، واعتبروا البدو حجة لا يرقى إليها الشك ،
وكان ينظر إلى كل اختلاف بين اللهجات بمقياس الصحة والخطأ وبهدف المفاضلة
بين الصور اللغوية إن كانت كلها بدوية ، بأن يقال هذا فصيح وهذا افصح .

(١) ياقوت الحموي : ارشاد الأريب ١٢/١٨٧ ، وعبارة الكسائي : هذه
العرب في بابك قد جمعهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، وهم فصحاء
الناس وقد قنع بهم أهل المصيرين ، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم
فيحضرهم ويسألون ، .

كان الامريون مرتبطين بالبادية مؤمنين بتشيشة الابناء في بيئة لغوية بدوية ، ولكن العباسيين آمنوا بضرورة إجادة الابناء للعربية ، غير أنهم لم يكتفوا بمرتبطين فكرياً أو عاطفياً بالمجتمع البدوي ، وأرادوا لابنائهم حياة رغدة في قصور بغداد ومعرفة جيدة بالعربية ، ولهذا ظهر الاعراب في قصور السادة الجدد يعلون اللغة . وهكذا اختلفت الصورة ، قديماً كان الابناء يرسلون إلى البادية ، وفي القرن الثاني كان الاعراب يقدون إلى القصور يعلون اللغة .

ويبدو أن المثقفين في القرن الثاني من الهجرة كانوا يحاولون استخدام العربية الفصحى في حديثهم ولم يقصروها على الكتابة ، وهناك مجموعة من الاخبار تروى أن حماد الرواية وكان يكذب ويلحن ويكسر ، أو أنه ولحن لحنه ، ويروى عن حماد أنه قال عن نفسه : اني رجل أكلم العامة فأتمكلم بكلامها . . ويروى البعض أن هذا الاهتمام إنما نشأ من التأثير بالخصومة التي كانت بين حماد وبين غيره من الرواة^(١) . كما يروى أن القراء ، وهو نحوي كوفي ، لحن مرة بمحضر هارون واعتذر قائلاً بأن اللحن عند سكان المدن كالاعراب عند أهل البادية .

وإذا نظرنا إلى طبيعة الأخطاء التي تنسب إلى المثقفين في القرن الثاني لاحظنا أنها تناول الخلط بين الحالات الإعرابية ، كأن يقول أحدم (أن نعم) بالجزم بدلاً من (أن نعم) بالنصب ، أو أن يستخدم متحدث حالة النصب بعد حرف جر كان يقول (بخيراً) وكأنه يقول (خيراً) ، أو أن يخلط المتحدث بين صيغ الممدود وصيغ المقصور كأن يقول (قفاء) بدلاً من (قفا)^(٢) . وهذه الأمثلة

(١) انظر طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٥ (طأوريا)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٣/١٤٥ ، والأغاني (دار الكتب ٧١/٦) ، وقد جمع هذه المواضع يوهان فلك في كتابه : العربية ٦٢-٦٣ .

(٢) انظر : العربية ٦٨-٧٠ ، والمراجع المذكورة به .

نادرة ولكنها تمكس أمرا مأخوذا من لغة الحديث اليومى ، لا لغة الكتابة .
وتندرة هذه الامثلة دليل على أن لغة الحديث عند متفقى القرن الثانى كانت هى
الفصحى أو أنهم حاولوا استخدام الفصحى ، ولو كان حديثهم باللهجات المحلية
لما لوحظت هذه الأخطاء . كانت الفصحى لغة المثقفين ، بينما كانت اللهجات
المحلية وسيلة التفاهم عند السواد الأعظم من سكان الدولة الإسلامية .

على أن محاولة الابتعاد عن اللهجات المحلية وتوهم الاختلاف الشاسع بين
الفصحى واللهجات المحلية فى غير أما كن هذا الاختلاف دفع إلى عدد من الأخطاء
وإلى خروج على ضوابط البنية اللغوية الفصحى . فالقارىء نافع يجمع كلمة (معيشة)
على (معاش) بينما الصيغة القياسية (معاش) ، لأن الأخيرة لا تعرف الهمزة (٣) .
والهمزة من الظواهر التى تميز العربية الفصحى عن بعض اللهجات القديمة ، فأراد
نافع أن يجعل الكلمة فصيحة فأضاف إليها الهمزة فى غير موضع لها . فقد اعتقد
أن المفرد (معيشة) على وزن (فعيلة) دون أن يعلم بأن الميم هنا ليست من
أصل الكلمة ، وجمع فعيلة فمائل ، مثل : كريمة كرائم ، ولكن معيشة هى فى
واقع اللغة بوزن مفعلة الذى يجمع على مفاعل ، فتكون صيغة الجمع القياسية
معاش بلا همزة ، ولكن هذا لم يدر فى ذهن من جمع معيشة على معاش لأنه
يعتقد أن الهمزة تكسب الكلمة طابعا فصيحيا ، فأضافها فى غير موضعها ، ويطلق
على هذه الظاهرة اسم ، Overcorrectness أى المبالغة فى تقليد الفصحاء أو
الفاصح .

ودفع الإعجاب بلغة البدو إلى محاولتهم إظهار اختلافهم فى النطق عن أهل
الحضر ، فكانوا يتشدقون أو يتشادقون وكانوا يحتفلون بالغريب ويهتمون به
غاية الاهتمام ، ولذا نجد فى كتب اللغويين اهتماما بالغريب ، أى بالالفاظ

(١) - سورة الاعراف / ١٠ ، شرح المفصل لابن يعيش ١٤٣٤ .

الغريبة النادرة . وحاول بعض البدو إرضاء رغبة اللغويين في استخدام الغريب ولعلمهم به . وفي هذا الإطار اخترعت بعض الشخصيات الأسطورية واسبوا إليها بعض الأفاضل (١) . يروى عن أبي علقمة أنه كان نحوياً ، ولا تذكر كتب الطبقات أى شيء عنه ، أو عن تلاميذه ، أو عن مؤلفاته ، أو عن آرائه . إنها لا تذكر أى شيء إلا أنه كان مريضاً ، وذهب للطبيب فأخبره بعبارات غريبة لا تفهم ، فرد عليه الطبيب بعبارات لا تفهم غرضاً ، وعندما رد أبو علقمة قائلاً للطبيب : لم أفهم ما قلت ، قال الطبيب : وهل فهمت أنا ما قلت ؟ . وهناك رواية أخرى عن عبارات تنسب لأبي علقمة هي عبارات اخترعت اختراعاً ، ولكنها تعبر عن روح العصر . كان هذا في إطار ولعلمهم بالغريب والألفاظ النادرة البدوية ، وتعبيراً عن روح العصر في تمجيده للحياة البدوية .

دخلت العربية في العصر الأموي مجالاً جديداً هو مجال التأليف ، فإذا نظرنا في التراث العربي قبل ذلك العصر لاحظنا أنه يتركز في الشعر القديم والأمثال . يضاف إلى هذا أن القرآن الكريم بالعربية . لم يعرف المجتمع التأليف بالعربية واستخدامها ك لغة كتابة إلا في العصر الأموي . وكان ابن المقفع المتوفى سنة ١٤٢ هـ من أوائل من استخدم العربية لغة كتابة وقد ترجم من البهلوية إلى العربية مجموعة من الكتب منها : خدای نامه ، أى : أخبار الملوك ، كما ترجم أيضاً كتاب : وکیل و دمنه (٢) ، وبهذا دخلت العربية إلى مستوى جديد من مستويات الاستخدام اللغوي ، فلم تعد العربية لغة الشعر فقط بل أصبحت أيضاً لغة التأليف والثقافة . فكان على كل من يعيش في الدولة الإسلامية وبرغب في الإسهام بالتأليف أو بالترجمة أن يتعلم العربية ليتخرج إليها أو يكتب بها أو يفهم المأثور الذي كتب بها .

(١) ياقوت الحموي : إرشاد الأريب ١٢/٢٠٥ - ٢١٥ .

(٢) - الفهرست ٦٧ ، وفك : العربية ٥٥ - ٥٧ .

ولاشك أن استخدام العربية في مستويات جديدة دفع إلى تجديدات لغوية بغية المدى ، فسيبويه يتحدث عن (الاسم) و (الفعل) و (الحرف) كاصطلاحات ذات معنى محدد ، وشتان بين المعنى القديم لهذه المفردات في لغة البادية اليومية وبين المعنى الاصطلاحي المحدد ، فسيبويه خلغ على هذه الكلمات مدلولاً علمياً وهو حين تحدث عن (الهمس) و (الجهر) و (المخارج) ابتكر اصطلاحات استقامها وانتقامها من لغة الحديث ، واستخدمها كاصطلاحات علمية ، محدداً معناها تحديداً يتفق وطبيعة الاصطلاح العلمي . وعندما اكتشف الخليل أوزان الشعر العربي وضع لهذه الأوزان أسماء لم تكن تخاطر لأشعراء على بال ، لقد أخذ اصطلاحات (الطويل) و (الخفيف) و (البسيط) و (الكامل) . . الخ من لغة الحياة العامة ، واستخدمها بدلالة جديدة . وفي كل فروع المعرفة نجد ظهور اصطلاحات علمية مع ظهور العلم نفسه .

ومن الطريف ملاحظه الجاحظ بشأن المصطلحات التي استحدثت وجودها العلوم المختلفة التي جدت في العصر العباسي ، فلاحظ أن المتكلمين اشتقوا من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطالحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع . ولذلك قالوا العرض والجوهر وأيس وليس ، وفرقوا بين البطلان والثلاثي وذكروا الهذبة والهوية والماهية وأشباه ذلك ، كما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيدة وقصار الأرجاز ألقاباً ولم تكن العرب تتعارف تلك الأعارض بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك ، كما ذكر الأوتاد والأسباب والحرم والزحاف . . . وكما سمي النحويون فذكروا الحال والظرف وما أشبه ذلك . . . وأصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء وجعلوها علامة للنظام (١) .

(١) البيان والبيان : ١٣٩/١ - ١٤٠ .

فالجاحظ لاحظ وضع هذه الاسماء كمصطلحات علمية ، وهذه التكتلات إما جديدة في الصياغة مثل الماهية أو ذات معنى اصطلاحى جديد مثل البسيط والسكامل . وهكذا دخلت العربية عبر الثقافة الإسلامية ، كانت لغة بعض القبائل البدوية في شمال جزيرة العرب فصارت لغة الدولة الإسلامية من إيران إلى الأندلس ومن الشام إلى اليمن ، وكانت لغة الحياة اليومية البسيطة فأصبحت لغة العلوم وأداة حضارة راقية .

عندما كانت العربية لغة بعض القبائل البدوية في شمال ووسط جزيرة العرب كانت اللغة تعيش دون موقف مدرسى أو تقنين نظرى ، كانت في مرحلتها البدوية المتأثرة بما تأثر به الحياة اللغوية ، من مؤثرات غير مدرسية . لم يكن هناك موقف مدرسى أو دينى تجاه اللغة ، ولكن خروج القبائل مع الجيوش الإسلامية داعية للإسلام معركة الألفالم المفتوحة أحدث تغيرا لغويا ، وظهرت عند المستعربين ظواهر جديدة أزيجت الحس اللغوى لمن كان قد أعجب بالعربية البدوية ومن وجد في لغة القرآن الكريم اللغة المثلى والنموذج الممتاز للتعبير اللغوى . خرج اللغويون لجمع اللغة من القبائل التى أعجب العصر بفصاحتها ، ورفضوا أخذ اللغة وتعلمها عن باقى القبائل ، ومعنى هذا أن تعلم اللغة الفصحى متاح لمن أراد إذا اتجه هادفا لذلك نحو بعض القبائل . كان مجتمع الشام والعراق يريد العربية ، ولكن إعجابه بالبداوة وبحياة البادية قل مع الأجيال التى لم تعرف حياة البادية ، لقد أرادوا العربية وحياة الحضارة .

وما أن بدأت حركة التأليف العلمى في النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة حتى بدأ التأليف أيضاً في تعليم اللغة العربية . فقد ظهرت الرسائل اللغوية التعليمية الأولى في ذلك الوقت ، وكتبت رسالة صغيرة في « لحن العامة » تنسب للغوى الكوفى الكسائى (١) . يضم هذا السكتيب مجموعة من المفردات التى شاعت في القرن

(١) طبعت هذه الرسائل ضمن : ثلاث رسائل ، تحقيق عبد العزيز الميمنى ،

الثاني في صورة رفضها اللغويون لمخالفتها للبأثور عن لغة فصحاء البادية . فالمؤلف يعتبر صيغة فعلول بفتح الفاء مثل عصفور ، برغوت ، صيغة فاسدة ، لأن المأثور عن لغة فصحاء البادية وزن فعلول بضم الفاء لا يفتحها .

أكد الكسائي أيضاً أن وزن فعيل يستخدم للمؤنث دون تاء التأنيث ، وأن إضافة التاء خطأ . والكتاب يعكس بهذه الملاحظات الصورة المضادة للاستخدام اللغوي كما عرفه القرن الثاني للهجرة . ونحن لا ننظر نظرة الكسائي بأن نحكم عليها بالخطأ أو بالصواب ، بل نحاول أن ننظر إليها كجزء من واقع لغوي عرفه القرن الثاني للهجرة .

أراد الكسائي أن يعلم برسالته في « لحن العامة » الاستخدام اللغوي الصحيح ، وهذا ما أراده ثعلب أيضاً بكتابه « الفصيح »^(١) . وبعد ثعلب أهم نحوي ولغوي عرفته مدرسة الكوفة في القرن الثالث للهجرة ، وقد ألف عدة كتب منها كتاب « الفصيح » الذي يسمى كثيراً باسم « فصيح ثعلب » ، ذكر ثعلب فيه الالفاظ الفصيحة التي يود تقديمها لمن أراد تعلم اللغة الفصحى في صورتها المأثورة القديمة اليدوية . أما ابن قتيبة وهو مؤلف آخر من القرن الثالث الهجري فله كتاب بعنوان « أدب الكاتب » ، خصص المؤلف فيه فصلاً عن اللغة وذكر فيه بعض إرشادات تعليمية تمين على استخدام اللغة الفصحى في صورتها المأثورة^(٢) .

(١) ذكر ثعلب في خانة كتاب الفصيح الهدف من كتابه : « ليعرف به فصيح الكلام ، ولم نذكره بالتوسعة في اللغات وغريب الكلام ، ولكن ألفناه على نحو ما ألف الناس ونسبوه إلى ما تلحن فيه العوام » (ص ١٠٤ ، خفاجي) .

(٢) هذا القسم بعنوان : « كتاب تقويم اللسان » ، ٢٣٨ - ٣٣٢ (ط القاهرة

١٩٦٣) .

وظهور هذه المؤلفات يعكس أمراً جديداً ، فلم تعد اللغة تعلم سماعاً ، وإنما أصبحت تؤخذ عن طريق السكتب ، وفي هذا تحول جديد بدأ مع أواخر القرن الثاني ، واستمر في القرون التالية وهكذا تغيرت الصورة ، فأصبحت اللغة العربية مادة تعليمية تؤلف فيها السكتب

• - العربية في القرن الرابع :

وفي القرن الرابع الهجري كانت العربية تؤخذ تملأ من السكتب لاجتماع طلبة الأعراب ، ولذا فقد ظهرت مجموعة من السكتب منها كتاب قدامة بن جعفر : « جواهر الالفاظ » ، وكتاب « الالفاظ » لابن السكتب ، وكتاب عبد الرحمن الهمداني : « الالفاظ الكناية » ، وكلها كتب تعليمية من القرن الرابع الهجري . ولنقف قليلاً عند مقدمة الكتاب الأخير انجد المؤلف يقول : « ... ووجدت من المتأخرين في الآلة قوماً أخطأهم الانساع في الكلام ، فهم متعلقون في مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغربية والحرف الشاذ ، ليميزوا بذلك من العامة ويرتفعوا عن الأغبياء عن طبقة الحشو ... لجمعت في كتابي هذا بجميع الطبقات أجناساً من ألفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس ، السليمة من التغير ، المحمولة على الاستعارة والتلويح على مذاهب السكتب وأهل الخطابة ، دون مذاهب المتشدقين والمنفصحين ، ... ولاغنى بالكاتب البليغ ولا الشاعر المقلق ولا الخطيب المصنّف عن الاقتداء بالأولين والافتباس من المتقدمين^(١) .

ويبدو من مضمون هذا الكتاب أنه تعليمي انتقائي وأن المؤلف يعتبر اللغة العربية بما ينبغي أخذه تملأ ، واللغة العربية هنا هي لغة الكتابة التي تبعد عن التشادق والغريب وترتفع عن الكلام العامي . فلم تعد محاكاة البدو في تشادقهم أمراً محموداً ، ولم يعد الاختلاط بهم وسيلة تعلم اللغة . فالهمداني يرى أن قراءة

(١) انظر مقدمة الالفاظ الكناية للهمداني .

كتب تعليم اللغة هي الطريق إلى استخدام العربية في الكتابة ، وها هو يقدم مجموعة من التسميات المختلفة في كل موضوع ، فهو يذكر في معنى (صلح الشيء) ما يأتي : « وإذا صلح الفاسد قلت استقام المائل ، وانشعب الصدع ، وانجبر الوهي ، وانحسم الداء ، ارتفق الفسق ، واعتدل الميل ، واندمل السكلم . وعلى هذا النحو ذكر الهمذاني في كل باب التسميات المختلفة ، وقد اعتمد الهمذاني في انقائه على الاستخدام اللغوي عند كتاب الرسائل والدواوين ، فالهمذاني لم يجمع مادته من البدو وإنما هي ومتخيرة من بطون الدفاتر ، ومصنفات العلماء .^(١) وهذا تعبير عن موقف جديد ، فاللغة العربية أصبحت لغة كتابة ، وأصبح تطويرها مرتبطاً باستخدامها على المستوى الإداري والثقافي ، ولم تعد لغة بعض القبائل هي الفصل ، لم يذكر الهمذاني الأعراب الفصحاء كما كان لغويو القرن الثاني يذكرونهم في غرر واعتزاز .

فقدت لغة البدو في القرن الرابع الهجري قيمتها كمثل أعلى للاستخدام اللغوي . وقد خصص اللغوي ابن جني فصلاً في كتابه الخصائص بعنوان « أغلاط الأعراب »^(٢) وعقد فصل بهذا العنوان في كتاب من كتب اللغة معناه أن نظرة القرن الرابع تختلف عن موقف اللغويين الأوائل في القرن الثاني . فعندما اختلف الكسائي وسيبويه في صحة العبارة (فإذا هو هي) أو (فإذا هو إياها) ، أي : هل يعتبر الضمير الثاني في حالة الرفع أم في حالة النصب ؟ كان البدو هم الحكم في القضية . ورغم اختلاف الروايات في هذه القصة إلا أنها تجمع على أن البدو كانوا الحكم في هذه القضية ، وشتان هذا الموقف وموقف ابن جني الذي يجعل نفسه حكماً يفصل في مدى الصحة اللغوية للغة البدو ، ويقضي بأن بعض ما عندهم ليس صحيحاً .

(١) أنظر مقدمة الألفاظ الكتابية ص VIII

(٢) الخصائص ٢/ ٢٨٣ - ٢٣٢

وأنظر أيضاً ص ٢٥ وما بعدها

وهذا الموقف الجديد يرجع إلى مجموعة من العوامل ، أهمها أن العربية في القرن الرابع الهجري كانت قد استقرت كلفة للثقافة . واستدعى هذا بالضرورة معجماً متنوعاً جديداً ، فلم تعد لغة البدو بمعجمها البدوي وأفقهما الصحراوي كافية للتعبير عن الثقافة العربية الإسلامية الراقية . لم يعد من الممكن أن تسكتفى لغة الثقافة بالمعجم البدوي ، فإذا يفعل الفيلسوف أو المنطقي أو عالم الرياضيات بمئة اسم للجمل أو مئتي اسم للأسد . إن اللغة العربية في القرن الرابع الهجري كانت قد استقرت لغة للثقافة ، وأصبحت لغة كتابة تنمو على المستوى الثقافي ، فظهرت المصطلحات والتعبيرات المختلفة ، ولم يعد منقفو القرن الرابع الهجري يلوذون بالبادية بحثاً عن الغريب ، بل كانوا يشتقون المصطلحات والتعبيرات المعبرة عن فكرهم وتخصصهم .

ولكن الشعر ظل داخل الضوابط اللغوية القديمة أو على الأقل حاول الشعراء أن يلزموا الخصائص اللغوية للشعر القديم ، كما فتنها النحاة المبكرون . اعتبر اللغويون أى خروج على الضوابط القديمة غير جائز في لغة الشعر ، وحاول الشعراء دراسة النحو ، ومنهم من تعمق في هذه الدراسة وأظهر ذلك في عمده في شعره . آمن شعراء العربية الفصحى بأن اللغة القديمة أى اللغة التى سجلها النحاة هى المثل الأعلى ، لكل الصيغ التى جاءت من عصور الاحتجاج صحيحة وجديرة بالاحترام ، ومنها صيغ نادرة جاءت في أبيات مفردة فقدت قصائدها وسجلها النحاة . وهناك عدد من الصيغ اعترف الكوفيون وحدهم بصحتها ، ولم يعرفها أو يعترف بصحتها البصريون . وهنا ظهرت أهمية الثقافة اللغوية والإعداد النحوي للشاعر ، والمنتجى من أوضح الأمثلة على هذا .

فقد حاول أن يظهر في شعره براعته اللغوية ، وكأنه كان يستعرض معرفته بالمعجم القديم وهو يتفاح بالنادر والغريب ، ويثير نائرة النحاة ليثبت بعد ذلك صحة ما قاله من الناحية اللغوية . استخدم المتنبي صيغة الجمع (آخاء) جمعاً لكلمة (أخ)

لأنه عرفت أن هذه الكلمة استخدمت في بيت من الشعر القديم^(١) . وقد أثار المتنبي غضب أنصار المذهب البصري ليثبت لهم بعد هذا أنه على صواب ، وجاء بالشاهد على صحة تعبيره . لقد بنى المتنبي وزن قُعمَال من الرقم ستة: أى سداس متحدياً بذلك ضوابط النحاة إذ أنهم أجازوا وزن فعال من العدد واحد إلى العدد أربعة ، ورفضوا قياس هذا الوزن من الأعداد الأخرى^(٢) . وكان المتنبي يعلم أن بعض اللهجات القديمة استخدمت كلمة (التوراب) بدلا من كلمة التراب ، ولذا استخدم هذه الكلمة النادرة^(٣) . ولهذا كله فقد اهتم به اللغويون ، ولا نعلم شاعراً عربياً في عصر المتنبي أو بعد عصره أثار انتباه اللغويين مثله . فقد كثرت الشروح اللغوية على ديوان المتنبي . ومن هذه الشروح : شرح المكبري ، وشروح ابن جني ، وشروح المعري ، وشرح التبريزي ، وهكذا اهتم المتنبي بالصيغ القديمة النادرة ، فأثار اللغويين واهتموا به .

٦ - الهمداني والحياة اللغوية في القرن الرابع الهجري :

وصف الهمداني (ت ٣٢٤) الحياة اللغوية في جزيرة العرب في أوائل القرن الرابع الهجري وخصص لها فصلاً مستقلاً عنوانه : لغات أهل هذه الجزيرة^(٤) . ويتضح من عبارات الهمداني في هذا الفصل صورة التنوع اللغوي في الجزيرة العربية آنذاك . لقد قاس الهمداني اللهجات واللغات المختلفة

(١) أنظر حول الاستخدام اللغوي عند المتنبي: فك: العربية ص ١٦٨ - ١٨١

(٢) الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه (ط القاهرة ١٩٦٦)

٩١ ، ٩٩ ، ٤٥٧ .

(٣) الوساطة ٨٦ .

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب (ط القاهرة ١٩٥٣) ص ١٣٤ - ١٣٦

في الجزيرة العربية وفق معايير العربية الفصحى ، فبقدر قرب اللهجة من الفصحى تكون هذه اللهجة فصيحة تستحق عنده الثناء ، وبقدر بعدها عن اللغة الفصحى تكون هذه اللهجة رديئة . إننا نلاحظ من وصف الهمداني لطبيعة التنوع اللغوي في الجزيرة العربية في أوائل القرن الرابع الهجري عدة أنماط لغوية . ففي أقصى الجنوب وبالتحديد في منطقة الشحر لاحظ الهمداني أن أهلها « ليسوا بفصحاء ؛ مهرة غثم يشاكون المعجم »^(١) ، والواقع أنهم يمثلون جماعة لغوية متميزة لغتها الأولى هي اللغة المهرية وليست اللغة العربية ، فالعربية بالنسبة لهم لغة تكتسب تعلماً كما تكتسب أية لغة أجنبية أخرى . ولاحظ الهمداني أن منطقة حضرموت القرية من منطقة المهرة تسودها لغة ليست بفصيحة « وربما كان فيهم الفصيح ، وأفصحهم كنده وحمدان »^(٢) ، ومعنى هذا أن منطقة حضرموت كانت قطعت في ميدان التعريب بعربية الشمال شوطاً بعيداً ، وأن قبيلة كنده بصفة خاصة كانت قد تعربت بدرجة أكبر ، ومعنى هذا بالنسبة لعربي مثل الهمداني أنه كان يستطيع التعامل مع أبناء قبيلته حمدان بلغته العربية ويستطيع كذلك التعامل مع أبناء قبيلة كنده بالعربية أيضاً ، بينما يصعب عليه أن يفهم كلام أهل الشحر ، فلغتهم هي اللغة المهرية . ويمكس وصف الهمداني لبعض اللهجات بأنها غير فصيحة أن هذه اللهجات عربية شمالية ولكنها تختلف اختلافاً بيناً عن العربية الفصحى .

وقد ذكر الهمداني إلى جانب لغة المهرة لغة أخرى تختلف عن القرية الشمالية ، وهي اللغة الحميرية . فذكر أن أهل شَبَّام أَقْبَان والمصانع وتُخْلِي يستخدمون « الحميرية المحضة »^(٣) ، وذكر في مواضع أخرى أن بعض القبائل تتعامل

(١) الهمداني ١٣٤

(٢) الهمداني ١٣٤

(٣) الهمداني ١٣٦

« باللسان الحميري »^(١) أو بالحميرية القحة المتعقدة^(٢) . ومن هذا كله يتضح أن القرن الرابع الهجري عرف جماعات بشرية تتعامل في اليمن بالمهرية ، وأخرى باللسان الحميري ، وجماعات أخرى أخذت تتعرب بعربية الشمال .

لقد كان الهمداني يعلم أن منطقة اليمن عرفت لغة أخرى غير العربية الشمالية ، وأن هذه اللغة الحميرية تركت أثراً في استخدام اليمنيين المتعربين بعربية الشمال ، فعندما تحدث الهمداني عن «سرو وحمير وحبشه» ذكر أنهم «ليسوا بفصحاء وفي كلامهم شيء من التحمير . . . فيقولون : يا بن مَعَم في يا بن العم وسمِع في أسمع»^(٣) . وبهذا تعربت بعض الجماعات البشرية بعربية الشمال متأثرة بلغتها الأولى العربية الجنوبية .

ويبدو أن لغة بعض المناطق في اليمن في القرن الرابع الهجري كانت تتعامل بلغة قريبة من الفصحى غير أنها مولدة أى بها بعض مظاهر اللحن . يقول الهمداني : «عدن لغتهم مولدة ردية»^(٤) ، «بنو مجيد وبنو واقد والاشعر لا بأس بلغتهم»^(٥) ، «سرو ومذحج ومارب وبيجان وحريب فصحاء ، وردى اللغسة منهم قليل»^(٦) . «نحو لان صعدة . . . فصحاء»^(٧) . ويبدو أن هذه المناطق كانت قد تعربت بعربية الشمال إلى حد كبير .

(١) الهمداني ١٣٥ ، السطر الأول

(٢) الهمداني ١٣٥ ، السطر الثالث ، وكذلك السطر التاسع

(٣) الهمداني ١٣٤

(٤) الهمداني ١٣٤ ، الثالث من أسفل

(٥) الهمداني ١٣٤

(٦) الهمداني ١٣٤ .

(٧) الهمداني ١٣٦

لقد ذكر الهمداني في عبارة موجزة لهجة كل قبيلة وكل منطقة اهتم بها ، وقد جعل أقرب اللهجات إلى اللغة الفصحى تلك اللهجات العربية الشمالية في مناطق العرض والحيجاز ونجد . يقول الهمداني : أما العروض ففيها الفصاحة ما خلا فراها ، وكذلك الحيجاز فنجد السفلى ، قال الشام وإلى ديار مصر وديار ربيعة ففيها الفصاحة إلا في قراها ،^(١) . ومن هذا يتضح أن مجموعة من اللهجات في هذه المناطق كانت قريبة من الفصحى ولسكن لهجات الحضر المستقرين أي سكان القرى كانت مخالفة للفصحى . وهكذا أوضح الهمداني في وصفه للحياة اللغوية في جزيرة العرب بعبارات موجزة بعض جوانب النوع اللغوي في القرن الرابع الهجري .

٧ - المقدسي والحياة اللغوية في القرن الرابع الهجري :

تضمن كتاب : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، للمقدسي معلومات مختلفة حول العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري . وقد ذكر في مقدمته أنه اهتم أيضا باختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ،^(٢) وتقوم هذه الملاحظات على خبرة المؤلف أثناء رحلاته وما دونه أثناء هذه الرحلات حول كل إقليم من الأقاليم التي زارها^(٣) .

تناول المقدسي الحياة اللغوية في الأقاليم العربية من الدول الإسلامية بمجموعة من الملاحظات حول جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب . لاحظ المقدسي أن العربية هي اللغات السائدة في جزيرة العرب عدا منطقة 'صحار'^(٤) . وهي المنطقة الواقعة على المحيط الهندي والخليج العربي من عمان . فهذه المنطقة كانت تضم وفق

(١) الهمداني ١٣٦

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١

(٣) أنظر أيضا مجموعات المفردات التي تختلف فيها لهجات الأقاليم العربية ، ٣-٢٢

(٤) المقدسي ص ٩٦

وصف المقدسي جماعات من المتحدثين بالفارسية . وإلى جانب هذه المنطقة التي سادها فيما يبدو ضرب من الازدواج اللغوي ، فقد ذكر المقدسي أن اليمن ضمت « قبيلة من العرب لا يفهم كلامهم »^(١) ، ولا شك أن المقصود بهؤلاء العرب تلك الجماعات اللغوية التي كانت تتعامل في القرن الرابع الهجري باللغات العربية الجنوبية المختلفة ، وقد أشار الهمداني إلى ذلك . وإذا كان الهمداني قد ذكر أن لغة عدن مولدة فإن المقدسي ذكر عدة أمثلة من لهجة عدن ، يقول المقدسي : « وأهل عدن يقولون لرجليه رجلينه ، وليديه يدينه وقس عليه ويعملون الجيم كافا فيقولون لرجب ركب ولرجل ركل »^(٢) . ومعنى هذا أن لهجة عدن في القرن الرابع الهجري لم تكن تميز بين الاسم المضاف والاسم غير المضاف وأن النون لم تكن تختف من الاسم المثنى المضاف إلى ما بعده . وملاحظة المقدسي حول نطق الجيم في عدن على نحو نطق الجيم في لهجة القاهرة المعاصرة واضحة من تدوين لهذا الصوت بحرف الكاف ، فقد أراد أن يعبر دون لبس عن صوت الجيم الشديدة فعبّر عنه بالكاف ، وهي في العربية صوت شديد أيضا . ولا شك أن نطق الجيم على هذا النحو في عدن في القرن الرابع الهجري يعد امتدادا للجيم في اللغة السامية الأم وللجيم في اللغة العربية الجنوبية ، وأن أهل عدن عندما تعربوا بعربية الشمال احتفظوا بهذا الصوت ولم ينطقوه النطق العربي الشمالي . ويبدو أن جماعات بشرية غير عربية الأصل كانت قد هاجرت إلى أنحاء من الجزيرة العربية ولكنها تعربت وأصبحت منتمة للإطار اللغوي العربي ، يقول المقدسي : « وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن اللغة عربية »^(٣) . وعندما لاحظ المقدسي أن تلك اللهجات العربية التي أشارت إليها كتب اللغة كانت ما تزال حية في بوادي الجزيرة العربية ذكر ذلك^(٤) ، ولاحظ

(١) المقدسي ٩٦

(٢) المقدسي ٩٦

(٣) المقدسي ٩٦

(٤) المقدسي ٩٧

أن أقرب اللهجات العربية من الفصحى هي لهجات « هذيل ونجد وبقية الحجاز إلا
الاحقاق فان لسانهم وحش » (١) . فهذه اللهجات كانت قريبة من الاستخدام
اللغوى الفصيح .

فضل المقدسى الاستخدام اللغوى فى مشرق الدولة الإسلامية على باقى أنحائها .
والمقصود بالمشرق عنده المنطقة الواقعة شرقى العراق . وتضم إيران والمناطق التى
بعدها . يقول المقدسى فى تفسير ذلك : « لأنهم أصبح الناس عربية ، لأنهم تكلفوها
تكلفاً وتعلموها تلقاً » (٢) . ومعنى هذا أن اللغة العربية المنشودة فى رأى المقدسى
كانت لغة تؤخذ بالتعليم لا بالسليقة ، ولذا فلم يبرز فيها أبناء الجزيرة العربية ، بل
اهتم بتعلمها المهتمون بذلك من أبناء لغات أخرى ، فأجادوا العربية الفصحى
وامتازوا بها . وعندما ذكر المقدسى إقليم العراق والمقصود به جنوب ووسط
العراق — لاحظ كثرة اللهجات فى هذه المنطقة ، وهى لهجات « حسنة فاسدة » ،
أى حسنة نطقاً فاسدة نحواً . لقد فضل المقدسى لهجة الكوفة عن باقى لهجات
العراق ، وفسر هذا بأن سكان الكوفة قريبون من البادية بعيدن نسبياً عن المنطقة
اللغوية الآرامية . يقول المقدسى : « لغاتهم مختلفة ، أصحها الكوفية لقربهم من
من البادية وبعدم عن التبط ، ثم هى بعد ذلك حسنة فاسدة ، بخاصة بغداد . أما
البطائح فنبط لا لسان ولا عقل » (٣) . ويبدو أن المقصود بالبطائح المناطق الزراعية
السهلة ، وأن اللهجات الآرامية كانت ما تزال مسعوعة فى هذه الأنحاء . وقد قارن
المقدسى لهجة شمالى العراق باللهجات الشام ولاحظ أن « لغتهم لغة حسنة » ، أصح
من لغة الشام لأنهم عرب ، أحسنها الموصلية » (٤) . ويبدو أن المقصود بهذا أن

(١) المقدسى ٩٧

(٢) أحسن التقاسيم ٣٢

(٣) المقدسى ١٢٨

(٤) المقدسى ١٤٦

اللهجة الموصلية كانت أقرب إلى الفصحى من لهجات الشام . وفي كل هذه المنطقة كاد استخدام اللغة الفصحى يكون مقصوراً على التأليف والتدوين والإبداع الفني ، ولم تكن لغة حديث عادي بين المتكلمين ، يقول المقدسي : « وكنت إذا حضرت مجلس قاضى القضاة في بغداد أخجل من كثرة ما يلحن ، ولا يرون ذلك عيباً » (١) . فالعربية الفصحى كانت قد استقرت آنذاك لغة ثقافة ، أجادها أيضاً مؤلفون من غير أبناء اللغة العربية ، ومن لم يعتمد إجادتها لم يستطيع حسن استماعها .

وعندما زار المقدسي مصر والمغرب والاندلس لاحظ وجود لغات أخرى إلى جانب العربية . قال المقدسي عن مصر : لغتهم عربية غير أنها ركيكة رخوة وذمتهم يتحدثون بالقبطية » (٢) . ومعنى هذا أن اختلاف اللهجة العربية في مصر عن الفصحى جعل المقدسي يصفها على هذا النحو ، وفي القرن الرابع الهجري كانت مصر قد قطعت في التعريب شوطاً بعيداً كاد أن يكون حاسماً ، لكن المقدسي لاحظ معرفة بعض أهل الذمة وبالتحديد بعض المسيحيين — بالقبطية فسجل هذا . وذكر المقدسي أيضاً أن اللهجة العربية في المغرب والاندلس متعلقة بمخالفة لما ذكرنا في الأقاليم ، ثم ذكر أيضاً أن « لهم لساناً آخر يقارب الرومي » . . . والغالب على بوادي هذا الإقليم البربر . . . لا يفهم لسانهم » (٣) . ففي ذلك الوقت كانت موجة بني هلال وبني سليم لم تصل بعد ، وكانت اللغة البربرية ما تزال تسود منطقة كبيرة من المغرب .

وقد فصل المقدسي الكلام عن اللغات الموجودة في المناطق غير العربية في

(١) المقدسي ١٨٣

(٢) المقدسي ٢٠٣

(٣) المقدسي ٢٢٤

شرقى العالم الإسلامى ، وذكر عدداً كبيراً من اللغات واللهجات (١) . ومن أهم هذه اللغات : اللغة الفارسية ، واللغة الصفدية (- الصفدية) ولغة الديلم ، ولغة الخزر ، واللغة الأرمينية ، واللغة الرانية ، ولغة البلوش ، بالإضافة إلى عدد كبير من اللهجات المحلية . وفى كل هذه المناطق وجد المقدسى معرفة باللغة العربية عند المثقفين ، كما وجد أيضاً فى إقليم الديلم بجموعة من المتحدثين باللغة العربية وباللغة الفارسية يعيشون فى عزلة عن باقى أنحاء الدولة الإسلامية . وهكذا صور المقدسى بمبارات موجزة صورة للتنوع اللغوى فى أنحاء العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى .

٨ - العلاقات اللغوية فى القرن الخامس الى فجر العصر الحديث :

يلاحظ تجاه هذه الفترة التى امتدت سبعة قرون أن العالم العربى كان واقعاً فى قبضة عناصر غير عربية تشترك مع غالبية العرب فى اعتناقها الدين الإسلامى ، ورغم تغير الحكم فقد كانوا دائماً من غير العرب . كانت الطبقات الحاكمة من عناصر فارسية أو تركية أو شركسية ، وبخلاف توزيع العناصر من إقليم لآخر ، وفى كل هذه الفترة كانت العربية لغة الطقوس الدينية ولغة الفقه الإسلامى مما جعل دراسة العربية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدراسة الدين ، فلم تكن العربية إلا لغة الدين . وهذا الأمر يشبه مركز العربية فى إيران الحالية ، فكل من أراد أن يشتغل بالدين كان عليه أن يدرس العربية .

وظهر فى هذا العصر عدد من الملتخصات والشروح انتشرت انتشاراً كبيراً فى المشرق والمغرب ، وكان الهدف من هذه الملتخصات تقريب ما توصل إليه الباحثون القدماء من نتائج فى بحث اللغة العربية . كانت المعرفة بالعربية أداة لدراسة الدين ، وكل المعاهد العلمية التى نشأت أو أخذت طابعها المميز فى تلك الفترة مثل الأزهر والمعاهد المماثلة فى العالم العربى والبلدان الإسلامية ما تزال تعتبر دراسة العربية

(١) المقدسى ، ٢٥٩ ، ٤٤٣ - ٤٤٦

والدين أمرا واحدا . وهذا الربط إنما يرجع إلى ظروف تاريخية ، فالعربية لم تكن إلا لغة الدين عندما كان العالم العربي واقعا تحت السيطرة الإسلامية غير العربية فلم تكن العربية لغة الإدارة أو السياسة ، كانت الإدارة فارسية في أقصى المشرق الإسلامي وتركية في المناطق الواقعة تحت النفوذ التركي .

بدأت هذه المرحلة بإبعاد العربية عن الإدارة عندما أعلن السلجوقيون في القرن الخامس الهجري اللغة الفارسية لغة رسمية لدولتهم التي ضمت القسم الشرقي من الدولة الإسلامية . وفي ذلك العصر بدأ الإيرانيون يؤلفون بالفارسية وبدأ بعضهم بهجر العربية ، وألف بعض المفكرين بالعربية والفارسية ، فالغزالي مثلا ألف كتابه «إحياء علوم الدين» بالعربية ، وألف بالفارسية كتباً كثيرة منها «التبر المسبوك» ويلاحظ في المؤلفات الفارسية المبكرة أى في القرن الخامس أنها اعتمدت اعتمادا كبيرا على المصطلحات العلمية العربية . فقد كان الإيرانيون يستخدمون العربية في القرون الأربعة الأولى للهجرة لغة للتعبير والتأليف . كان كل ما كتبه الإيرانيون في القرون السابقة بالعربية ، وكانت عندهم لغة التأليف ، وعندما حاولوا استخدام الفارسية اعتبروا العربية لغة الأساس ، وأخذوا منها المصطلحات العلمية المختلفة أما الأفعال وأدوات الربط اللغوي والألفاظ الأساسية البسيطة فكانت من اللغة الفارسية . وهذا يشبه الكتابة العلمية بالألمانية أو بالسويدية ، فمعظم المصطلحات لاتينية أو يونانية وأدوات الربط والأفعال والمفردات البسيطة من اللغة التي يفترض أن يكتب الإنسان بها .

لقد تغير الموقف في القرن الخامس الهجري إذ دخلت اللغة الفارسية مجال التأليف مدعومة بدولة فارسية مسلمة ، ورأت هذه الدولة أن تجعل من الفارسية لغة الإدارة والسياسة ومن العربية لغة الدين . ولعل من الغريب أن أول المدارس العالية التي انشئت لتعلم العربية إنما ظهرت في القرن الخامس الهجري وهي : «المدرسة النظامية» المنسوبة إلى نظام الملك ، فقد أسست سنة ٤٥٩ هـ . وكان تأسيس «المدرسة النظامية» في إطار الوضع اللغوي السائد ، فقد اهتم السلجوقيون بالعربية الفصحى في عصورها

المبكرة ، لأن هذا يعين على فهم الدين ، ولكنهم اعتبروا الفارسية لغة الحياة . وهذا يشبه موقف الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا في استخدامها اللغة اللاتينية في الطقوس الدينية . وقد درس في المدرسة النظامية أبو زكريا التبريزي (المتوفى سنة ٥٠٢هـ) ومن أهم مؤلفاته : شرح ديوان الحماسة . ويلاحظ في مقدمات الكتب التي ألفها التبريزي وغيره أنه يعتبر دراسة العربية وسيلة فهم القرآن الكريم والسنة . ونلاحظ عند المشتغلين في ذلك الوقت تديناً شديداً جعلهم يذكررون أن أشرف العلوم علم الكتاب والسنة وأن مفتاح هذه الدراسة اللغة العربية .

إن الحديث عن العربية في العالم الاسلامي من القرون الخامس عشر حتى التاسع عشر ذو شجون . لقد كان معظم أجزاء العالم العربي تحت السيطرة العثمانية المباشرة أو غير المباشرة ، ومعنى هذا أن لغة الإدارة العليا كانت التركية ، وأن لغة الإدارة المباشرة كانت التركية في كثير من الأقاليم ، وانتظر إلى ألقاب الوظائف الكبرى في تلك الفترة ، لقد كان الديوان الكبير وهو مجلس حكم البلاد يضم عن كل أوجاق موظفين ثلاثة : الأغا والدفتردار والروزنامجي . والكلمات : أوجاق ، أغا دفتردار ، روزنامجي ليست عربية . لم تدخل مصر إلا مع الفتح العثماني ، والأوجاق هو المنطقة ، والأغا قائد الحامية ، والدفتردار مدير المالية ، والروزنامجي حافظ السجلات . وكانت أهم وظائف الدولة في العناصر غير العربية ، فالمماليك يتولون أهم الوظائف العسكرية والمدنية حتى أن شيخ البلد (المحافظ) كان منهم ، وكان أعضاء الديوان والمماليك أصحاب الكلمة الأولى في البلاد ، فإذا أضفنا إلى ذلك مركز القوة الرابع في البلاد — بجانب الوالي والديوان والمماليك — وهو الحامية التركية والمتركة لتبيننا أن كل مراكز القوة كانت في يد غير العرب . كانت لغة الإدارة المركزية في الدولة العثمانية هي اللغة التركية ، وكان أصحاب المراكز العليا يستخدمون في الإدارة التركية أيضاً ، أما العربية فكانت في الإدارة المحلية .

لقد إرتبطت اللغة العربية طوال هذه الفترة بالطبقات غير الحاكمة في المجتمع ، فالمتحدثون كانوا يمثلون الطبقات المحكومة ، وكانت العناصر الحاكمة من أصول غير

عربية وكانت العناصر العسكرية المسيطرة من أصول غير عربية وكانت الطبقات الارستقراطية ذات النفوذ من غير العرب فالمماليك الذين حكموا وقتاً طويلاً إنما جلبوا من مناطق مختلفة في وسط آسيا وبعد دخول العثمانيين كانت الطبقات غير العربية في المجتمع تحتفظ لنفسها بكل الوظائف الراقية التي كانت وقفاً على المتحدثين بالتركية .

وهكذا إرتبطت دراسة العربية الفصحى في الوجدان الشعبي بدراسة الدين ، وأصبح رجل الدين والمتخصص في العربية نخباً واحداً هدفه الدين ووسيلته العربية. وأصبح الحديث باللهجات العربية واستخدام هذه اللهجات الابداع الفني دليلاً على الضمة الاجتماعية، وكانت التركية لغة السياسة والإدارة والطبقات الحاكمة في المجتمع.

الفصل الرابع عشر

العربية في القارة الأفريقية

العربية أكثر اللغات الوطنية انتشاراً في القارة الإفريقية ، فأكثر من نصف سكان أفريقيا يتعاملون باللغة العربية . وإذا كانت اللغة العربية قد نشأت في آسيا وانتشرت في غربها بعد الفتح الإسلامي ، فإن اللغة العربية قد انتشرت في القارة الإفريقية بصورة زادت مع الزمن حتى أصبح أبناء العربية في أفريقيا أكثر منهم في آسيا . وإذا كانت درجة انتشار اللغة العربية في أفريقيا تختلف من قطر لآخر ، كما تختلف اللهجات العربية في القارة اختلافاً بعيداً — فإن هذا يرجع إلى ظروف التعريب التي مرت بها كل منطقة من هذه المناطق .

١ - تعريب مصر والنوبة والسودان :

ارتبطت بداية تعريب مصر بالفتوح العربية الإسلامية وما صاحب ذلك من هجرات بشرية تلتها موجات أخرى من القبائل العربية التي استقرت في مصر فذابت في أهلها ، وبذلك أخذت هذه المجموعات الوافدة تحول من النظام القبلي القائم على وحدة الدم إلى أنماط حضرية مغايرة تقوم على وحدة المسكن . وذوبان القبائل الوافدة وتحولها عن النظام القبلي يجعلها بالضرورة لا تهتم بالنسبها القائمة على الدم ، وتجعل التجمعات البشرية الناجمة عن اختلاطهم بالسكان الأقدم تترايط وتتغير على أساس الموطن والمستقر ، لا على أساس الأصل والنسب . وقد لاحظ المؤرخ الكبير المقرئ هذه الحقيقة في الأسطر الأولى من كتابه : « البيان والاعراب عما به مصر من الأعراب » ، قال : « أعلم أن العرب الذين شهدوا فتح مصر قد أبادهم الدهر

وجهت أحوال أكثر أعقابهم ، فلا شك أن الاستقرار ثم الاختلاط والإقامة في القرى والمدن مما يخلق ظروفًا موضوعية جديدة يصبح فيها الاهتمام بالأنساب أمراً ثانوياً لا قيمة له ، وفي مثل هذه الظروف يصبح تتبع أحوال أعقاب الموجه البشرية العربية المصاحبة للفتح أمراً غير ممكن .

وقد سجل لنا المقرئى معلومات قيمة عن الموجات العربية المختلفة التي قدمت فاستقرت في أرض مصر ، وحاول أن ينسب كل قبيلة إلى عرب الشمال أو إلى عرب الجنوب وذكر الخلاف في ذلك ، يقول المقرئى : « جذام من قدماء عربان مصر قدموا مع عمرو بن العاص » ، وهذه القبيلة من عرب الجنوب الذين كانوا قد هاجروا إلى الشمال ، يقول المقرئى : « لحقت بالشام فانتقلت إلى سبأ ولحقوا باليمن » (١) . ويبدو أن قبائل الجنوب التي هاجرت إلى مصر كانت من الناحية اللغوية قد تعربت بعربية الشمال قبل رحيلها إلى مصر ، فأسممت في تعريب مصر بلغة الشمال لا بلغة الجنوب ، ولا ينفى هذا إمكان وجود تأثيرات جنوبية في الاستخدام اللغوى لهذه القبائل الجنوبية أصلاً ، الشمالية مهجراً ، المصرية مستقراً .

وتمثل قبيلة قضاة أكبر تجمع قبلى هاجر إلى مصر في عهد عمر بن الخطاب ، وتهجير القبائل إجراء سياسى عرفه التاريخ الإسلامى ، ففي عهد عمر بن الخطاب ، هجر ثلث قبيلة قضاة إلى مصر ، فقد ذكر المقرئى أن بلى قبيلة عظيمة فيها بطون كثيرة ، وكانت بلى الشام ، فنادى رجل من بلى بالشام : « يا لقضاة ! ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب إلى عامل الشام أن يسير ثلث قضاة إلى

(١) المقرئى : البيان والاعراب ص ١٢

.. وحول تعريب مصر ، أنظر ، أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر

(القاهرة ١٩٧٠) .

مصر ، ، وواضح من هذا الخبر أن عمر بن الخطاب رأى في الظروف التي أدت إلى استصراخ القبيلة وحدث ذلك ردة نحو عصبية قبلية كامنة ، فسكان تهجير تلك القبيلة اجراء سياسيا يهدف إلى كسر وحدة تمكثل و قبيلة فيها بطون كثيرة ، ، وهكذا جاءت هذه الموجة أرض مصر .

وقبيلة قضاعة هذه مختلف في نسبتها إلى عرب الشمال أو عرب الجنوب يقول ابن حزم : « وأما قضاعة فمختلف فيها ، يقولون : قضاعة بن معدان عدنان ، وقوم يقولون : هو قضاعة بن مالك بن حمير » . وبشير ابن حزم بعد ذلك إلى كتب بطليموس وكتب المعجم التي تذكر قضاعة وتحدد مواضعها ، قال : « وبلاد قضاعة متصلة بالشام ، وبلاد يوران والامم التي يادت مالمكها بغلبة الروم عليها وبلاد عدنان ، ولا تتصل ببلاد اليمن أصلا^(١) » . الواقع أن المصادر المتاحة لا تمكننا من الفصل في قضية أصل قضاعة ، وأغلب الظن أن قضاعة من أصل جنوبي ، وأنها قد هاجرت مع تلك القبائل العربية الجنوبية التي هاجرت إلى الشمال بعد انهيار سد مأرب ، وأن قضاعة قد تعربت في مهجرتها إلى الشمال بعربية الشمال تعرباً ترك بعض السمات غير الشمالية في لهجتها ، الأمر الذي جعل اللغويون ينصرون على إعراضهم عن الاستشهاد بلغتها ، ولو كانت لغتها جنوبية لما فكر فيهم أحد رفضاً أو قبولاً . ذكر الفارابي^(٢) أنه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جذام ، فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقيط ، ولا من قضاعة ولا غسان ولا من إياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام ، وأكثرهم فصاري يقرءون في صلاتهم غير العربية . فمربيتهم لم تسكن إذن عربية جنوبية ، بل كانت عربية شمالية مشوبة . هذا وقد كان اعتماد ابن مالك على لغة لحم وقضاعة وغيرهم مما أثار عليه نقد أبي حيان النحوي : « وليس ذلك من عادة أئمة هذا

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٨ وقارن ٤٤٠

(٢) النص مقتبس عن كتاب الافتراح للسيوطي ص ١٩

الشان^(١) ، وينبغي لكل هذا ألا نبالغ في تصور الآثار الجنوبي في تعريب مصر ، فهذه القبائل وإن كان بعضها — على ما يرجح — من أصل جنوبي ، فإنها كانت من الناحية اللغوية قد تعربت — بصفة عامة بعمرية الشمال ، قبل أن تخرج بإرادتها أو بأمر الخليفة مهاجرة إلى مصر ، وهذا لا ينفى الانتماء الشعوري لهؤلاء ، ولا ينفى ترابط القبائل ذات الأصل الجنوبي في عصبية واحدة جمعتهم فترة ما قبل أن يذوبوا مع السكان الاقدمين في مصر .

وفي العصر الاموي حاولت الدوائر الحاكمة إحداث توازن بين عرب الشمال وعرب الجنوب في مصر ، والمضى قدما في تعريب مصر ، فنقلت عدة قبائل شمالية إلى مصر كي تحقق توازنا مع هؤلاء الذين احتفظوا في وجدانهم الجماعي بأصولهم الجنوبية ، وكى تمضى عملية التعريب في مصر على نحو أسرع . فتهجير قبائل شمالية إلى مصر اجراء سياسى اتخذته الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٩ هجرية ، ذكر المقرئى : « وكان نزول سليم عدة قبائل من قيس في أرض مصر سنة تسع ومائة ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من قيسهم وعدوا أن فإنهما من قيس » .

وقد ذكر المقرئى أن هذا القرار السياسى تم استجابة من الخليفة لرغبة عامل خراج مصر ، إذ سأله أن ينقل إليها من قيس أحيانا ، فأذن له هشام في الحاق ثلاثة آلاف منهم ، وتحويل ديوانهم إلى مصر . على أن لا ينزلوا بالقسطنطينية فأنزلهم الخوف الشرقى وفرقة بهم فيه ،^(٢) وفي موضع آخر ذكر المقرئى أنهم نزلوا منطقة بلبس ، وهذا ما يدفعنا إلى اقتراض أنهم نزلوا المنطقتين ، ولعل تشابه بعض

(١) الاقتراح للسيوطى ص ٢٠

(٢) المقرئى : البيان والاعراب ص ٦٦

اللهجات في الشرقية مع لهجات في الصعيد إنما يرجع إلى هجرة نفس القبائل إلى كلتا المنطقتين .

واستمرت هجرات عرب الشمال إلى مصر في العصر الطولوني ، فنزلت قبائل من البهامة في صعيد مصر في العقد الخامس من القرن الثالث الهجري ، وفي هذا يقول المقرئى : « كانوا ينزلون البهامة وقدموا مصر في خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومائتين في عدد كثير ، وانتشروا في النواحي ، ونزل طائفة منهم بأعلى الصعيد ، وسكنوا بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها » .

وفي العصر الفاطمي عرفت مصر موجتين بشريتين عربيتين ، لهما أهمية كبرى في تاريخ التعريب في مصر والسودان والمغرب ، لقد هاجرت إلى مصر « جهينة » ، كما هاجر إليها بنو هلال وبنو سليم .

أما عرب « جهينة » الذين تنسب إليهم — أكثر قبائل السودان العربية ، فقد نقلوا إلى مصر بقرار سياسى اتخذته الساسة الفاطميون ، يقول المقرئى : « وأما جهينة فأنما من قبائل اليمن وهى قبيلة عظيمة وفيها بطون كثيرة وكانت مساكنهم في بلاد قريش ، فأخرجتها قريش بمساعدة عسكر الفاطميين ، ونزلوا في بلاد إصمهم أعلاها وأسفلها . وهكذا كان تهجير عرب « جهينة » قراراً سياسياً اتخذته الفاطميون فأسهم في إضافة عنصر عربى إلى مصر .

وكانت العوامل السياسية كذلك وراء تهجير بنى هلال وبنى سليم إلى مصر وإخراجهم منها بعد ذلك ، وكانت هذه الموجة العربية الشمالية مشاراً اهتمام ابن خلدون ، وهو مصدرنا الأول في دراسة هذه الهجرة الضخمة ذات العدد الوفير . يذكر ابن خلدون أن « بطون هلال وسليم كانوا يجهونون قصر الحجاز ونجد فبنو سليم عما إلى المدينة ، وبنو هلال في جبل فزوان عند الطائف ، وربما كانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام » (١) . إن بنى هلال وبنى

سلم من عرب الشمال ، ولكن تحالف بنى هلال وبنى سليم مع القرامطة ثم اندحار القرامطة جعل بنى هلال وبنى سليم في مركز حرج لم ينقذهم منه إلا دعوتهم إلى مصر الفاطمية ، يقول ابن خلدون : « » ثم تحيز بنو سليم والكثير من ربيعة بن عامر إلى القرامطة عند ظهورهم ، وصاروا جندا لهم بالبحرين وعمان ولما تغلب شيعة ابن عبيد الله المهدي على مصر والشام فقلل أسياعهم من العرب من بنى هلال وسليم ، فأنازلهم بالصعيد وفي العدو الشرقية من بحر النيل ، فأقاموا هناك (٢) وهكنا جاء الفاطميون الشيعة بأنصار القرامطة الشيعة إلى مصر ، وسنشير — بعد — إلى خروج الهلالية من مصر إلى المغرب ، بل بقيت بطون منهم في مصر ، ذكر المقرئ في وقت لاحق للتغريب أن د بلاد الصعيد عدة قبائل من العرب ، ففي بلاد أسوان وما تحتها بنو هلال ، (٣) .

وأغلب الظن أن الموجات البشرية استمرت بعد ذلك ، ففي عهد صلاح الدين جاءت هجرة كان العدوان الصليبي قد قطع عليها الطريق إلى مصر . يقول المقرئ : « فلما فتح صلاح الدين . . . بلاد غزة ، وأعادها من أيدي الفرنج إلى المسلمين جاءت عملية وطائفة من 'جرم' إلى مصر ، وبقيت بقايا جرم في مكائهم ، (٤) ، وليس من مجال بحثنا هنا أن ننظر في حركات بشرية تالية ، فاشأنا بها في وقت كانت مصر قد تعربت تعريباً كاملاً .

غير أنا نود أن نشير هنا إلى أحداث جعلت العرب الوافدين يذوبون في السكان المصري ، فلم يكتفوا بمجموعة لغوية متميزة كما حدث مثلاً عندما هاجرت

(١) ابن خلدون : العبر ٢٧/٦

(٢) المرجع السابق ٢٨/٦

(٣) المقرئ : ٢٧-٢٨ .

(٤) المقرئ : ٥-٦

جماعات جرمانية من وسط أوروبا إلى شرقها — بل ساعدت عوامل مختلفة على أنصهارهم في بوتقة واحدة مع السكان الأقدمين . لقد احتفظت القبائل الوافدة فترة من الزمن بالبداوة ، إذ نزلوا في مناطق خاصة بهم ، عاشوا في نجر الغزاة المحاربين ذوى الرواتب . كان عمر بن الخطاب قد حرم عليهم امتلاك الأرض ، فأقاموا في ممسكرات خاصة بهم أبقت لهم شخصيتهم متميزة وصقلت لغتهم على نحو قصى على كثير من العروق المحلية غير الشائنة ، وظلت لهم روايتهم باعتبارهم طبقة عسكرية فائحة حتى انتهى العصر الأموى .

ودفعت عدة عوامل السكان الأصليين إلى تعلم العربية ، فهي لغة الدين ولغة القرآن ، وهى منذ حوالى ٨٧ هـ اللغة الرسمية للدولة ، وهى لغة الطبقة العربية الحاكمة ، وكل هذا جعل الطامحين في مكانة اجتماعية رفيعة أو في التعامل والتكامل في الدولة الإسلامية يحاولون تعلم العربية . وفي القرن الثانى الهجرى زاد الاختلاط بين العرب والسكان الأصليين في مصر ، إذ سمح للعرب الوافدين بامتلاك الأرض ، وفي هذا يقول المقرئى : « ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة » . وهذا نسجل انجساح كثير من العرب — في وقت كانت مكانة العربية قد استقرت فيه — إلى الاستقرار في الريف ، وهذا ما أتاح مزيدا من التعمير ونشر الدين خارج مراكز النقل في المدن والنجمعات العسكرية .

ولا نسكاد نمضى طويلا حتى نصل في خلافة المعتصم العباسى (٢١٨—٢٢٧هـ) إلى نقطة تحول هامة في وضع العرب في مصر ، لقد انتقل الحكم إلى العباسيين اعتماداً على العناصر غير البدوية ، فتكون الجيش الإسلامى من غير البدو ، وهنا فقد العرب وظائفهم كطبقة عسكرية في مصر ، ولم تعد لهم أهمية بالنسبة للدولة لحرم البدو من رواتب الدولة التى كانت تؤدى اليهم باعتبارهم جنوداً^(١) . وفي هذا

(١) انظر مقدمة عبد المجيد عابدين لتحقيق كتاب المقرئى ص ١٠٤

يقول المقرئى : « فانقرضت دولة العرب من مصر ، وصار جندھا المعجم والموالى من عهد المعتصم » . وأدى هذا الموقف الجديد إلى توطين كثير من البدو المسرحين في الريف فأسهموا في تعريب الريف ، ورفض بعضهم احترام الزراعة وفضل الهجرة جنوبا إلى منطقة تشاد — وهو ما نشير إليه فيما بعد . وهاجر بعض هؤلاء الوافدين إلى الجنوب الشرقى لصعيد مصر . وكانت قبائل ربيعة قد نزلت أرض مصر في العصر الطولونى ، ثم هجرتهم الدولة جنوبا لوقف إغارات البجة الذين كانوا يتحكمون في المنطقة ويرهبون الحجاج ، وما أن قتلوا حاكم فقط — على البحر الأحمر — ومن معه من الحجاج حتى دفعت الدولة قبائل ربيعة لسكبج جماع البجة . فقاوموهم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب بالعلاقي ، فكثرت أموالهم واتسعوا في أحوالهم . وعن هذا الزواج بين البجة وربيعه تجمعت أسرة « أولاد الكنز » نسبة إلى جدهم صاحب النفوذ في العصر الفاطمى الملقب بكنز الدولة ، وظل الكنوز أصحاب نفوذ في جنوب مصر حتى قضى العادل أبو بكر بن أيوب عليهم سنة ٥٧٠هـ ،^(١) وبذلك أسهم تهجير ربيعة واختلاطها بالبجة في تعريب هذا القطاع البشرى بين الوادى والبحر الأحمر .

وقد ظلت منطقة النوبة بعيدة عن موجات تعريب مصر ، ولهذا تفسير تاريخى واضح المعالم ، فقد عرف النوبيون في فجر الفتح الإسلامى مملكة نوبية متحدة عاصمتها دنقلة (تنطق : دنجلة بجمع مصرية) ، ومملكة علوه وعاصمتها سوبه وظل النوبيون وثنيتين حتى القرن السادس الميلادى عندما انتشرت المسيحية بين النوبة والبجة . ولم تتجاوز الجيوش العربية الفاتحة حدود مملكة النوبة ، بل وقفت دونها وارتبطت النوبة مع مسلمى الشمال بمعاهدة عقدت سنة ٦٤١ هـ عرفت باسم البقطة (عن الكلمة اللاتينية Pactum وتعنى التعاهد أو الحلف) . وقد نصت هذه

(١) المقرئى : ٤٤ .

الاتفاقية على عدم إقام العرب في النوبة مقابل التزامات أخرى يلتزم بها النوبيون^(١)، والملاحظ هنا أن البقظ منع إقامة العرب في المنطقة دون تعريضها. واستمرت ملكة النوبة في عزلتها عن العربية حتى أن ابن سليم الاسواني الذي زار النوبة سنة ٥٢٦٥ هـ لاحظ أن العرب الذين اختلطوا بالنوبة، قد تعلموا النوبية وكادوا ينسجون العربية. واستمرت الحال في النوبة على هذا النحو إلى أن تحوالت إلى منطقة تابعة لمصر في القرن الثالث عشر الميلادي على أثر خلاف على عرش ملكة النوبة أدى بنفوذ القاهرة إلى تعيين حاكم من السكندرية المتعربين، ويبدو أن تحول النوبة إلى الاسلام كان بطيئاً، ففي القرن الرابع عشر ذكر ابن بطوطة^(٢) أن حاكمهم مسلم وأنهم مسيحيون.

أما تعريب المناطق الواقعة بين وادي النيل والبحر الاحمر فقد زاد، إذ اهتم الفاطميون بتحويل التجارة إلى البحر الاحمر كي ينافسوا العباسيين، فازدهرت المحطات التجارية على الساحل السوداني للبحر الاحمر، وازدهر كذلك نجر عيذاب. وبعد تفحص الممالك من الاحتلال الصليبي في الشام عادت التجارة إلى طريقها القديم. كانت الحركة التجارية قد دفعت بكثير من العرب إلى منطقة ساحل البحر الاحمر فأسهموا في تعريبها، وعندما كسدت الحركة التجارية عبر البحر الاحمر أخذوا يسلبون العابرين، وكان أن انقضوا على ركب يمني قادم إلى مصر يحمل هدايا لسلطان

(١) انظر كتاب مصطفى مسمد، الاسلام والنوبة، وكذلك: المقرئ في المواعظ والاعتبار (بولاقي) ٢٠٠/١، والبلاذري في فتوح البلدان (نشرة دي خويه، ليدن ١٨٦٦) ص ٣٩٦، والمسهودي في التنبية والاشراف (نشرة دي خويه ليدن ١٨٩٧) ص ٢٢٩ - ٢٣٠. والنص عند المقرئ: «على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وتدخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه».

(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٦٨

الممالك ، فتحرك جيش السلطان وهزم هؤلاء البدو في معركة أسوان سنة ٧٥٤هـ ،
فهرب بعضهم مهاجرا إلى السودان وهنا حدثت خلخلة بشرية في هذه المنطقة جعلت
السلطان يعمل على نقل الهوارة — وسيأتي ذكرهم — إلى المنطقة .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي كان عدد كبير من القبائل
العربية قد تجاوز حدود النوبة جنوبا ، يقول ابن خلدون : « وبالصميد الأعلى
من أسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعددة وأجيا متفرقة
كلهم من جهة — إحدى بطون قضاة — ملأوا تلك القفار وغلبوا النوبة
على مرأطهم وملكهم ، وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في أطرافها (١) » .
والواقع أن هجرة بطون كثيرة من جهة إلى السودان كانت قد تمت في عصر ابن
خلدون ، وما تزال آثار هذه الهجرات واضحة في السودان العربي ، فالتجمعات
البشرية المسماة باسم : رفاعة والسكبابيش ودار حامد والبقارة في كردفان ودارفور
والمناطق الغربية تنسب نفسها إلى جهة وينبغي أن نوضح هنا أن هذه التجمعات
البشرية إنما نتجت عن الاختلاط بين العرب المهاجرين والسكان الأقدم . وهذه
أيضا حال التجمع البشري العربي الثاني في السودان ، ويطلق عليهم اسم « الجعليين » ،
وهؤلاء الجعليون منتشرون في المنطقة الممتدة من الحبشة إلى تشاد وهكذا كان
تعريب السودان مرتبطا بالهجرات الوافدة عبر مصر ، ولم يتضح بعد دور الهجرات
عبر مضيق باب المندب والتي نفترض أنها أمدت السودان كذلك بدماء عربية ولسان
عربي ، ولكننا لا نستطيع القول بالرأى في هذا لنقص المصادر .

٢ — المغرب وتعريب البربر :

كانت هجرة بني هلال وبني سليم هي العامل الحاسم في تعريب المغرب في القرن
الحادي عشر الميلادي ، فالفتح الاسلامي كان ذا أثر في تعريب منطقة الساحل ،

(١) ابن خلدون ١٠/٦ .

وفي هذا يقول ابن خلدون : « الدرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن ، وإنما انتقل إليه في أواسط المائة الخامسة أفريق من بني هلال وسليم اختلطوا في الدول هناك » (١) . وفي موضع آخر يقول ابن خلدون : « العرب لم يوطنوا بلاد المغرب ، ثم انهم دخلوا إليه في منتصف المائة الخامسة وأوطنوه ، وافترقوا بأحيائهم وحللهم في جهاته » (٢) . « والعبارتان تعملان قدرا من التعميم الذي لا يبرره القرائن التاريخية — التي نستقي بعضها من كتابات ابن خلدون نفسه — وعنصر التعميم هنا في ابن خلدون وجود تعريب في المغرب قبل الهجرة الهلالية .

وقد لاحظ المأخوذ الفرنسي وليام مارسيه وجود مجموعتين اثنتين من اللهجات العربية في المغرب (٣) . فالمدن الساحلية مثل القيروان وتونس وتلمسان وفاس تختلف في لهجاتها — وهي متشابهة متقاربة — عن لهجات البدو والمناطق الريفية ومنخفضات برقة وجنوب تونس والريف الجزائري وجنوب المغرب والسواحل الجنوبية . وبهذا تنقسم لهجات المغرب إلى مجموعتين متميزتين ، تمثل كل مجموعة منهما مرحلة بعينها من مرحلتى تعريب المغرب . فالمجموعة الأولى وريث اللغة المشتركة التي تكونت في القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة مع قيام المدن العربية في المغرب والمجموعة الثانية وريث لهجات بني هلال وبني سليم .

المجموعة الأولى — في المقام الأول — لهجات مدن ، ويدعم هذا قول ابن خلدون عن عرب الفتح في المغرب : « إن الملك الذي حصل لهم ينتمون من سكنة

(١) المرجع السابق ٨/٦ .

(٢) المرجع السابق ٢٧/٦ .

(٣) انظر البحث التالي :

W. Marçais, Comment l'Afrique du Nord s'est arabisée, dans Annales de l'Inst. d'Et. Orient. Facult. Lettres d'Alger (1938, t. IV) .

الضاحية ويعدل بهم إلى المدن والأمصار . وينبغي أن نلاحظ هنا أن هذه المجموعة من اللهجات تضم كذلك عددا من اللهجات التي أمثلتها الدراسات الميدانية الحديثة للمناطق الزراعية التالية: الساحل التونسي، المنطقة الساحلية شمال قسطنطينية، ومنطقة تزاره شمال قسطنطينية ، وكذلك مرتفعات جباله في شمال فاس . وكل هذه اللهجات تكون مجموعة واحدة تتفق في عدد من الخصائص التي تميزها عن اللهجات العربية الأخرى في المغرب . فالمجموعة الأولى أقدم من المجموعة الثانية، يتضح هذا من كثرة الالفاظ البربرية بها ، كما يتضح من أثر اللفظة البربرية في هذه اللهجات .

إن هذه اللهجات كانت في القرون الأولى جزراً لغوية عربية في منطقة تحيط بها لهجات بربرية مختلفة .

ومع هذا فقد تم في وقت مبكر تعريب قسم من البربر ، فلاشك أن التعامل بالعربية مع مراكز الحكم جعل بعض البربر المحيطين بتلك المراكز يقبلون على تعلم العربية ، وليس صحيحاً أن المناطق التي تعربت قبل الموجة الهلالية في القرن الحادى عشر الميلادى كانت تضم عرب الفتح وحدهم ، فالبربر الذين بادروا إلى الإسلام وانتظموا في جيوش الفتح الإسلامى الزاحف إلى الأندلس اختلطوا بالعرب وتزاوجوا معهم ، فانخذت كثرة من الأسر الإسلامية الجديدة أنساباً عربية ليدخلوا في الأرستقراطية الحاكمة . وبعد تأسيس مدينة فاس سنة ١٠١٣ هـ أصبحت هذه المدينة مركزاً للعرب والمغربين في المغرب ولمن اضطروا لهجر الأندلس أو تونس في الظروف السياسية المضطربة .

وفي نفس الوقت كانت العلاقات بين الأندلس والمغرب الأقصى تدعم مكانة العربية باعتبارها لغة التعامل المشتركة فضلاً عن كونها لغة القرآن الكريم ، وبذلك أسهمت هذه العلاقات في تعريب المنطقة . وقد لاحظ الباحثون تشابه ما عرفت عن اللهجات العربية في أسبانيا والاستخدام اللغوى في هذه المدن المغربية الأولى .

أما المجموعة الثانية من اللهجات العربية في المغرب فهي لهجات تتحدث بها

مجموعات بشرية تنسب إلى بني دلال وبني سليم . ومعروف أن هجرة بني هلال وبني سليم إلى المغرب (- تغريبية بني هلال) أحدثت أكبر تحول بشري عرفته المنطقة في العصور الوسطى . وينبغي أن نقف قليلا لتتابع ظروف تحركاتهم وخط سيرهم ، فقد دخل الهلاليون مصر الفاطمية بدعوة من حكامها وعاشوا في الصعيد حياة بدوية ، الغزو أحد مقوماتها ، فعم ضررهم ، وأحرق البلاد والدولة شررهم ، ومالبث الفاطميون أن فكروا في دفعهم إلى المغرب ليفقوا في وجه البربر من صنهاجة الذين ثاروا على التبعية للفاطميين . وفي هذا يقول ابن خلدون : « دفعهم إلى حرب صنهاجة ، ليكونوا عند نصر الشيعة والسبب في الدفاع عن الدولة ، فإن صدقت الخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة كانوا أولياء للدعوة وعمالا بتلك القاصية ، وارتفع عدوانهم عن ساحة الخلافة ، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها » (١) وترغيباً لبني هلال في دخول المغرب « وصل عامتهم بعير ودينار لكل منهم ، وأباح لهم إجازة النيل ، وقال لهم أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقروا » (٢) . وهكذا تحركت بطون كثيرة من بني هلال متجهين إلى المغرب العربي ، وفي هذا يقول ابن خلدون : « سارت . . . جميع بطون هلال إلى أفريقية كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء . إلا أتوا عليه حق وصلوا أفريقية سنة ثلاث وأربعين (٤٤٣ هـ) » (٣) . وهكذا بدأت « تغريبية بني هلال » وبدأت بذلك سلسلة طويلة من الصدام والصراع بين الغازين وأبناء المنطقة . وقد اهتم ابن خلدون بهذه الموجة ، واستخدم مصطلح « عرب الفتح » للدلالة على الموجة العربية الأولى التي دخلت المغرب ، فهو يقول : « ولما تزاحم الفريقان اتخذ بقية عرب الفتح وتحيزوا للهلالية للعصية القديمة ، وخانته زمانه وصنهاجة وكانت الهزيمة

(١) ابن خلدون ٢/٣٠ .

(٢) المرجع السابق ٢٠/٣١-٣٠ .

(٣) المرجع السابق ٢١/٦ .

على المزمع (١)، وهكذا دخل بنو هلال وبنو سليم المغرب .

وبعد فترة سادها الصدام البدوي المعتاد والغزوات المتجددة ، لاحظ الهلالية والبربر أن نمط حياتهم ومثلهم متشابهة متماثلة ، وفي هذا يقول ابن خلدون : البربر « أشبه الخلق بالعرب » ، فالبداءة ليست ظاهرة عربية ينفرد بها العرب ، ومازلنا نعرف إلى اليوم بدوا من البربر في المغرب ، بل ويعتبر الطوارج (مجرم مصرية) أكثر البربر تديبا ، وهم لا يمتنون بصلة مباشرة إلى العرب ، فهم لا يستخدمون في التعامل اليومي المحلى إلا البربرية .

كان البربر والعرب الغازون يمثلون نمطا من أنماط الحياة يقوم على الرعي ، ويدور داخل القبيلة ، ويحتفل بالنم والانساب . وأدى هذا التشابه إلى الاندماج بين العرب والبربر . وكان من الممكن أن يؤدي هذا الاندماج إلى ذوبان العرب في البربر لولا أن اللقاء كان في إطار الإسلام والحضارة العربية الإسلامية ، وبذا كان هذا الاندماج مشجعا على تعريب أكثر البربر في المغرب .

ونستطيع تتبع مراحل التعريب في ضوء ما كتبه المؤرخ ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي ، فهو يصور لنا ثلاثة قرون من الانتقال المسكاني والاندماج البشري والتحول اللغوي في المغرب .

لقد صور ابن خلدون انتشار العرب في المغرب قبل تغريبة بني هلال قائلا : « إن آخر مواطن العرب كانت برقة ، وكان فيها بنو قرة بن هلال بن عامر . . . ولما أجاز بنو هلال وسليم إلى المغرب خالطوهم في تلك المواطن ، ثم ارتحلوا معهم إلى المغرب وبقي في مواطنهم لهذا العهد (- القرن الرابع عشر الميلادي)

(١) المرجع السابق ٣٢/٦ .

حياء بنى جعفر ،^(١) . ومضت تحركات الهلالية وزاد اندماجهم لامع عرب الفتح لحسب ، بل مع البربر كذلك . وبهنا هنا أن كثيراً من القبائل البربرية قد تعربت بين القرنين الحادى عشر عندما دخل الهلالية والرابع عشر عندما دون ابن خلدون كتابة : العبر . لقد تعربت قبائل بربرية كثيرة ، فقبيلة كتامة من قبائل البربر^(٢) ولكنها كانت قد تعربت بائدماج أهلها مع بنى سليم ، وأخذ التجمع البشرى الناتج ينتسب إلى بنى سليم ، وفى هذا يقول ابن خلدون : وهم ينتفون من نسب كتامة ويفرون منه لما وقع من أربعائة سنة من التكثير على كتامة بانتحال الراضة وعداوة الدول بمدهم ، فينفادون الانتساب إليهم ، وربما انتسبوا فى سليم من قبائل مضر وليس ذلك بصحيح ،^(٣) .

وذكر ابن خلدون بطونا أخرى ، كانت بربرية ثم اختلطت وتعربت فنسبت نفسها إلى العرب^(٤) . ومن أهم الأمثلة الدالة على تعريب قبائل من البربر بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر تعريبا كاملا مادونه ابن خلدون عن البوارة^(٥) ، فهذه القبيلة الكبرى كانت من بطون البرانس ، يتفق فى هذا نسابة البربر والعرب ، وكانت مواطنهم فى القرن العاشر الميلادى — كما نقل ابن خلدون عن البكرى — بنواحي طرابلس وما يليها من برقة^(٦) ، ولكنهم اختلطوا أول الأمر ببعض الهذليين الذين جاءوا من مواطنهم بالحجاز مع العرب الهلاليين عند دخولهم إلى المغرب ،

(١) المرجع السابق ٦/٨ - ٩ .

(٢) جبهة أنساب العرب لابن حزم ص ٥١ .

(٣) ابن خلدون ٦/٣٠٤ .

(٤) المرجع السابق ٦/٣٨٠ .

(٥) جبهة أنساب العرب لابن حزم ص ٥٠ .

(٦) ابن خلدون ٦/٣٨٤ .

واختلطوا بهوارة وحطوا في عدادهم^(١). ويبدو أن اشتغالهم بالتجارة مع بلاد السودان عبر الصحراء ومع الاسكندرية عبر الساحل - جعلهم ينتشرون في منطقة واسعة ويختلطون ببني سليم. وكانت بطون من بني سليم تتمر المنطقة الممتدة من الاسكندرية إلى برقة، ويمضي الوقت اندمج الهوارة في بني سليم فأصبحت منازلهم جميعا بين برقة والاسكندرية، وما نكاد نصل إلى القرن الرابع عشر الميلادي حتى نجد الهوارة صاروا في عداد الناجمة - عرب بني سليم - في اللغة والوى وسكنى الحيام وركوب الخيل والابل وممارسة الحروب وابلان الرحلتين في الشتاء والصيف في تولهم، قد نسوا رطانة البربر واستبدلوها بفصاحة العرب، فلا يكاد يفرق بينهم^(٢)، وهكذا تحرك الهوارة شيئا فشيئا مقربين من مصر وقد تمربوا باندماجهم مع بطون من بني سليم، ويبدو أن عداد من الهوارة تحرك جنوبا إلى فزان فكانت لهم بها محطة تجارية عظيمة، أو كما يقول ابن خلدون: «كان لهم بها ملك ودولة»^(٣).

ولم تكن هوارة القبيلة البربرية الوحيدة التي اختلطت مع عرب بني سليم وبني هلال فتمزجت، فابن خلدون يذكر أن المنطقة الممتدة غرب الدلتا كانت بها قبائل رحالة ينتقلون في نواحي البحيرة هنا، ويمعمرون أرضها بالسكنى والفلح ويخرجون في المشاق إلى نواحي العقبة وبرقة، ويذكر ابن خلدون من هذه القبائل بعض بطون لواته، ثم يقول: «ويندرج فيهم أخلاط من العرب والبربر لا يحصون كثرة»^(٤). ولنفق قليلا عن نسب قبيلة لواته، فهي

(١) المرجع السابق ٢٨٩/٦.

(٢) المرجع السابق ٢٨٨/٦.

(٣) المرجع السابق ١٩١/٦ - ١٩٢.

(٤) المرجع السابق ١٠/٦.

قبيلة من البربر تعربت شيئا فشيئا ، وما نكاد نصل إلى عصر المقریزی حتى نجد
يذكرهم بين القبائل العربية في مصر ، ويقول : « وفي معظم بلاد الينسبا لواته ،
ومنهم طوائف بالجيزة والمنوفية » (١) . وهكذا نلاحظ تحرك البربر المتعربين من
المغرب الأوسط إلى البحيرة ثم إلى المنوفية والجيزة .

ولكن انتشار البربر المتعربين لم يقتصر على الوجه البحري ، فقد ذكر
المقریزی هواره ، وحار في أصلها بين العروبة والبربرية (٢) . ثم حدد منازلهم في
عصره قائلا : « ثم قدم منهم طوائف إلى أرض مصر ، ونزلوا بلاد البحيرة ..
وهواره التي ببلاد الصعيد أنزلهم الظاهر برقوق بعد وقعة بدر بن سلام هنا سنة
اثنين وثمانين وسبعماية تخميناً » (٣) ، وهكذا دخلت مصر عدة قبائل عربية اللغة
بربرية الأصل ، فأسهمت في تعريب مصر بعد أن عربهم بنو سليم وبنو هلال في
تعريبهم بعد خروجهم من مصر .

ولنتظر بعد هذا فيما كتبه ابن خلدون عن قبائل البربر المقيمين في المغرب في
عصره ، فنلاحظ مع الباحثين أن عددا من القبائل البربرية التي ذكرها ابن خلدون
في المغرب الأقصى والأوسط قد تعربت ، فقبيلة زناتة البربرية (٤) كانت في عصر
ابن خلدون قبيلة بربرية كبيرة ، يقول : « وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون
بها ، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر ، ومواطنهم في سائر مواطن البربر
بافريقية والمغرب » (٥) ، ولكن أين هم اليوم ؟ لقد ظهرت في المنطقة تجمعات

(١) البيان والإعراب للمقریزی ٢٧-٢٨ .

(٢) المرجع السابق ٥٨ .

(٣) المرجع السابق ٥٨ .

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٩٥ .

(٥) ابن خلدون ٣/٧ وكذلك ١٣/٧-١٤ .

بشرية جديدة تنسب نفسها جميعا إلى بنى هلال وبنى سليم وتتوسل بالعربية ، ولو سلمنا بأنهم جميعا من أحفاد الهلالية والسليمية لتصورنا المنطقة كانت خالية قبل التغريبة . والادنى إلى الصواب أن نقول بأن هؤلاء البربر -- ومنهم القبيلة العظيمة زناتة قد تزوجوا مع العرب ، فتمربوا كما تمربت هوارة ولواته قبل ذلك ، وبذلك تغيرت الصورة اللغوية للمغرب ، فأصبحت ربوعه -- بغض النظر عن الجزر اللغوية البربرية -- عربية اللسان .

وختاماً لابد أن نشير إلى أن المصادر التي ترسم لنا مراحل التعريب بعد القرن الخامس عشر لم تر الثور بعد ، وربما تكون المخطوطات العربية المغربية حافلة بمعلومات في هذا . غير أننا نود أن نوضح أن أكثر التنظيمات العشائرية هناك إنما ترجع على الأرجح إلى فترة الحكم التركي ، وهي لا تنسب نفسها إلى زناتة أو لواته ، بل هي أولاد سيدي ... واليوم لا نجد التوزيع القديم ، ولا نجد اللهجات البربرية الباقية إلا في مناطق مرتفعة . وهنا يحضرنا قول ابن خلدون : « إن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط ، أى على الأرض السهلة ، فالواقع أن موجة التعريب وقفت عند جبال البربر العالية . »

٣ - العربية جنوب دول المغرب :

لا تقصر العربية على الدول التي توصف اليوم بأنها من الدول العربية ، فانتشار اللغة العربية في موريتانيا لا يكاد يقل عنه في المملكة المغربية . وفي حديثنا عن تعريب المغرب كنا نتناول كذلك منطقة موريتانيا التي مرت بنفس الظروف والموجات البشرية تقريبا ، وعرفت الاختلاط بين العرب والبربر وغيرهم مما اتاح لها نوعا من التعريب . ولا ينبغي هذا أن اللهجات البربرية هي اللغات الأصلية لنصف سكان موريتانيا -- فيما يقال ، وأن نصف هؤلاء يستطيع التعامل بالعربية والبربرية ، أى أن ثلاثة أرباع موريتانيا يستخدمون العربية لغة أساسية أو لغة تعامل أو لغة دين ، رغم أن اللغة الفرنسية هي لغة الدولة الرسمية . ويواجهنا

موقف مشابه إذا اتجهنا في المنطقة الممتدة من السنغال ومالي إلى تشاد ، فالعربية مستخدمة هناك في مناطق كثيرة تارة لغة أم وأخرى لغة تداول . وتختلف كثافة هذه المناطق العربية من منطقة لأخرى ، فالبحث لا يزال قاصراً عن استيعاب القارة الأفريقية لغوياً . غير أننا نكتفي هنا بملاحظة بارت Barth وناختيجال (١) Nachtigal أن العربية منتشرة من شمال السنغال ومنطقة النيجر إلى تمبكتو ، ثم من بورنوال ، دارفور ، والمنطقة الوحيدة التي ينقطع فيها استخدام العربية هي المنطقة من بورنو إلى تمبكتو .

وأكبر تجمع نشري يستخدم العربية كلغة أم في هذه المنطقة هم ذوو حسان ، وتسمى لهمجتهم العربية باسم « الحسانية » وهؤلاء الحسانية أو بنو حسان أو ذوو حسان يتحدثون العربية في حياتهم الخاصة . وقد دون ابن خلدون أول إشارة وصلت إلينا عن هؤلاء العرب الذين يطلق عليهم « عرب الممقل » - وقد عد ليو الأفريقي ذوي حسان أحد فروع ثلاثة كان عرب الممقل ينقسمون إليها (٢)

(١) اعتمدنا في هذا على بحث :

G. Kampffmeyer, Materialien zum Studium der arabischen Beduinendialekte Innerafrikas, in : MSOS II 1899 II pp.143—221.

دخلت موريتانيا - عضوا في جامعة الدول العربية .

(٢) في القرن السادس عشر الميلادي ألف الحسن الوزان ، المعروف باسم Leo Afrikantis ليو الأفريقي كتاباً ضخماً في « وصف إفريقية » باللغة العربية لم يصل إلينا إلا في ترجمته الإيطالية وفي الفرنسية واللاتينية والانجليزية والهولندية المنقولة عن الترجمة الإيطالية . وأغلب الظن أن هذا الكتاب ثمرة معايشة وملاحظة استمرت سنين طويلة ، والا لما استطاع مؤلفه أن يدون ملاحظات مفصلة بعد عشر سنوات من مفارقه القارة الإفريقية دون أن يقرأ طول هذه الحقبة كتاباً =

— يقول ابن خلدون : « كان عرب الممقل منذ دخول عرب الهلاليين إلى صحراء المغرب الأقصى أحلافا وشيما لزناته (المبر ١٧٥/٧) » . فهؤلاء العرب ربما جاؤوا هذه المنطقة مع الهلالية ، وربما جاؤوا المغرب قبل الهلالية ، أو قبيل الهلالية ، غير أننا لا نستطيع لقلة المصادر الفصل في هذا ، ولكن عبارة ابن خلدون تشير إلى كون عرب الممقل هناك عند دخول الهلالية صحراء المغرب الأقصى .

لقد ألف بنو حسان بالعربية تراثا ما تزال صورته غير واضحة المعالم ، ولعل المكتبات الخاصة والعامة تسيطر اللثام قريبا عن هذا التراث ، غير أننا نود هنا الإشارة إلى كتاب ألفه محمد بن أحمد يور العاقل الديباني بعنوان : « أخبار الأخبار بأخبار الآبار » (١) .

يقول المؤلف في كتابه بالأصل العربي لبني حسان ، يقول : « لا خلاف بين علمائنا وأهل النسب من قدمائنا كسيد محمد والد صاحب أنساب أهل الصحراء وشيخه محمد السيد إلى أن بنى حسان أصلهم عرب » (٢) . وذكر المؤلف بعد ذلك شعرا في مدح بني حسان بأنهم ورثوا الإقدام والجلود والنجدة من قريش ، وأنهم

عرباً واحداً في موضوع كتابه . وعلى الرغم من عدم وضوح أسماء الأعلام والقبائل الأفريقية عند ليو الأفريقي فنستطيع أن نجد في وصف أفريقية ما لا يجده في المصادر العربية المتاحة ، فهو يذكر بطون ممقل - وهم هؤلاء العرب المقيمون في مالي - ويقسمهم إلى ثلاث تجمعات منهم حسان ، ويقسم عرب أفريقيا عموماً إلى قبائل شاهين وقبائل هلال وقبائل ممقل .

(١) نشر ريفيه باسيه R. Basset هذا الكتاب العربي ضمن كتابه :

Mission au Senegal, Paris (1909)

(٢) المصدر السابق ٥٦١ .

(٣) المصدر السابق ٥٦١ .

من نسل جعفر بن أبي طالب ، ثم قال بعد ذلك : « وقد شاع هذا النسب على السنة العامة والخاصة ولهج به الصغير والكبير » . ويتضح رأى المؤلف في هذا من العبارة التالية : « واعلم أن كون بنى حسان من قريش غير متفق عليه ... وأما كونهم من العرب فلا خلاف فيه ولا شك ، وبعضهم ينسبهم لهوازن وبعضهم ينسبهم إلى قريش » . ويدعم محمد بن أحمد يور القول بالأصل العربي لبني حسان قائلا : « ويعضد ذلك أنهم لم يتكلمون قط إلا بالعربية » . فهم ليسوا من البربر المتعربين بل من العرب الوافدين الذين جاؤوا بلغتهم إلى وطنهم الجديد ، يقول المؤلف : « بل سمعنا من غير واحد أن لغة أولهم كانت عربية فحة غير مشوبة بشئ من كلام البربر إلا أنها غير معربة » .

وقد حدد المؤلف دخول الحسانية هذه المنطقة بالعبارة التالية : « دخلوا هذه البلاد وتغلبوا عليها وعلى ما حولها من بلاد السوادين عام ١٠٤٠ م » .

ورغم أن موضوع هذا الكتاب التعريف بالآبار وشرح أسمائهم البربرية وأهمية الأماكن التي بها الآبار فإنه يضم كثيرا من الأخبار ذات الأهمية الاثنولوجية واللغوية ، فعندما نتحدث عن أحد الأماكن قال عنه أنه « مستقر بنى ديمان من قديم الزمان إلى الآن وكان فيه من العرب أولاد بوزكر ثم جلام أمير الرارزة المختار بن عمر » وفي حديثه عن الأماكن المختلفة يذكر العلماء الذين عاشوا فيها أو دفنوا بها ، فيقول عن سيد محمد بن سعيد اليدالي (ت ١١٦٦ هـ) إنه مؤلف « الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز ، وحلة السيري في الساب خير الوري » . وبالكتاب فقرات طريفة توضح لنا أن التلميم والتأليف في تلك البقاع لم يكن قاصرا على الرجال دون النساء ، فالمؤلف يذكر في ترجمة أحد العلماء « أخذ العلم الظاهر عن أخته خديجة بنت محمد العاقل وكانت دولته حيثئذ العلامة المختار بن بون صاحب طرة ألفة ابن مالك وغيرها من التصاريف والامير الصالح الإمام عبد القادر المغربي ، قرأوا ثلاثهم عليها » ويذكر المؤلف بعد ذلك من مؤلفات

خديجة : « شرح مليح على عقيدة محمد بن يوسف السنوسي المسماة بام اليراهيم يدل على نبأها في المعقول » .

ويبدو أن مؤلف هذا الكتاب كان يعرف بجانب العربية البربرية وإحدى لغات أفريقيا السوداء ، وهو يشرح أسماء الأماكن في ضوء معارفه هذه : « أنو كشيوط ، أصله أنو كشيط ، أما كلمة أنو فعنها بير أو عين ماء ، وهو يشرح الكلمة الثانية قائلا : « واكشيط بالبربرية من لا أذان له ومقطوعها وهو البير الذي بنت الفرافيسة عنده الآن » (١) .

وهكذا يتبع لنا هذا الكتاب معرفة بالحياة اللغوية هناك . ولعل العبارة التالية توضح لنا مدى الصعوبة التي كانت تواجه هؤلاء المؤلفين في تلك الأبحاث . وتبين صلتهم بالثقافة العربية ، فهو يقول عن محمد الولي بن المختار . . . ابن يدال (ت ١١٦٦) : « وكان إذا أوى الناس إلى مرافدهم بالبلل أوقد شمعتهم ويبيت يواف إلى طلوع الفجر وكان يقول على وجه الإخبار لا على وجه الافتخار : لو لم يكن بدويا ، فإنه كان حضريا لألف قدر ما ألف السيوطي » .

وهكذا عرفت هذه المنطقة اللغة العربية من عدة قرون ، وعرفت مؤلفين يطالعون مؤلفات ابن مالك ويعلقون عليها ويعرفون السيوطي ويؤلفون العربية .

وما تزال انتشار لهجتها في غرب أفريقيا بحاجة إلى بحث لغوي جغرافي دقيق ، ولدينا بحث عن لهجة الحسانية في موريتانيا ، ومعجم فرنسي عربي وعربي فرنسي أعده في دراسته عن السنغال المستشرق الفرنسي باسيه .

هذا وتوجد في المنطقة الممتدة من تمبوكتو إلى كانم ووادي إلى غرب السودان تجمعات بشرية كثيرة تتحدث العربية كافة أم أو تستخدم العربية كلغة تداول ،

(١) المصدر السابق ٥٧٩ .

وليست لدينا دراسات تفصيلية عن الحياة القروية لهذه الجماعات الريفية ، غير أننا نستطيع اعتمادا على ما جاء في كتب الرحالة العرب في العصور الوسطى وبعض الرحالة الأوروبيين في العصر الحديث أن نعرف بعض هذه الجماعات العربية في قلب أفريقيا ، وقرسم المصادر الصورة التالية للعربية هناك :

١ - منطقة تشاد بها حوالي مليون عربي ، وهؤلاء العرب مرتبطون بعرب الشرق الأفريقي ، فهم ينتمون إلى بطون جينية ، وهم بذلك امتداد لبطون جينية في السودان ، وأكثرهم يعيش إلى الآن حياة بدوية قبلية . وأقدم إشارة إليهم نجدها في كتاب المسالك والممالك للبكري (ت ٤٨٧ - ١٠٩٤) . ويزعمون أن هنالك قوماً من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم بالمباسبين وهم على ذى العرب وأحوالها (١) . وهذه العبارة عرفها الباحث كامفماير ولم يستطع تفسيرها وإن سلم عن حسن صادق بإمكان كونها تعبيراً عن حقيقة تاريخية ، والواقع أن تفسير هذه العبارة مرتبط بتاريخ القبائل العربية في مصر وصدام هذه القبائل مع المباسبين الذين حرموا هؤلاء البدو من مكائهم كطبيعة عسكرية لها رواتبها الدائمة . لقد اصطدم هؤلاء مع السلطة العباسية فكان عليهم إما التحول إلى احترام الزراعة وإما الرحيل ، فتمركزت بطون منهم إلى الجنوب . وها نحن نجدهم في القرن الحادي عشر ما يزالون محتفظين في ذاكرتهم بولائهم للبيت الأموي وبلغتهم وبنمط حياتهم . ويبدو أن عرب جذام الذين دخلوا مصر مع الفتح الإسلامي كانوا من هؤلاء العرب ، فلدينا في صبيح الأعشى (١١٧/٨) وثيقة يشكو فيها حاكم برنو

(١) انظر : أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، نشره :

De Slane, Description de l'Afrique septentrionale, Alger 1857.
وأعاد طبعه بالتصوير فاسم الرحب ، بغداد ١٩٦٨ .

من غزوات « أعراب جذام وغيرهم » . وليست هذه الموجة هي المكون البشري العربي الوحيد لمنطقة تشاد ، فكثير من القبائل العربية هناك تنسب نفسها إلى جبهة وقد هاجرت جبهة — وهي قبيلة جنوبية — إلى مصر في العصر الفاطمي . ونحن لا نعلم علم اليقين الطريق الذي اتخذته هؤلاء من الجنوب العربي إلى تشاد ، ربما كان طريقهم عبر سيناء ومصر أو عبر مضيق باب المندب . ولكن الذي يؤكد الرحالة بارت والباحث كامبفماير أنهم لم يصلوا منطقتهم عبر المغرب الأقصى وموريتانيا ، فهناك منطقة خالية من الجماعات العربية تقع بين بورنو وتمبكتو ، وبذلك ينتمى عرب منطقة تشاد إلى عرب المشرق الأفريقي ، فهم مرتبطون مع قبائل السودان لا مع قبائل المغرب .

وقد ذكر الرحالة بارت أسماء عدد من البطون العربية اللغة ، وبعضها ينسب إلى الهلالية . وهم منتشرون في دارفور ووادي وبورنو . ويبدو أنهم في رأي كامبفماير — قد جاءوا هذه المنطقة من تونس ، وفي هذا نظر ، فالموجات الهلالية الباقية في صعيد مصر والمائدة إلى مصر ، أو التي كانت في منطقة فزان يمكن أن تكون مصادر خرجت عنها هذه المجموعة إلى تشاد . هذا وتعدد أسماء القبائل عند الرحالة الذين جاؤوا هذه المنطقة ، فهم يتحدثون عن بني حسن الذين يتحدثون العربية فقط وعن بني وائل الذين قال عنهم الرحالة إنهم لا يتحدثون العربية ولهم لغة خاصة بهم ، وعن أولاد راشد ، والحاميد الذين يتحدثون العربية ولونهم يقل سمرة عن جيرانهم من غير العرب .

ولعل من المفيد أن نشير هنا أن عرب واداي ينسبون أنفسهم إلى عرب اليمن ، وتدل القرائن على صحة ذلك . وتؤكد عرب واداي قرابتهم لمعقل ، ومعقل من أصل جنوبي . ولا أدل على جنوبية ذوى حسان وأحد فروع معقل السكري ، من أنهم يصفون أنفسهم باستخدام كلمة « ذو » التي شاعت في هذا السياق بين عرب اليمن ، وذلك : مثل : ذو نواس . وهناك دليل آخر على كونهم

من أصل جنوى وهو أنهم يستخدمون الإبل المهرية ، ولم تسكن هناك إبل قبيل دخول العرب أفريقيا ، فالرومان لم يذكروا الإبل في شمال أفريقيا . وارتباط الإبل بهذه التسمية ونسبتها إلى المهرة دليل على ارتباطها بمنطقة المهرة على الساحل الجنوى لجزيرة العرب .

وقبل أن نترك هذه المنطقة لابد أن نشير أن هناك عدة لهجات عربية قد تكونت في وسط أفريقيا ^(١) ، وهذه اللهجات تنضوى بين ما يطلق عليه عند الباحثين اسم : العربية الهجين Pidgin — Arabic ، وأهم هذه اللهجات الهجين توجد في تشاد وجنوب السودان وأوغندا ^(٢) ، وكل هذه اللهجات متأثرة باللهجات الأفريقية تأثراً بعيداً حتى أنه من الصعب على من لم يتعلمها من أبناء اللهجات العربية الأخرى أن يفهمها ، ومن ثم يطلق عليها اللهجات الهجين .

٤ — العربية لغة الدين والثقافة الإسلامية

اللغة العربية هي لغة الدين الإسلامى والثقافة العربية الإسلامية في مناطق أخرى من أفريقيا لا تسودها اللغة العربية . فقد ارتبط الإسلام بحفظ قدر من القرآن الكريم هو الحد الأدنى للضرورة للصلاة ، وحفظ هذه الآيات مرتبط أساساً بقراءة الحظ العربى .

وفوق هذا فعلى رجال الدين وأصحاب الثقافة الدينية قراءة كتب في الفقه الإسلامى بالعربية ومن أراد منهم التعمق في فهم هذه الكتب فعليه دراسة شئ.

(١) انظر حول الصيغ المبهجة من العربية :

Bernd Heine, Afrikanische Verkehrssprachen, Köln (1968) s. 121 ff.

(٢) أنظر مقال المؤلف : « اللغة العربية بين اللغات الدولية المعاصرة » ، مجلة كلية الآداب والتربية بجامعة الكويت (١٩٧٢) العدد الأول ٣٢ — ٣٥ .

من العلوم العربية كالتحقيق والصرف والبلاغة . وهكذا ارتبط الإسلام بالعربية على نحو يجعل للعربية درجة من الانتشار في كل المناطق الأفريقية التي تضم جماعات إسلامية ، ولنجاول أن نوضح هذا بأشكال من بعض المناطق الأفريقية .

هذا ولا يجوز اعتبار كل منطقة إسلامية منطقة عربية إذ مدى المعرفة بالعربية يرتبط بالعلاقات اللغوية للمسلمين ، فالمسلمون في اتحاد جنوب أفريقيا مثلاً يكونون بجمهورية أنثوية متميزة ، فمعظمهم من الملايو وأندونيسيا ، وقدر عدهم في إحصاء سنة ١٩٥١ بـ ٦٣ ألفاً بجانب أقلية من أصول عربية ، يتحدث هؤلاء المسلمون في حياتهم اليومية لغة الأفريكانز — هذه اللغة التي تطورت في أفريقيا عن اللهجة الألمانية التي حملها المستعمرون الألمان معهم إلى جنوب أفريقيا — غير أن الاستخدام اللغوي للغة الأفريكانز عند المسلمين به عناصر من اللغة العربية لم يأخذوها عن العربية مباشرة بل عبر لغة الملايو . كان هؤلاء المسلمون يلتقون لاستخدامهم لغة الملايو المكتوبة بالخط العربي (١) .

ومنذ عدة حقبات ظهرت لهم كتب دينية أحلت لغة الأفريكانز محل لغة الملايو في المجالات الدينية ، فقدموا طبعوا كتبهم الدينية كترجمات مالايوية لكتب عربية وهناك كتب كثيرة طبع النصان متوازيين ، واليوم أحلوا الأفريكانز محل الملايوية ، وأخذوا يكتبون لغة الأفريكانز لا بالحروف اللاتينية كما يفعل المسيحيون بل بالحروف العربية .

فهؤلاء مسلمون يكتبون بالخط العربي ، ولستكنهم لا يكادون يعرفون من العربية إلا ما تسرب منها عبر الملايوية من مصطلحات دينية .

فالمصادر العربية تشهر كثيراً إلى « مالي » و « ملك مالي » ، فإن خلدون يحدثنا

(١) انظر : H. Kähler, Studien zur arabisch-afrikanischen

Literatur, Der Islam (1961) s. 101-121.

عن « ملك مالى أعظم ملوك السودان »^(١) ، وكلمة السودان عند ابن خلدون لا تعنى دولة السودان بمحدودها الجغرافية التى نعرفها اليوم ، بل تدل على أفريقيا السوداء عموما ، ويحدد ابن خلدون الرقعة الجغرافية التى كانت عليها مملكة مالى ، فهى تجاور المغرب^(٢) ، وتناخم مواطن قبيلة صنهاجة البربرية وتناخم كذلك موطن ذوى حسان^(٣) . وخصص العمري (٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) فى كتابه مسالك الابصار فصلا عن مالى . وقد زار ابن بطوطة (ت ١٣٧٧ م) مالى وظل بها عدة أشهر ولاحظ أنهم مسلمون يصومون ويحجون ويقيمون الصلاة ولكنهم على عادات وثنية ، ولاحظ كذلك فى حديث ابن بطوطة عن مالى أنهم كانوا على صلة بمصر وأن بعض المصريين كانوا يعيشون هناك . ولكننا نلاحظ أنهم لا يستخدمون الدربة ، ومن ثم فقد نجحت الحاجة إلى مترجمين ييسرون التعامل . أما الصورة التى برسمها ابن بطوطة للساحل الصومالى فنشبه ما ذكرناه عن مالى غير أن السلطان الحاكم فى مقدشو كلامه بالمقدشى ويعرف العربية . . ويطول بنا الكلام لو تحدثنا عن انتشار العربية سلبا فى غرب أفريقيا أو شرق أفريقيا ، والمصادر المناخية نادرة ، والتراث العربى الأفريقى ما يزال مجهولا ولم يُنشر أكثره بعد ، غير أن الملاحظ فى كثير من دول أفريقيا ذات الجماعات أو الاغلبية الإسلامية وجود معرفة بالعربية .

فى نيجيريا الشمالية يعيش حوالى عشرة ملايين مسلم ، ويتناول التعليم الدينى عندهم فى أدنى مراحل الخط العربى والقرآن ومعظم تلاميذه من البنين ، وفى المراحل الأعلى يتناول برنامج الدراسة الإسلامية : النحو العربى وعلم الكلام وعلم الحديث وقدراً من النصوص الأدبية ، وهناك كتب مشهورة فى المعاهد

(١) انظر : ٥٥٤/٧ .

(٢) العرب ٥٥٤/٧ ، ٦٤٥ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ٢٥٤ .

الإسلامية في نيجيريا الشمالية مثل كتاب الأحاديث الأربعين للنووي ، ومختصر خليل في الفقه ويطلق عليه الكتاب ، ومقامات الحريري (١) .

وينبغي أن نشير هنا أن العربية في هذه المنطقة ليست وحدها لغة الثقافة ، فلهذا الهاوسا متداولة غير أن المعرفة بها لا تزيد عن المعرفة بالإنجليزية هنا . ويخلق الصراع بين النزوع إلى الدين والرغبة في ممارسة الحياة الحديثة — قيام مشكلات كثيرة تؤثر بالضرورة على تعليم اللغة العربية في تلك المنطقة .

أما في شرق أفريقيا فتعتبر زنجبار أكبر نقطة تركيز إسلامية تتوصل بالثقافة العربية ، وهم مرتبطون في قسم منهم بالجنوب العربي اثنولوجياً وثقافياً . أما في أوغندا فالمسلمون من أصل هندي وبمينة وعدد كبير منهم من أصول أفريقية ، وهناك تعليم ديني يقوم به رجال الدين ، ويطلق على الواحد منهم ملا وهي التسمية الفارسية لرجال الدين . ويقتصر هذا التعليم على المراسم الدينية ، أما كبار رجال الدين فلديهم إجازات في الباكستان ودار السلام وزنجبار وحضرموت وعدن ، وشيبه هذا ما يلاحظ في كينيا ، والمشكلة التي تواجه اللغة العربية هناك أنها مرتبطة بالماضي وتعلم كإداة لفهم الدين ، فمعاهد العلم التي تتيح تعلم العربية هي معاهد إسلامية . أما للتعليم الفني الحديث فلا يهتم بتعليم العربية ، ولعل السنوات القادمة تتبع تغيراً في هذا الموقف . هذا وقد أدت الترجمة السواحلية للقرآن التي أعدتها الطائفة الأحمدية إلى جذب الكثيرين نحو الإسلام ، فحوالي ٨٠ — ٨٥٪ من المسلمين الأفريقيين قد أسلموا على يد الأحمدية .

ولا ينق هذا أن هناك دراسات ما تزال تجعل اللغة العربية ضمن برنامج التعليم الديني ، ففي مومباسا يلتقي طلاب مع شيوخهم في المساجد لدراسة اللغة العربية والتفسير والفقه والبلاغة والحديث والتصوف والترحيد في حلقات مسائية ذات

(1) J. Schacht, Islam in North Nigeria. Studia Islamica No. 46.

برنامج يمتد سنوات . ورغم اختلاف الطوائف الدينية الإسلامية فكل من أراد ثقافة إسلامية عالية يتوسل بقدر من العربية يتيح له الاطلاع والفهم . أما في الصومال فالعربية أكثر انتشاراً واستخداماً إيجابياً⁽¹⁾ فهي لغة التعامل والكتابة؛ والعربية لغة الدين والحياة العامة ، ولذا فهي تفهم أكثر من اللغتين الإنجليزية والإيطالية هناك ، غير أننا نود هنا أن نلاحظ أن المعرفة بها في كل هذه المناطق تكاد تكون قاصرة على الرجال ، فهم الذين يتعلمون ويقومون بالعلاقات في الحياة العامة .

(1) B. W. Andzeyewski, Speech and Writing Dichotomy as the Pattern of Multilingualism in the Somali Republic, in colloque sur le multilinguisme, Brazzaville (1962).

الفصل الخامس عشر

اتجاهات التغير في البنية والمعجم

١ - التغير في البنية :

عندما كتب سيديوه في القرن الثاني الهجري كتابه العمدة في النحو لاحظ الفروى العظيم أن صوت الضاد من الأصوات الصعبة التي لا يسهل نطقها على غير البدو ، وتحدث عن نطق آخر لها أطلق عليه « الضاد الضعيفة » (١) . ولستأزيد هنا أن نفصل القول في كيفية النطق القديم للضاد البدوية ، فهذا لا يزال موضع خلاف بين الباحثين ، ولكن الضاد الضعيفة على كل حال ثمرة أثر من آثار الأساس اللغوي ، فاللغات التي سبقت العربية في الشام والعراق ومصر والمغرب لم تكن تعرف الضاد . كانت العراق حيث عاش سيديوه ملتقى لاختلاط من القوم يتحدث أكثرهم باللهجات الآرامية التي لا تعرف صوتاً اسمه الضاد . ولذا فقد نتج عن محاولتهم التاقص النطق بالضاد ذلك الصوت الذي يطلق عليه سيديوه اسم الضاد الضعيفة .

وربما يتصور البعض ق مصر أو في العراق أن هذه الضاد التي تنطق اليوم هي الضاد التي كان ينطقها امرؤ القيس أو زهير قبل الإسلام ، أو كمب بن زهير في صدر الإسلام ، أو الخليل بن أحمد في القرن الثاني للهجرة ، وهذا غير صحيح ، فالنطق العراقي الحالي للضاد يخلطها مع الفاء . خلطاً يجعل التلاميذ يخطئون في الكتابة

(١) الكتاب (ط بولاق ١٣١٧) ٤٠٤/٢

بين هذه تلك . وهذه الظاهرة ليست وليدة الساعة بل برزغت مع استقرار العربية في العراق ، وهناك عدد كبير من الرسائل أكثرها من العراق والمغرب يحاول مؤلفوها فيها التمييز بين الكلمات ذات الضاد والآخرى ذات الظاء ، ولولا الخلط لما كانت هناك ضرورة لتأليف هذه الرسائل (١) .

أفقد النقت الضاد والطاء في العراق في نطق واحد هو النطق الذي يسمعه أبناء مصر ظاء ، أما في مصر فهناك تطور مواز ، فقد النقت الضاد والطاء في نطق واحد ، فنحن نقول اليوم كلمة (ظل) في العامية كما لو كانت بالضاد ولنا نريد الآن تحديد زمن هذا الخلط ، وفصارى محاولتنا هنا أن نبين أن هذا النطق الذي يتصوره بعض أبناء مصر نطقاً قديماً للضاد ليس كذلك ، فهذا النطق الحديث يجعل من الضاد صوتاً مطبقاً مقابل للدال . ولكن سيديويه جعل المقابل المطبق للدال هو الطاء لا الضاد . وهنا وجه الخلاف بين القديم والحديث ، فالأطباقي في اصطلاح علماء الأصوات العرب للقدائي والمماصرين اتخذ طرف اللسان وأفصاء وضماً مرتفعاً نحو الحنك الأعلى مع حدوث تقعر في وسط اللسان ولو طبقنا الفهم العلمي الدقيق لنصوص سيديويه على البحث الصوتي لخرجنا من هذا أن النطق للقديم للطاء (ط) هو ما يتطبق تماماً على النطق الحالي للضاد في مصر ، فالضاد في مصر تنطق مثل الدال ، اللهم إلا أن الضاد مطبقة والدال غير مطبقة ، وقديماً قال سيديويه « ولولا الاطباقي لصارت الطاء دالا . . . » ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شيء في موضعها غيرها . لقد حدث إذن تطور في عدد من الأصوات ، لقد صعبت الضاد فتحوّلت إلى نطق جديد وتغير نطق الطاء .

(١) رمضان عبد التواب : مشكلة الضاد وتراث الضاد والطاء ، في : مجلة المجمع العلمي العراقي (١٩٧١) وبه قائمة بهذه المؤلفات في الفرق بين الضاد والطاء .

(٢) الكتاب ٤٠٦/٢

وهناك قضية يثيرها كثير من الباحثين حول نطق القاف، وقد وصف سيدييه نطق هذا الصوت وصفاً بجملة من الأصوات التي يهتز الوتران الصوتيان اهتزازاً شديداً عند النطق بها، ويطلق على هذا النوع من الأصوات اسم : « الأصوات المجهورة » ، ولكن النطق الحالي لهذا الصوت في قراءتنا للعربية الفصحى لا يجعل الصوت مجهوراً ، أي أن الوترين الصوتيين لا يهتزان اهتزازاً يذكّر عند النطق بالقاف في نطقها التقليدي على مستوى الفصحى ، فكيف نتيج الاختلاف ؟ هل تطورت القاف من صوت مجهور إلى صوت غير مجهور ؟ وكيف كانت القاف القديمة ؟ يرى بعض اللغويين أن هذه القاف القديمة هي القاف البدوية أعني الجاف البدوية ، وليعد القاري - المكرم بسمعه إلى البدو يقول (هو جال لي وأنا جلت له) إن هذه الجاف مجهورة فعلاً وقد تكون هي القاف التي عرفها سيدييه . ويرفض بعض الباحثين هذا التفسير قائلين بأن القاف القديمة تشبه الغين الحالية أي تشبه النطق العامي الحالي للقاف في السودان والكويت والخليج العربي (١) .

ويرى بعض الباحثين أن هذا الصوت هو الوريث الحقيقي للقاف القديمة . إن ظوار التطور الصوتي كثيرة وحسبنا مع ضيق المكان ما ذكرناه .

كلمات جديدة :

أما التطور في الكلمات فأبعد مدى وأكثر وضوحاً ، إن وزن فاعل ووزن مفعول والأوزان الأخرى هي ، لم يكذبوا عليها تغير في البنية ، ولكن التغير في هذه الأوزان يمكن في بناء كلمات جديدة لم يكن يعرفها المجتمع البدوي القديم . ولنتظر نظرة بسيطة إلى مادة جمع في « لسان العرب » مقارنين إياها بنفس

(١) حول الجانب الصوتي في لهجة الكويت . انظر : عبدالعزيز مطر : خصائص اللهجة الكويتية ، الكويت فبراير ١٩٦٩ ، وقد ناقش الباحث هذه القضية ص : ٣ - ٣٥

المادة في معجم دوزي^(١) ، والمعروف أن كل المادة التي في لسان العرب المؤلف في القرن السابع الهجري قد أخذت من معاجم سبق تأليفها في مراحل سابقة ، وهذه المعاجم أخذت مادتها بدورها من الرسائل اللغوية التي أثمرت عنها حركة جمع اللغة في البادية في أواخر القرن الأول وعلى امتداد القرن الثاني وأوائل القرن الثالث . والاستثناء الوحيد هنا هو ما أخذه صاحب لسان العرب من معجم تهذيب اللغة للأزهري ؛ فقد سجل الأزهري بنفسه في القرن الرابع الهجري مادة لغوية في البادية . إن مادة اللسان إذن مادة بدوية وجلها يرجع إلى القرن الثاني الهجري ، فإذا تفعل الحضارة العربية الإسلامية والعلوم الناشئة والمجتمع الحضري في العراق والشام ومصر والمغرب والاندلس بهذا المعجم البدوي الذي يعرف للجعل أكثر من مائة اسم ، وماذا يفعل المفكر الاندلسي بمائة اسم الأسد .

لقد نشأت كلمات جديدة مع الضرورات الحضارية الجديدة ، ولولا هذه التجديدات لما عرفنا الحضارة العربية الإسلامية في أبعادها المأثورة . وعندما حاول المستشرقون الأوروبيون قراءة التراث العربي الإسلامي لم يسعفهم لسان العرب في الفهم الدقيق للكلمات وغال تفكيرهم ، وحاولوا بالمقارنة فهم السياق حتى عرفوا المقصود معرفة تصيب أحيانا وتجهافي الصواب أحيانا . وهنا ظهرت الحاجة إلى تأليف معجم مكمل للمعاجم العربية ، وقام المستشرق دوزي بعمل هذا المعجم . ومن الطريف هنا أن نقارن مادة من المواد في اللسان كمثل اللغة البادية بما جمعه دوزي كنموذج للكلمات التي استخدمت في عصر الحضارة العربية الإسلامية . وكى تسكمل الصورة لننظر في المعجم القيم الذي ألفه عالم هندي جليل في القرن الثالث عشر الهجري هو الشانوي . وهذا المعجم هو كشف اصطلاحات الفنون .

لقد أمدت البدوية بمجتمع الحضارة الإسلامية بالمواد اللغوية المختلفة ونعني بالمواد

Dozy:supplément aux dictionnaires, l. II. Leiden-Paris 1881. (١)

هنا الحروف الأصول، وأمدت أيضا بعدد من القوالب أو الأوزان ولكنها لم تكن بحاجة إلى استخدام جميع الأوزان من كل كلمة، فثلا وزن انفعلم من المادة جمع أى : انجمع . لم يرد في لسان العرب ولكنه استخدم في الاندلس الإسلامية . يقول المقرئ : « انجمعت عن على النفوس » .

الأوزان : أفعال وأفعول أو أفعئل أو أفعنلى وغيرها من الأوزان النادرة لم ترد أيضا من المادة (جمع) ، ولكن القضية ليست فقط قضية وجود الكلمة ، فالكلمة كرمز صوتي لقيمة لها دون استخدام ، والمعنى هو العنصر الثاني بعد وجود الرمز ، فالرمز اللغوي لا يكون رمزا إلا إذا كان له معنى ، وسنحاول فيما يأتي تتبع تطور بعض اللفاظ التي تدخل في مادة (جمع) .

لقد عرف لسان العرب كلمة (جمع) أنها تقيج ضم شئ إلى شئ أو أنها مرادف لكلمة جماعة من الناس ، والجمع أيضا هم القوم المجتمعون ، والجمع فوق هذا وذاك : الاشتات من القر . ولكن العلوم العربية الإسلامية استخدمت كلمة الجمع كاصطلاح ، وكل علم عرف لهذا الاصطلاح معناه ، يوضح هذا لنا كتاب التهانوي كشاف اصطلاحات الفنون^(١) ، فالجمع عند المحاسبين هو زيادة عدد إلى عدد آخر : أى أننا إذا أضفنا ٥ + ٦ = ١١ لكان هذا جمعا . ولو أضفناه ٥ + ١٠ = ١٥ لكان عنده تضيفا . ويذكر التهانوي أيضا الجمع عند علماء أصول الفقه : وهؤلاء هم المهتمون بالقضايا المنهجية للفقه الإسلامى ، فالجمع عندهم : « أن يجمع بين الأصل والفرع لعل مشتركة بينهما ليصح القياس » . وأما الجمع عند النحويين فله معانيه وصوره المختلفة ، ونفس المصطلح نجد أيضا عند البديعيين والصوفيين والمنطقيين وغيرهم من أصحاب العلوم . وهكذا استخدمت الكلمة القديمة (جمع) استخداما اصطلاحيا متنوعا .

(١) انظر مادة (جمع) في كشاف اصطلاحات الفنون (ط القاهرة ١٩٦٣)

ولنقف قليلا عند كلمة (الجامعة) ، فهذه الكلمة استخدمت كما يخبر لسان العرب - صفة للمؤنث واسماً ، فالسنة مثل قولهم (سورة جامعة) أى جمعت فيها أشياء كثيرة ، و (الجامعة) اسماً بمعنى الغل أو القيد ، وشتان بين هذا الاستخدام الحديث ، ونحن نعرف الجامعة اليوم تياراً سياسياً هو الجامعة الإسلامية ، ومنظمة دولية هى : الجامعة العربية ومعهد أكاديميا مثل جامعة القاهرة ومعهدنا عليا غير أكاديمي مثل الجامعة الشعبية .

أما كلمة (جماعة) فيبدو أن استخدامها كثر وشاع بمعنى عهد جديد في عصر الحضارة الإسلامية . إن لسان العرب يعرف الكلمة ، فالجماعة عنده الجمع من الناس أو الشجر أو النبات ، ولكن إذا نظرنا في معجم دوزى لاحظنا أن معظم أمثله حول كلمة جماعة مأخوذة من مؤلفات الأندلسيين والمغاربة . ذكر دوزى في استخدام الكلمة : « مذهب السنة والجماعة » ، « أهل السنة والجماعة » ، « جماعة المسلمين » ، « أمر الجماعة » ، « افترق أمر الجماعة » ، « المستمسكون بالجماعة » ... الخ . وواضح أن كلمة الجماعة تبنى هنا الصف الإسلامي (الموحد) . وكل هذا نفله دوزى عن المقرئ وابن خلدون وأبي حيان وغيرهم من المغاربة . ولنفكر قليلا في استخدامنا العامي لكلمة جماعة كناية عن الزوجة ... لنلاحظ تغييرا في دلالة الكلمة .

وهناك عدد من الالفاظ لم تعرفها اللغة العربية حتى القرن الثاني إذا سلمنا أن لسان العرب قد قدم لنا صورة أمينة لها ، فكلمة (جمعية) لم يعرفها اللسان ونجدها لأول مرة في معجم دوزى ، وهو يذكر تحتها « جمعية أهل البلد » ، ولكننا نستخدم الكلمة اليوم استخداما اصطلاحياً شائعاً فتتحدث عن الجمعية العمومية لإحدى الشركات المساهمة وعن الجمعية العامة للأمم المتحدة كمجموع الأعضاء المساهمين أو المشتركين ، وعن جمعية الاسعاف كنظمة خيرية ، وعن الجمعية التشريعية كجلس نيابي ، وعن الجمعية التعاونية ، وكذلك عن الجمعية الاستهلاكية . وهكذا ظهرت الكلمة واستخدمت وشاعت .

وشبيه بهذا القول في كلمة (اجتماع) فهذه الكلمة لم يعرفها اللسان وذكرها
دوزي عن أبي القداء بمعنى اللقاء ، ثم أفراد لها التهانوى في وكشاف اصطلاحات
الفنون ، عرضاً مسهباً ، وتحدث عن مفهوم الاجتماع ، عند المنجمين وعند
علماء الكلام وكذلك عند النحاة ، فشكل علم مصطلحه . . وإذا قلنا اليوم كلمة
الاجتماع ، تبادر إلى الذهن اجتماع مجموعة من الناس في مكان ما أو اجتماعهم
على شيء . ، وربما تذكر البعض « علم الاجتماع » ، هذا العلم الجديد الذي
استعان بالكلية القديمة ليسمى نفسه في العربية ، وربما خطر في ذهن أحد القراء
وزارة الشؤون الاجتماعية . . فكلمة اجتماعية من اجتماعي ، والآخر من
اجتماع ، وربما تذكرنا المساواة الاجتماعية أو العداوة الاجتماعية — كل هذا
من الكلمة التي لم تكن تعرفها لغة البدو حتى القرن الثاني ، وهل كان يجتمع
البدو أن يعرف العداوة الاجتماعية أو علم الاجتماع أو اجتماع الساكنين
عند النحاة !

ولعل من غير المتصور أن يتحدث اليوم مثقف عربي دون أن يستخدم كلمة
(مجتمع) ، ولكن هذه الكلمة لم يعرفها اللسان ، وأقدم استخدام نعرفها لها هو
ما سجله دوزي نقلاً عن الجغرافي العقلي المشهور الإدريسي ، وربما كان الإدريسي
أول من عرف هذه الكلمة التي أصبحت في العصر الحديث مصطلحاً هاماً .
وشبيه بهذه كلمة (مجمع) ، تحدث اليوم عن المجمع العلمي والمجمع اللغوي ،
فهل عرفت لغة البادية هذه الكلمة ؟ نعم لقد عرفت ولكن بمعنى المجمع
من الناس ونقطة الالتقاء وموضع الاجتماع ، وهذه المعاني القديمة أصل
للاستخدام الحديث .

وفوق هذا وذاك فنحن نعرف اليوم كلمة (المجموع) كاسم قائم برأسه وكذلك
كلمة (المجموعة) كاسم آخر ، ولكن الكلمة عرفت قديماً ، فالمجموع في اللسان
ما جمع من هنا وهناك وإن لم يجعل كالشيء الواحد ، ولكن كلمة المجموعة لم

تعرف قديماً كاسم قائم بذاته بل كصفة ، ولتقرأ أمثلة دوزى : « قرية بمجموعة عامرة ، ببلدة بمجموعة ، أى زاخرة بالسكان ، ولكن الكلمة تحولت اليوم فى الاستخدام الحديث إلى اسم قائم بذاته .

وأخيراً نذكر كلمة (تجمع) هذه الكلمة الشائعة فى الاستخدام المعاصر والتي لم تعرفها المعاجم القديمة ولا محاولات استكمالها ، وكأن هذه الكلمة صياغة جديدة لمادة قديمة فى شكل قديم . فإذا كانت المادة قديمة فى العربية والأوزان المختلفة قديمة أيضاً ، فإن الاستخدام اللغوى القديم لم يكن بحاجة إلى صياغة كل الأوزان والمشتقات من هذه المادة . فالتطور الذى حدث يمكن فى صياغة كلمة جديدة من وزن معروف ومادة معروفة ، وهكذا تظهر من العنصرين كلمة جديدة ، ويظهر التطور أيضاً فى استخدام الكلمة القديمة لتؤدى دلالة جديدة أرادت العلوم أو الحضارة التعبير عنها ، فوجدت فى الكلمة القديمة إمكانية طيبة طورتها بالاستعمال فى المعنى الجديد فاكنتبته . وأصبحنا لا نعرفها إلا فى الاستخدام الجديد .

تراكيب نحوية جديدة :

وفوق هذا وذاك فهناك ظواهر كثيرة نلاحظها فى بناء الجملة العربية الحديثة ، ولا تكاد تبدو شائعة فى الضوابط التى استخرجها النحاة من لغة القرون الأولى . فالجملة العربية الحديثة كما نعرفها فى الكتابات والمؤلفات والصحافة تعرف تراكيب المصادر على نحو لم يعرف قديماً بنفس القدر من الانتشار . نقرأ اليوم عن احتمال قيام حرب فى منطقة ما ، والكمالات : احتمال ، وقبام ، وحرب ، كلها مصادر أضيف سابقها إلى لاحقها ، ونسمع من الإذاعة على لسان أحد رجال الأمم المتحدة : استحالة منع نشوب حرب بين مصر وإسرائيل ، والكمالات : استحالة ، ومنع ، ونشوب ، وحرب ، كلها مصادر أضيف سابقها إلى لاحقها على نحو لم تكن تعرفه اللغة القديمة على هذا النحو التراكيب . هذا وينبغى أن نذكر فى هذا

الصدد أن دراسات النحاة العرب للغة إنما قامت على أساس لهجات بعض القبائل
 و لغة الشعر العربي في القرن الثاني للهجرة ، ولم تضع هذه الدراسات نصوص النثر
 العربي الذي ازدهر بعد هذا في بؤرة التحليل اللغوي ، ولذا فن الصعب الاعتماد
 على كتب النحاة القدماء لتعرف على طبيعة الاساليب التي عرفها النثر العربي
 الإسلامى ، ونحن نلاحظ بعض الظواهر الموجودة في النثر فنلاحظ الشائع
 الجديد في النثر ولا نراه في تلك المؤلفات التي قامت أساساً على دراسة لغة الشعر ،
 فأحسكنا هذه تظل لسيبة إلى أن يوضح البحث نسبة شيوع هذه الظواهر في
 الشعر والنثر على نحو تاريخي وهذا هو ما يصبو إليه النحو التاريخي
 للغة العربية .

يعرف النثر العربي الحديث اتجاهاً إلى فك حالة الإضافة باستخدام حرف
 جر ، وهذه الظاهرة شائعة نمارسها ونفهمها ليل نهار ، فنحن نتحدث عن صورة
 من الصور ونقول ، هذا منظر عام للواجهة الامامية لجامعة القاهرة ، تفصيلاً
 للمباراة الموقعة : منظر واجهة جامعة القاهرة ، ولنتقارن الجملتين : ففي الثانية
 كلمة منظر مضافة إلى واجهة ، وكلمة واجهة مضافة إلى جامعة . ولكن الجملة
 الأولى عرفت فك حالة الإضافة مستخدمة بين المضاف والمضاف إليه حرف جر
 هو اللام ، فبدلاً من « منظر واجهة » نقول « منظر لواجهة » ، وبدلاً من
 « واجهة الجامعة » نقول « واجهة . . لجامعة . . » . ولكن ينبغي أن نلاحظ هنا
 أيضاً أن المضاف السابق في كل هذه الحالات قد وصف ثم جاءت اللام ثم المضاف
 إليه السابق بعد ذلك . وعلى هذا فنحن نتحدث عن منظر عام — للواجهة
 الامامية — لجامعة القاهرة . وكذلك عن المدير العام — لإدارة البعثات ، وعن
 المفوض العام — لشركة السيارات ، أو عن : المراسل الخاص — للأهرام أو :
 الأمين العام — لجامعة الدول العربية . وفي كل هذه الحالات وصف المضاف
 السابق ، وفككت حالة الإضافة باللام .

وإذا نظرنا إلى مزيد من الأمثلة الخاصة بفك حالة الإضافة باللام وجدنا أن المضاف السابق يكون في كثير من الأحيان في حالة إضافة جديدة . نقول (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) ، فالتعبير البسيط (منظمة التربية و . . .) قد فك بدخول اللام على المضاف إليه (التربية) وبدخول مضاف إليه جديد مضاف إلى المضاف الأول ، فتحدثنا عن منظمة الأمم . . . ل . . . ، وعن وزير الدولة ل . . . ، وعن سو . استعمل الحقى ل . . . ، وعن أول اجتماع ل . . . ، وعن استلام الدولة ل . . . وهكذا نلاحظ أن ظاهرة فك حالة الإضافة باستخدام اللام بين المضاف القديم والمضاف إليه القديم ارتبطت بتخصيص المضاف القديم إما بالصفة أو بمضاف إليه جديد .

وإلى جانب هذا نلاحظ فك حالة الإضافة باستخدام حرف الجر : الباء ، فنحن نقرأ عن قرار بتأميم الشركة ، أو تفويض بمقد الاتفاقية ، أو أمر بإنشاء ، أو مشروع بتحويل رئيس الدولة . . . وهذه الظاهرة شائعة في النثر العربي الحديث . ولا يكاد يعرفها الاستخدام القديم ، وعلى كل حال فظاهرة فك حالة الإضافة في العبرية الحديثة وفي اللهجات العربية الحديثة ، ففي العبرية القديمة يكون المضاف والمضاف إليه تركيباً واضح المعالم مثل (سيفر يوسف) أى سفر يوسف ولكن التعبير الحديث (هيفر شل يوسف) أى الكتاب الذى ليوسف ، ولو كننا أكثر دقة لترجمنا العبارة إلى العامية المصرية قائلين : الكتاب بتاع يوسف ، فحالة الإضافة فككت هنا وهناك في العبرية باستخدام (شل) كأداة للربط بين المضاف والمضاف إليه السابقين ، وفي اللهجات العربية الحديثة باستخدام كلمة (بتاع) أو (متاع) ، أو (حق) (١) ، فظاهرة فك حالة الإضافة موجودة إذن في مستويات

(١) في بعض اللهجات البدوية المعاصرة يقال : البيت حجج (جيم مصرية) إبراهيم ، بمعنى : بيت إبراهيم .

لغوية حديثة مختلفة ، وكل مستوى يستخدم للفك أدواته الخاصة به، ولم تعد الظاهرة أمرا نادرا أو خاصا بضرورة الشعر كما سجل النحاة القدماء .

وفوق هذا وذاك فقد طورت العربية الفصحى في استخدامها الحديث عدة وسائل للتعبير عما يعبر عنه في علم اللغة بالتنكير . ومعروف أن العربية تعرف عدة أنواع من المعارف ، وكان التنوين وما يزال يؤدي فيها وظيفة علامة للتنكير . ولكن الاستخدام الحديث يعرف أيضا استخدام كلمة (أحد) والواو ث (إحدى) مضافة إلى ما بعدها للتعبير عن التنكير . نجد هذا في العبارات الآتية :

أحد الأمريكيين — أحد البيوت — أحد رجال الشرطة — أحد كبار الضباط — إحدى السفن الحربية — إحدى المدارس — إحدى الصحف — إحدى المقومات الأساسية، فكلمة أحد أو إحدى أضيفت إلى صيغة الجمع التالية، والتركيب كله معناه معنى المفرد النسكرة . وشبهه بهذا أيضا استخدام كلمة (ما) بعد المفرد للتعبير عن كونه نسكرة ، وهذا التعبير له جذوره في القرآن الكريم : (مثلا ما)^(١) ونجد شائعا في النثر العربي الحديث مثل : شيء ما ، وقت ما ، يوم ما ، اصطلاح ما ، ... إلخ ، وهكذا عرفت اللغة العربية في العصر الحديث للتنكير تعبيرات مختلفة بأدوات طورتها لذلك وأخذتها لهذا من اللغة المتوارثة^(٢) .

٢ - نحو المفردات في العربية :

إن نظرة إلى جملة واحدة بسيطة في حديثنا اليومي أو أحد الكتب الحديثة أو القديمة لتعطينا كلمات لها تاريخ ، ولكل كلمة في كل لغة تاريخ ، فالكلمة نحيا وتستخدم وتغير وتموت . . والعربية تعرف كلمات ترجع إلى اللغة السامية الأم ، وهذه ترجع إلى ما قبل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، وهناك كلمات لا تعرفها

(١) البقرة ٢٥

(٢) الفهرست (ط فلو جل)

من اللغات السامية إلا العربية ، عرفتها بعد أن هاجرت الجماعات السامية الأخرى من عهد الساميين ، وهناك طائفة من المصطلحات استخدمت مع العلوم الإسلامية ، وفوق هذا وذاك فهناك طائفة من الألفاظ الأجنبية تعربت تريبا كاملا ، ولم نعد نحس اليوم أنها أجنبية ، بجانب طائفة ماتزال عجمتها واضحة أمامنا ، إن مستخدم اللغة لا يهتم بتاريخ الكلمة أو أصلها ، وكل ما يهمه هو أن يستطيع استخدامها ، فالمتحدث ساعة استخدامه للغة لا ينظر إلى حياة كل كلمة ، بل يستعمل الرمز اللغوي لنقل السكر أو الأفعال إلى المتلقي أو للتنفيس عن عاطفة أو شعور . إن ماضي الكلمة وتاريخ اللغة أثر على يهتم به الباحثون . ولا غرابة ، فالإنسان يحتاج اللغة كما يحتاج هواء للتنفس ، ولكن معرفة طبيعة عملية التنفس وطبيعة مكونات الهواء أمران عليان يهمان الباحث ك موضوع البحث ، ولا يهتم الإنسان العادي إلى بالممارسة العملية للغة والتنفس ، فدراسة حياة كل كلمة عمل على .

ولننظر في كتاب القهرست لابن التديم إلى العنوان البسيط التالي : « أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربي » . لكل اسم من كلمات هذا العنوان في تاريخ اللغة قصة ، فكلمة (اسم) كلمة سامية قديمة نجدها في صورة أو أخرى في كل اللغات السامية ، نجدها في النقوش الأكادية المؤرخة في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . فهذه الكلمة يزيد عمرها إذن عن خمسة وأربعين قرنا . وقد بحثت الكلمة في ضوء المنهج المقارن . ويرى معظم الباحثين أنها من أصل ثنائي هو السين والميم أو الشين والميم ثم تطورت بعد هذا في اتجاه الثلاثي ، والألف التي نراها في الخط العربي في هذه الكلمة هي ألف وصل تسقط في نطق الكلمة في السياق . والصيغة التي أمامنا من الكلمة هي صيغة جمع التكسير ، وجمع التكسير ظاهرة خاصة بالمجموعة الجنوبية من اللغات السامية ، أي أنه يوجد في الحبشية والعربية الجنوبية والعربية الشمالية ، ولا يوجد في اللغات السامية القديمة في العراق والشام .

والكلمة الثانية في هذه العبارة هي كلمة (نقلة) وهي من المادة العربية نقل ، وهذه تفيد النقل المادي أي نقل شيء من مكان إلى آخر ، وتطور المعنى هنا إلى

النقل المعنوي ونقل الفكرة من لغة لأخرى . وهنا نؤرخ أن استخدام كلمة (ناقل — نقله) بمعنى (مترجم — مترجمين) قد عرف في القرن الرابع الهجري عندما ألف كتاب الفهرست لابن النديم ، والواقع أن دراسة تاريخ اللغة لا يتحقق إلا بدراسة النصوص وتحليلها وتصنيفها ، ثم يتبع الظاهرة صوتية كانت أو صرفية أو نحوية أو دلالية تقبها تاريخياً يحدد على نحو دقيق زمن ظهور الكلمة ومكان ظهورها وتطور دلالتها على مر التاريخ .

يذكر ابن النديم في هذا العنوان كلمة (اللغات) وكلمة (اللسان) ، ولا بد أن نقف قليلاً عند الكلمتين ، فالكلمة الثانية (اللسان) كلمة ترجع إلى أقدم اللغات السامية ، هي من المعجم الأساسي المشترك في اللغات السامية حملتها الهجرة الأكادية معها ، فهي أقدم من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . ولو نظرنا إلى الكلمة في اللغات السامية الأخرى وجدناها في العبرية (لاشون) وفي الآرامية (لسانا) ، والكلمات الثلاث (لسان — لاشون — لسانا) كلمة واحدة من الناحية الاشتقاقية ، فالسين في العبرية يقابلها شين في العبرية والآرامية ، وهذا قانون صوتي ، والقوانين الصوتية مطردة لا تعرف الشذوذ . والحركة التي بعد السين في العبرية هي فتحة طويلة وفي العبرية نجد بعد الشين ضمة طويلة ، والواقع أن الفتحة الطويلة في العبرية يقابلها دائماً ضمة طويلة في اللغات الكنعانية ، والعبرية إحدى اللغات الكنعانية ، وهذا أيضاً قانوني صوتي مطرد . وإذا نظرنا بعد هذا إلى الكلمة الآرامية (لسانا) لاحظنا أنها بفتحة طويلة ، وقد كانت هذه الفتحة الطويلة أداة للتعريف ، فطورت العبرية لنفسها أداة هي (ال) تدخل في أول الكلمة وطورت الآرامية لنفسها فتحة طويلة تلحق بآخر الاسم لتفيد التعريف . الكلمات (لسان لاشون ، لسانا) كلمة واحدة اشتقاقياً وتفيد كل واحدة اللسان بالمعنى المادي (كجزء من الفم) ثم المعنى المعنوي أيضاً . فقد تحدثوا عن اللسان العربي أو اللسان الآرامي أو اللسان العبري .

لقد استمر استخدام كلمة اللسان بالمعنى المعنوى قرونا طويلة ، وعندما تأسست في القرن الماضي مدرسة للغات والترجمة أطلق عليها اسم « مدرسة الألسن » ، وكان ناظر هذه المدرسة رفاعة رافع الطمطاوى يستخدم في كتبه كلمة (لسان) مثلما نستخدم اليوم كلمة (لغة) فهو يتحدث عن اللسان العربى واللسان الفرنساوى واللسان اللاتينى . . ونحن نتحدث اليوم عن الإنجليزى والألماني والعربى والإيطالى ، وهذا التعبير ظهر أولا كصفة وموصوف نجده في القرآن الكريم : (بلسان عربى مبين)^(١) . ونجده عند ابن النديم في القرن الرابع الهجرى : « اللسان العربى ، اللسان السريانى ، اللسان اليونانى » ، وعند ابن النديم نجد أيضا حذف الموصوف والاكتفاء بالصفة ، أى : بالعربى — بالسريانى — باليونانى أو إلى العربى أو إلى السريانى أو إلى اليونانى ، ومن هنا استقر التعبير الشائع عندنا والذي كان صفة لا مؤنث بل لذكر هو اللسان .

أما كلمة (لغة) فترجع إلى أصل غير سامى ، إنها من الكلمة اليونانية Logos ومعناها : كلمة ، كلام ، لغة . وقد دخلت الكلمة العربية في وقت مبكر ، — فاللغويون العرب جامعوا اللغة في القرن الثانى للهجرة تحدثوا عن لغات القبائل ، وكثيرا ما وصفت الصيغة اللغوية التى اعتبروها ثانوية أو جانبية بأنها « لغة » ، وقالوا مثلا إن كلمة شهد أو كبر فيها أربع لغات شهد ، شَهد ، شَهد ، وكذلك كبر . . فاللغات هنا هى الصيغ أو الأشكال الفرعية . ولكنهم تحدثوا أيضا عن اللغة بالمعنى الاصطلاحي الذى نعرفه اليوم لكلمة : كلام ، قالوا : لغته فاسدة أو لغته جيدة ، ثم تغيرت دلالة هذه الكلمة في العربية إلى أن حلت شيئا فشيئا محل كلمة (لسان) . إن الحديث عن تاريخ حياة أى كلمة تاريخ طويل ، فالكلمة تعيش وتتفاعل ، والمعنى هو حصيلة الملاحظات التى عاشتها الكلمة .

إن العربية لغة ذات قدرة بارعة في هضم الألفاظ الأجنبية وجعلها مثل الألفاظ الأصلية فيها ، فكلمة فيلسوف كلمة يونانية مركبة Philosoph ومعناها الأول : حب الحكمة ، دخلت الكلمة العربية مع عدد كبير من ألفاظ الحضارة والثقافة اليونانية ، وعرفت العربية في عصر الحضارة الإسلامية ، ولكن العربية لم تسكتف باستخدام الكلمة بل كونت منها كلمات جديدة ، صاغت الفعل (تفلسف) وصاغت كلمة (فلسفة) وكلمة (المتفلسفة) ، وكل هذه الكلمات صيغت وفق الضوابط العربية من المادة الأجنبية . وقد دخلت معظم الألفاظ اليونانية إلى العربية عبر اللهجات الآرامية التي سادت الشام والعراق قبل الإسلام ، ولأسيما السريانية التي حملت ثقافة اليونان إلى العرب .

وبجانب هذا فهناك عدد كبير من الألفاظ الآرامية الدخيلة في العربية . إن حياة البادية القديمة لم تكن تعرف زراعة التفاح أو التوت أو الجوز أو الحمص أو الخوخ أو الرمان أو الفستق ، لم تعرف البادية هذه الثمار إلا عن طريق المناطق الزراعية في الشام والعراق وكانت هذه المناطق آرامية ، وعندما تعربت هذه المناطق احتفظت بهذه الكلمات للتعبير عن تلك السلع ، وهذه كلمات آرامية استقرت في العربية (١) .

وشبه بهذا كلمة (باب) لقد أخذت من الكلمة الآرامية (بابا) ، والآلاف الأخيرة أو بمعنى أدق الفتحة الطويلة الأخيرة علامة التعريف الآرامية ، ومعنى بابا ، الآرامية : شق ، فراغ ، خرق ، قطع ، قسم . وقد دخلت هذه الكلمة اللغة العربية بصيغتين ، باب وبابه (نقلا عن بابا) ولها في العربية نفس المعاني : فهذا باب البيت وهذا باب للخروج من المأزق ، وهذا باب في كتاب ، هذا وقد

(١) حول الألفاظ الآرامية الدخيلة في العربية

S. Fraenkel, Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen, Leiden 1978.

استخدم ابن دانيال في خيال الظل مصطلح « بابه » ، لتعبير عن القسم أو الفصل .
إن الكلمات الآرامية الدخيلة في العربية كثيرة متنوعة ، وكثير من الألفاظ دخل
من اليونانية عبر الآرامية ، لذا فدراسة الآرامية تفسر لنا كثير آمن جوانب تاريخ
المفردات العربية .

كان شأن الألفاظ القبطية في مصر شديداً بالآرامية في الشام والعراق ، ولذا
فقد دخل المهجة العربية في مصر عدد كبير من الألفاظ القبطية ، فأسماء الشهور
القبطية توت وبابه يعرفها كل فلاح في مصر ، كما يعرف كل فلاح سورى ايلول
وحزيران وشباط ، فأسماء الشهور المتداولة في العراق والشام عرفها الآراميون
عموماً بنفس الشكل « والترتيب » ، كما عرفت مصر في العهد القبطي توت وبابه وهتور
وكيهك وبرمودة وبرمهات . وهناك ألفاظ قبطية كثيرة ما تزال تعرفها لغة الحديث
اليومى في مصر مثل : برسيم ، بقوطى ، بورى ، هوش ، هلوس ، هجص ، مياص ،
تنوس ، شلوت ، واحدة ، طاش ، ورور .

ويطول بنا القول لو تحدثنا عن كل العناصر الأجنبية التي دخلت الاستخدام
اللغوى في المجتمع العربى ، ولكننا نكتفى ببعض اللغات ^(١) . فالتركية كانت لغة
الطبقات الحاكمة إجتماعياً ، وأثر هذا بأن دخلت بعض الألفاظ التركية إلى لغة
الحديث في العالم العربى ، فكلمة ططف (طوز) معناها ملح أو تافه أو تراب وهى
تركية ، وكلمة طاسلاق ومعناها فعل : بسرعة ودون عناية ، دخلت العربية من
التركية فأصبحت في الحديث اليومى (طلا) وأصبح هذا الفعل متصرفاً مثل باقى
أفعال اللهجات العربية . ويعرف أبناء الشام كلمة (باش) كقول معنى بدأ ، والواقع

• ليس صحيحاً أنها (رومية) كما زعم المقدسى : أحسن التقاسيم ١٨٣
(١) انظر في موضوع الألفاظ الدخيلة في العربية : جرجى زيدان : تاريخ
اللغة العربية (القاهرة ١٩٠٤) .

أن هذه الكلمة من الأصل التركي : باشلاق بنفس المعنى ، وقد اختصرت الكلمة وحدث فيها قلب مكافئ بأن تبادلت اللام والشين مكانهما على طريقة : أراب أنارب ، فأصبح (ب ش ل) — (ب ل ش) وقد استخدمت الكلمة كما يستخدم أى فعل في اللهجات العربية في الشام في مختلف اللهجات .

وهناك ألفاظ دخلت في شكلها التركي رغم كون بعض عناصرها من أصل عربي ، فنحن نعرف السلامك ، وهو مكان السلام في القصور حيث كان الجنود يصطفون لتحية الباشا ، والكلمة مركبة من كلمة سلام العربية والمقطع لك في التركية وهو يفيد المسكنية ، فالسلامك مكان السلام ، والحرمك مكان الحريم ، والصلاحك مكان السلاح . وهناك ألفاظ صيغت في العهد التركي في مصر من عناصر فارسية ؛ فنحن نعرف (مدرسة المبتديان) بالقاهرة ، وقد أسست في القرن الماضي حاملة هذا الاسم . وكلمة المبتديان ذات نهاية فارسية خاصة بالجمع ، وعلى هذا فهي (مدرسة المبتدين) ومازلنا نستخدم عبارة (كبير الياوران) ولانزعج من استخدام الالف والنون في المضاف اليه ، وهذا لأن كلمة الياوران ليست إلا جمعا ، والجمع هنا بالنهاية الفارسية آن ، وقد كانت الفارسية لغة يعرفها المثقفون في الدولة العثمانية ، وكانت تدرس كلغة كلاسيكية في بعض معاهد العلم في مصر في القرن الماضي حتى دخول الانجليز .

كانت التركية أيضا المعبر الذي انتقلت عليه ألفاظ أوربية مختلفة إلينا ، فنحن نعرف كلمة واپور وأصلها كلمة Vapour فكيف تحولت الـ v إلى واو ؟ الواقع أن هذا يفسر عن طريق استخدام الترك للنخط للعربي ، فقد عبروا بحرف الواو عن صوت v في لغتهم ، فإذا أرادوا كتابة كلمة تركية أو أجنبية بها صوت v كتبوها باستخدام الواو ، وعلى هذا فقد كتبوا كلمة واپور هكذا ، ونطقوها كما لو كانت « فابور » ثم انتقلت الكلمة بصورتها المكتوبة إلى العربية فنطقت « واپور » أو اعتقد المتحدث العربي آنذاك أن أصلها واو لم يستطع التركي نطقها . ومن ثم دخلت الكلمة العربية بالواو . وشبه هذا ما نراه في كتب القرن التاسع عشر عندما

يكتبون اسم (فينا) بالواو ، أى (وينا) ، وهذه الظاهرة تفسر لنا وجود بعض أسماء الاعلام في العربية ، لقد أخذ الترك عن العرب اسم (توحيد) ولكنهم نطقوا الواو كما لو كانت ف V ، ولم ينطقوا بصوت الحلق الخاء فهو لا يوجد في لغتهم ، لقد نطقوا كلمة توحيد كما لو كانت تفيده ، ومن هنا ظهر في العربية اسم جديد هو (تفيده) .

وهكذا عاشت العربية وتطورت بنيتها في تفاعل دائم مع طبيعة العلاقات الاجتماعية والاحتشائية والسياسية والدينية التي سادت في المجتمع العربي عبر التاريخ .